محمد عبد الحميد الحمد

صابئة حرّان وإخوان الصّفا

صابئة حرّان وإخوان الصّفا

* صابئة حرّان وإخوان الصّفا
* تأليف: محمد عبد الحميد الحمد
* الطبعة الأولى ١٩٩٨

* **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
* **الأهالي للتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

١ - ٢٩٩ ح م د ص ٢ - ١٣٥,١٨٩ ح م د ص ٣ - العنوان
٤ - الحمد مكتبة الأسد

محمد عبد الحميد الحمد

صابئة حرّان
و
إخوان الصّفا

الأهالي

الباب الأول

الحرانية ـ تاريخ وعقيدة

الفصل الأول ـ حران في مسارها التاريخي.

الفصل الثاني ـ الصابئة ـ الحرانية والمندائية.

الفصل الثالث ـ أهم قواعد العقيدة الحرانية.

الفصل الرابع ـ أهم الشعائر والطقوس والعادات.

الفصل الخامس ـ أعياد الصابئة واحتفالاتهم.

الفصل الأول
حران في مسارها التاريخي

التسمية والتاريخ القديم:

حران من المدن الهامة، في تاريخ الفكر البشري، إلا أن تسميتها وتاريخها، كانا مجهولين لدى مؤرخي السريان والعرب، حتى اكتشاف الرقم الطينية في العصر الحديث.

ذكر ابن جبير، عندما زارها في ١٨ حزيران عام ١١٨٥م، أنها بلد اشتق اسمه من هوائه[١] وقال عنها ياقوت الحموي: «يجوز أن يكون اسم حران، من فعلان من الحر، والنسبة إليها حرناني. وقيل سميت بهاران، أخي إبراهيم عليه السلام، لأنه أول من بناها فعربت، فقيل حران[٢].

وقال عنها الطبري في تاريخه: «إن نوحاً خطها، عند انقضاء الطوفان، وخط سورها بنفسه وفيها كانت منازل الصائبة»[٣]. ولكن أبا الفرج ابن العبري قال: «إن الذي بناها هو (قينان) على اسم هاران ابنه»[٤].

إن ماذكره المؤرخون السابقون هو أقرب إلى الأسطورة من التاريخ الحقيقي، الذي أشارت إليه اللقى الأثرية، التي حددت معنى «حرانو» أي «الطريق». لأنها كانت على الطريق الملكي القديم، طريق الحرير والمسلك المحاذي لخط العرض ٦٣ْ. وقد وصفها الجغرافي اليمني الهمداني: «أنها قصبة بلاد آثور، وملتقى النهرين، والجزيرة والشام. وأهلها أصحاب أدب، وحكمة، وعلم بالنجوم، وخبرة بالعلوم التعليمية، وأصحاب قياس للكواكب، ولهم ذكاء وفطنة»[٥].

وعن موقعها قالت الصابئة المندائية في كتابهم الشهير «حران كوثيه» أي حران السفلى «إنهم كانوا يعيشون في جبل (المادي) حيث الينابيع الساخنة في الشتاء، والباردة في الصيف، وهذا الجبل يمتد إلى حران»[٦].

إن أقدم ذكر لحران في الرقم الآشورية، ورد في خبر أن شلما ناصر الثالث احتلها سنة (٨٥٧ ق. م) وجلب إليها جالية آشورية، واختلطت بشعبها الآرامي، والعربي

وابتنى بها قصراً، ومعبداً لإله القمر (سين)، وجعلها ولاية تابعة له[٧]. وقد نال معبدها شهرة في العالم القديم فعرفت المدينة به وسميت (شارا)[٨].

كانت معيشة أهل حران تعتمد على اقتصاد مركب من إنتاج زراعي، كالحبوب بأنواعها، والزيتون والثمار والقطن والكتان، وعلى تربية المواشي (الأغنام والبقر)، وعلى التجارة البعيدة فمنها تحمل الموازين والزجاج ونسيج الكتان والصوف والشعر، وإليها تجلب بضائع الهند، والصين وفارس وروما وتدمر والبتراء. وكان للمعبد والكهانة إيراد عظيم ـ لهذا دعيت في الكتابات السريانية «مدينة الوثنية والأعراب»[٩].

لِمَ اشتهرت حران بالمدينة الوثنية؟.

إن كلمة وثني Paganus، كانت تطلق على الفلاح المتعلق بديانته الوثنية.

ثم صارت في العهد المسيحي، تطلق على كل من يعتنق الفكر الوثني.

بعد احتلال الاسكندر المكدوني لحران عام ٣٣٦ ق. م. أسكن فيها جالية مكدونية. ودعيت المدينة باسم (كاران)، وصارت مركزاً للفكر الهيليني، فدعيت حران (بهلينوبوليس». ثم امتزج الفكر الهيلني بالفكر الكلداني (عبدة النجوم) وبالكهانة اليونانية، وبتعاليم فيثاغورس. ورغم ذلك لم يشتهر منها سوى (بابا الحراني) الذي ذكره ديونسيوس ابن الصليبي (توفي ١١٧١) في كتابه الرد على العرب، لأنه اعتبره عربياً، وسماه نبي حران واتهمه بالكهانة، ونسب إليه أقوالاً كثيرة منها قوله: «بعد زمن طويل سيجيء اسم كبير من الشمال ويقيم داخل عزوز (يعني بذلك مدينة العزى حران) وكل من لايتبع كلامه يتحكم فيه الخراب»[١٠].

ومن الكهنة الذين عاشوا في حران مدعي النبوة الكسندروس (توفي ١٧٠)، الذي نال شهرة واسعة، في الامبراطورية الرومانية، في كشفه «طوالع الغيب». سأله الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦٤ - ١٨٠) عن هاتف غيب، عندما شرع في حملته على سكان جرمانيا. فأشار عليه بإلقاء أسدين في نهر الدانوب، لتحقيق النصر، وكان الكسندروس يجيب على الأسئلة التي يتلقاها داخل المعبد، ويرد عليها بهاتف صوتي، يخرج لهم من خلف الجدران بأنابيب فخارية ركبت ضمن الجدران. كان الهاتف يكلف كثيراً من المال، ومع ذلك ترى الناس، يتوافدون على حران من المدن البعيدة، في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية.

كان الفيلسوف الافلوطيني جمبليكوس (عاش حوالي ٣٣٠ في حران) ممتهناً هتافات الغيب الكلدانية وبنى معبداً في هيرابوليس (منبج)، يتخلله أشباح نورانية،

وموسيقى غير مألوفة، وتماثيل تصدر منها حركة، ضمن جو مفعم بالبخور، ودخن النباتات العطرة، مما يوحي بالرهبة والخشوع لم يتأثر المعبد الكبير في حران، رغم الحظر الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين الثاني سنة (٣٥٧ م). أصدر أمراً يقضي بوضع حد لقيام رجال البلاط الإمبراطوري باستشارة مصادر الوحي، والعرافين ومفسري الأحلام، وصار الموظف يعذَّب إذا وجه إليه مثل ذلك الإتهام[١١]. كانت مهنة الكهانة، من الأمور التي افتخر بها ثابت بن قرة الحراني، عند ذكر أجداده قال «لمن تجلت الألوهية الملقنة الكهانة، والمعلمة المستقبلات إلا لمشاهير الصابئة»[١٢].

عندما أسلم القاضي محمد به عيشون الحراني (المتوفي ٣٠٠ هـ/٩١٢م)، كتب كتاباً اتهم به كهنة حران بخداع الناس، إذ كانت في المعبد سراديب تحت الهيكل، فيها أشخاص للأشخاص العلوية، ومن خلفها تظهر أنواع الأصوات، وفنون اللغات، بحيل قد اتخذت، ومنافيخ قد عملت، تتكلم السدنة من وراء الجدران، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ، والمخاريق إلى الصور المجوفة، والأصنام المشخصة، فيظهر فيها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان، فيصطادون به العقول/ ولابن عيشون القاضي قصيدة طويلة، يذكر فيها مخاريقهم على العوام. مطلعها:[١٣]

إن نفيس العجائب	بيت لهم في سرداب
تعبد فيه الكواكب	أصنامهم خلف غائب

لِمَ دعيت حران بمدينة الأعراب؟

من الأوهام الشائعة أن العرب وفدوا إلى أرض الجزيرة، وجنوب سفوح طوروس، مع الفتوحات الإسلامية. والحقيقة أن العرب سكنوا هذه البلاد، منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. فمن استقر منهم في الأراضي المرتفعة، سمي (بالآرامي)، ومن سكن الأودية، والأغوار سمي (بالكنعاني)، ومن ظل يتجوَّل في البوادي، متنقلاً خلف إبله أو أغنامه، سمي عربياً. فإبراهيم الخليل (عليه السلام) عندما توجه من حران (فدان آرام)، سمي بالآرامي نسبة إلى تل الفدان (فدان آرام تقع غرب حران بحوالي ١٠ كم)، وسمي حفيده يعقوب بن اسحق بالآرامي التائه، عندما هاجر من أرض كنعان إلى فدان آرام.

جاء في الحملات الآشورية أن تفلات فلاصر الأول (١١١٦ ـ ١٠٩٠ ق. م) عبر نهر الفرات، حوالي ٢٨ مرة، احتل خلالها (ست مدن)، في سفوح جبال البشري، وغنم من أهلها، ومن حلفائهم العرب، غنائم كثيرة، حملها إلى عاصمته آشور[١٤]،

وفي هذه الوثيقة دلالة على العيشة المشتركة، بين الآراميين والعرب، وبالتالي تقاربهم الثقافي واللغوي. كان المؤرخون اليونان يطلقون على عرب الجزيرة اسم عرب الرها، وفي سنة ١٩٧٠ كشف الأثري البريطاني جورج سيغال في خرائب سوق مطر (الشمال الشرقي من حران)، تمثالاً نذرياً مقدماً إلى الإله (سين) القمر، من حاكم ديار وائل علماً أن التمثال مؤرخ بعام (١٦٥) م.

وحتى الوقت الحاضر سكان هذه المناطق (حول الرها ـ أورفا) هم من قبائل، قيس بن عيلان، الذين أسسوا منذ عام ١٣٢ ق. م. أمارة الرها، وكان أول ملك منهم يدعى (الأبجر أريو)، أي الأسد بالآرامية، وقد اتخذ له شعاراً ثالوث حران المقدس «الهلال والنجمة (الزهرة) والشمس». نقشها على نقوده[١٥].

تزخر المؤلفات السريانية، بذكر العرب في حران، يذكرهم أيشوع العمودي في تاريخه، أنه عندما وصل الإمبراطور جوليان ابن أخي الملك قسطنطين، إلى حران في الرابع من شباط سنة ٣٦٢ م، أعلن ارتداده عن المسيحية، وعودته إلى الوثنية، وأصدر مرسوماً بحرية الأديان، ابتهج أهل حران، ومن حولها من الأعراب، فقدموا له تاجاً ذهبياً، وخضعوا له، متوسلين قبول هديتهم فاستقبلهم الإمبراطور بفرح عظيم، واصطحبهم معه في حملته، على بلاد فارس ولكنه قتل بسهم طائش، وصاح عند موته «أيها الجليلي لقد غلبتني». من هنا يسميه المسيحيون جوليان المرتد «البزناط» بينما يسميه العرب وأهل حران «أوسيبوس» أي المؤمن والتقي[١٦]. قال ايشوع العمودي «كان العرب رماة بارعين، وعندما قتل الإمبراطور في صيف ٣٦٣م، انقلب البدو وأصبحوا عدائيين تجاه الرومان»[١٧].

وعندما زارت الراهبة (ايجيريا) حران في ٢١ نيسان من عام (٣٦٣م)، قالت: في مدينة حران، لم أجد مسيحيين، عدا بعض رجال الاكليروس، والرهبان الأتقياء الساكنين، هناك لأن السكان، كانوا جميعاً من الوثنيين وهم يكرّمون قبر لابان بن بنوئيل بن ناحور أخي إبراهيم الخليل، وكانت قبورهم على بعد ميل واحد من المدينة[١٨]. وقد ذكر ياقوت الحموي هذه القبور على لسان الشاعر المصري ابن النبيه قال: مررت مع الملك الأشرف بن العادل بن أيوب، في يوم شديد الحر، بظاهر حران، على مقابرها، ولها أهداف طوال علي حجارة كأنها الرجال القيام وقال لي الأشرف: بأي شيء تشبه هذه؟ فقلت ارتجالاً:[١٩]

هواء حرانكم غليظ مكدر، مفرط الحرارة

كأن أجداثها جحيم وقودها الناس والحجارة

وصف المؤرخ البيزنطي مارسيلنوس إميانوس (٣٣٠ - ٤٠٠) العرب حول حران والرها بقوله: «لم يقبض، أي منهم سكة محراث، ولم يزرع شجرة على الإطلاق، بل لم يسعَ أي منهم إلى العيش، من الحراثة، بل كانوا يتجولون فوق سهوب، لانهاية لها، لابيت لهم، ولاسكن ولا قانون، ولقد رأيت العديد منهم يجهلون القمح والخمر»[٢٠]، وكان الأعراب يمارسون الطقوس الوثنية. وقد أصدر أسقف الرها الملكي إمپرسيوس منشوراً بإبطال عادة الضرب على النحاس المرافق لخسوف القمر لأنه طقس وثني، فيه تمجيد الإله سين[٢١].

روى القديس جيروم، عن الراهب ملكي، عندما أسره الأعراب سنة (٣٩١) قال: «كانوا البدو يقبضون على الرهبان، فيرغمونهم على عبادة الأوثان، وهم من أبناء إسماعيل، يركبون الخيول والجمال، ويضعون أطواقاً حول شعورهم الطويلة، وأجسامهم شبه عارية، ويلبسون الجلابيب، والكنانات تتدلى من أكتافهم، وأقواسهم غير مشدودة، ورماحهم طويلة، وكانوا يسعون وراء كل غنيمة»[٢٢].

هاجم الشاعر السرياني إسحق الأنطاكي الأعراب، وجهاء بلدته (حورا) عام ٤٥٧م لأنهم كانوا وثنيين يؤمنون بالكهانة، التي تدعي معرفة الأشياء الخفية، قال «نبت غصن، من كرمة الهلاك، إنها حران الجديدة، نشأت على أرضنا. ادعى المتكهنون، فيها معرفة الأشياء لكنهم لم يتكهنوا بأن مصيرها بأيدي قطاع الطرق، وأن زوجاتهم، ستصبحن غنائم في بيوت الغرباء»[٢٣].

كان الشاعر مار يعقوب السروجي (٤٤٢ - ٥٢١)، يطلق على (حران العش الوثني)، وكانت حران تزخر بالأصنام العربية، لذا كتب محاورة شعرية، عن سقوط الأصنام، قال: إن أبولو قاد حران إلى الضلال بواسطة (سين) إله القمر، وبعل شمين (رب السموات)، وبار محرى، ومار كلابه (إله نهر الجلاب أو نهر المبديين)، وترعاثا (الزهرة) وعزلات الإلهتين (العُزى واللاة)، ولم يكن هناك مكان مرتفع خالٍ من سكب الخمور للآلهة، التي كان الشباب يقدمون لها، بأعداد غفيرة، الضحايا والقرابين، كما كانت العذارى تذبح للأصنام الإنثوية، وكان الكهنة يلبسون كتاناً أبيضاً، مغزولاً، بشكل بديع، ويتدثرون بالقلانس الجميلة»[٢٤].

هذه الملابس هي نفس الملابس التي شاهد المأمون كهنة حران يرتدونها سنة ٢١٨هـ ٩٣٣م/ وقد أثارت انتباهه، وسألهم عن معتقدهم.

حران في العهد الراشدي:

حاصر عياض بن غنم الأشعري (توفي ٢٠ هـ ٦٤٢م)، حران سنة ١٨ هـ ٦٣٩م، عدة أيام بعد فتحه للرقة، فخرج إليه، مقدموها من الحرنانية، وقالوا له: ليس بنا امتناع عليكم، ولكننا نسألكم أن تمضوا إلى الرها، فما صالحت عليه، فعلينا مثله[٢٥].

وقد حفظ لهم المسلمون هذه المنّة فتركوهم يعيشون بحرية، حسب تقاليدهم الخاصة. على أن يؤدّوا الضريبة المفروضة عليهم[٢٦]. قال الواقدي: إن عياضاً دعالهم: ثبتهم اللهم على دينهم، ولاتمكن من بلدهم عدواً[٢٧]. أظن أن هذا الدعاء لاصحة له وإلا فكيف، يدعو عياض، لملة مشركة بالثبات على ذلك الدين الباطل.

قال الطبري صالح أهل حران، ماصالح عليه أهل الرقة[٢٨]. وقال البلاذري (يحيى بن جابر) المتوفي ٢٧٩ هـ حدثني داود بن عبد الحميد بن عمرو بن ميمون بن مهران وهو من أهل الرقة، قال: إن كتاب عياض لأهل الرها هو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب، عياض بن غنم، ومن معه من المسلمين لأهل الرُّها. إني أمنتهم على دمائهم، وأموالهم، وذراريهم، ونسائهم، ومدينتهم، وطواحينهم. إذا أدّوا الحق الذي عليهم، وأن يصلحوا جسورنا، ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون»[٢٩].

وجعل عليهم، عياض الجزية، جريباً وديناراً، على كل جمجمة على من جرت عليه الموس. وجعل عليهم لأرزاق المسلمين، من الحنطة، لكلِ رجل مُدين، ومن الزيت ثلاثة أقساط، مع استضافة، من نزل بهم من المسلمين ثلاثاً»[٣٠].

كان أهل حران يجيدون العربية والآرامية، بل كان لسانهم أفصح اللهجات الآرامية[٣١] وهذا الأمر أهلهم لأن يكونوا أكثر أهلية للتعاون مع الحكام الجدد، أصبحت حران مقراً للولاة العرب وقصبة ديار مضر، وأصبح الوليد بن عقبة بن أبي معيط أول وال على العرب، وأصبح نظيره حبيب بن مسلمة، على عجم الجزيرة، وحروبها وكان يقيم في الرقة.

بينما كان الوليد يقطن عين الرومية (عين عيسى) بين حران والرقة، وكان يتعاطى الخمرة فصرفهما عمر من الخدمة عام ٢١هـ ٦٤٣م. وولي بدلاً منهما عمير بن سعد الأنصاري (توفي ٢٦هـ) كان رجلاً متديناً حليماً واسع الصدر عامل أهل الذمة من العرب وغيرهم بالتي هي أحسن وعندما سأله بنو تغلب أن يأذن لهم في الجلاء

والالتحاق بأرض الروم. استأذن الخليفة عمر بن الخطاب، فصالحهم على دينهم، على أن يضاعف عليهم الصدقة كي لاتفرض عليهم الجزية[٣٢].

شعر أهل الذمة في الجزيرة بالأمان، في العهد الراشدي، ولدينا شهادة من جاثليق النساطرة إيشو عيّاب الجذالي (٦٤٧ - ٦٥٧) قال: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا - كما تعرفون - إنهم ليسوا أعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا، ويقربون قسيسينا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا، وأديرتنا وضمن كلامه حديثاً للرسول (من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة). وإنه أعطى عهد الأمان لجميع النصارى كافة»[٣٣].

كثيرة هي الكتب والنصوص التي تحدثت عن الحرية الدينية في العهد الراشدي، جاء في كتاب السعردي «وتعززت الأمور بفضل الله تعالى، وطابت قلوب النصارى، وأهل الذمة في مملكة العرب، ثبتها الله ونصرها»[٣٤].

جاء في نص سرياني لكاتب مجهول «صار كثير من أبناء القبائل العربية، يأتون إلى حران ويسجلون أسماءهم في الديوان ويسلمون دون إكراه طمعاً في المناصب الدنيوية»[٣٥].

حران في العهد الأموي:

كانت القبيلة العربية الكبيرة تغلب، تسكن في أرض الجزيرة، وفي بادية الشام، وهم الذين قيل عنهم «لو أن الإسلام قد تأخر، لأكلت تغلب العرب» وهم الذين قاوموا جيوش المسلمين، في عين الوردة (رأس العين)، وفي حمص. ولكن عمر بن الخطاب خطب ودهم. وفي العهد الأموي قال بعض الفقهاء، مستندين على فتوى لعبد الله بن عباس، قال: «عن نصارى تغلب. لا تؤكل ذبائحهم، ولاتنكح نساؤهم، فهم ليسوا منا ولا من أهل الكتاب»[٣٦]. هذه الفتوة لا صحة لها، فتغلب هي كبرى القبائل العربية التي لايستهان بها، وكانوا مخلصين لديانتهم المسيحية. ذكر ابن العبري أن محمد بن مروان والي الجزيرة في حران بعث في طلب معاذ شيخ بني تغلب، وطلب منه الدخول في الإسلام، فلما أبى ألقى به في حفرة، من الوحل ثم أحضره وجلده، ثم أمر بقتله»[٣٧]. طلب الوليد بن عبد الملك، من شمعلة شيخ بني تغالب، أن يسلم فرد عليه: لا والله لا أسلم كارهاً، أبداً ولا أسلم طائعاً كما شئت. فغضب الوليد من قوله. واقسم على أن يرغمه على أكل لحمه. فأمر بقطع قطعة من لحمه، وشويت بالنار، وأطعمه إياها، وبقيت آثار الجرح ظاهرة في جسمه تشهد ببسالته»[٣٨].

بينما كان الشاعر الأخطل التغلبي مسيحياً يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليبه، ولقبه (شاعر بني أمية) إلا أن الوليد أعرض عنه، وظهر في شعره ألمه النفسي، وتشكيّه.

كان الحرانية، يمارسون في مدينتهم وقراهم التجارة والحرفة والزراعة، في حقولهم الممتدة، على ضفاف نهري الجلاب (نهر الميديين)، ونهر البليخ، في قراهم المشهورة مثل ترعوز، وصلمسين (صنم القمر)، لعلها حصن مسلمة، وبيت باتين (عباطين) على الحدود السورية التركية كانوا يزرعون مختلف الغلال من حبوب وأشجار مثمرة، بالإضافة إلى شجرة التوت، التي طوروا زراعتها، من أجل تربية دودة الحرير[٣٩]، والقطن والكتان والقنب لصناعة الحبال والثياب والأعشاب الطبية، التي كانوا يتاجرون بها إلى المدن البعيدة[٤٠].

ظلت حران والجزيرة، تنعمان بالاستقرار الإقتصادي، طيلة العهد الراشدي، وفي العهد الأموي قام الخليفة عبد الملك بن مروان بالإصلاح الضريبي الأول، في الإسلام، عندما أرسل إلى أخيه محمد بن مروان، المقيم في حران، الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري، ليقوم بمسح أراضي الجزيرة، وتقدير الضريبة. أصدر الوالي محمد بن مروان، أمراً إلى كل رجل أن يعود إلى قريته، ليسجل اسمه في الديوان، وملكيته من كرم وزيتون وحقل ومواشي، ثم حسب متوسط دخل الفرد وطرح منه نفقة الطعام والشراب، ولباس الأعياد، وبعده قرر على كل رجل بالغ أربعة دنانير، وعلى كل (١٠٠) جريب زرع، مما قرب من المدينة، مسيرة يوم ديناراً، وعلى كل (١٠٠٠) أصل كرمة أو زيتون مما قرب من المدينة ديناراً وعلى كل (٢٠٠٠) أصل كرمة أو زيتون، مما بعد ديناراً[٤١].

كيف نظر أهل الذمة لهذا الإصلاح الضريبي؟

اعتبره البطريرك مار ديونيسيوس التلمحري (٨١٨ ـ ٨٤٥)، أصل كل البلايا والشرور التي أصابت المسيحيين[٤٢]. ولكن المؤرخين المختصين بالنظام الضريبي يرونه أخف وطأةمما كان سائداً في الحكم البيزنطي البائد[٤٣].

حران في العهد العباسي:

أصبحت الرقة قصبة ديار مضر ومقر والي الجزيرة، كان الخليفة المنصور (١٣٧ هـ ـ ١٥٨) يظهر لأهل حران المودة، وكان يعمل بنصائح عبد الملك بن حميد الحراني كاتبه، ثم تولى من بعده الكتابة، سليمان بن مخلد الحراني، الفيلسوف وصاحب

صنعة الكيمياء والتنجيم وقد استولى على عقل المنصور، حتى قالت العامة: «إنه سحر أبا جعفر». مما اضطر الخليفة إلى قتله متهماً إياه بالخيانة عام ١٥٣ هـ / ٧٧١م(٤٤).

عندما بنى الخليفة المنصور مدينة الرافقة (١٥٤ هـ ٧٧٢). هاجر كثير من أهل حران، إلى الرقة، وأسلم بعضهم فنشطت الحرف اليدوية، كصناعة الزجاج، وحلج القطن ونسجه، وصناعة الموازين، فعمرت الأسواق، بالتحف والطرائف، كصناعة الحلي والسيوف، ونسج البرود، والعقاقير والبراهم الطبيّة.

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩)، تولى الكتابة ابراهيم بن ذكوان الحراني، وفي زمن الرشيد اتهم في دينه مما أسخط الرشيد عليه سنة ١٨٤هـ على أثر ظهور قضية مايسمى (بقضية الرأس)، وقبض على أمواله ثم أرسله بعد شفاعة يحيى بن خالد البرمكي، إلى البصرة وصار كاتب سليمان بن أبي جعفر المنصور(٤٥).

وأثناء الإضطرابات التي حدثت في الجزيرة، أيام الخلاف بين الأمين والمأمون (١٩٦ ـ ٢٠٤). أعلن الحرنانية، احتفالاتهم وطقوسهم، علناً دون خفاء، قال مارديونيسيوس التلمجري إنه شاهد في سنة (٨١٣)، أثناء رئاسة عمروس بن طيبا (٨٠٠ ـ ٨١٧) للحرنانية، أن الوالي إبراهيم القرشي، سمح لهم أن يحتفلوا بأسرارهم علانية، في ٢٠ نيسان، فاطمأنوا وجللوا ثوراً بحلل ثمينة، وتوجوه بالزهور، وعلقوا جلاجلاً في قرنيه وطافوا به في طرقات حران، بالأهازيج وآلات الطرب، ثم قربوه لآلهتهم(٤٦).

كان الحرنانية، يعرفون قبل زمن الخليفة المأمون، بالحرانية أو الحنوفون، أو الكلدان، وعندما مر المأمون في عام ٢١٨ هـ ٨٣٣م، بحران لفت انتباهه زي كهنتهم الغريب، فسألهم عن ديانتهم وأرشدهم أحد المسلمين إلى اسم الصابئة، إحدى الديانات التي ذكرها القرآن الكريم. وفي هذه الفترة (٢٠٤ ـ ٢١٨) نشطت الحرف والصناعات العلمية كالموازين والاسطرلابات قال ابن النديم «كانت الآلات تعمل في حران، ثم نبشت وظهرت ولكنها ازدادت واتسع للصنّاع العمل في الدولة العباسية منذ أيام المأمون إلى وقتنا هذا (سنة ٣٧٧ هـ ٩٨٨م)(٤٧) وقد شاهد ابن النديم، عند بعض علماء بغداد، ذات الحلق التي أمر المأمون بصنعها، وصنعها له علي بن عيسى الحراني الإسطرلابي تحت إشراف خلف المروزي وممن اشتهر من الصنّاع الحرانية في مدينة الرقة جابر بن سنان البتاني الرقي، وفراس بن الحسن الحراني، وأحمد بن إسحق الحراني(٤٨).

أظهر بعض الحرانية إسلامهم ولكنهم ظلوا يبطنون ديانتهم، وقد أشار أبو عروبة الحسن بن محمد بن أبي معشر الحراني (٢٢٥ - ٣١٨)، صاحب كتاب الجزيرة الذي أسلم، وحسن إسلامه، فنبه إلى خطورة سلوك الصابئة الحرانية، الذين يظهرون الإسلام تقيه، وظلت نساؤهم على دين أبائهن، وكانت الديانة الحرانية، تؤخذ عن طريق الأم. فَحُرِّم على من أسلم من الحرانية الزواج بنساء حرانيات. وكان ذلك التحريم سبباً في نقصان عددهم.

وفي مطلع القرن الرابع الهجري، هاجرت بعض العائلات إلى بغداد، وبعضهم إلى المغرب العربي والأندلس، وفي تلك الأقطار البعيدة انفرط عقدهم، وأسلموا، ولم يبق منهم أحد في مطلع القرن السادس الهجري.

بنية حران المعمارية:

نشأت حران في سهل فسيح وعلى بعد عدة كيلومترات منها، ترتفع بعض الجبال القليلة الارتفاع.

كانت بيوت الفقراء، قبب من اللبن المجفف، بينما بيوت ذوي اليسار والتجار من الآجر والخشب، لأن استخدام الخشب باهظ التكاليف ولكل دار باحة سماوية.

أما عن شكل المدينة، قال عنها أبو الريحان البيروني «حران مدينة منسوبة إلى القمر، وهي على صورة الطيلسان»[٤٩] والصواب إنها مدينة مستطيلة ويقطعها شارعان متعامدان من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب، وفي مركز تقاطعهما يوجد المعبد، والقصر وساحة البيع والشراء، وعنهما تتفرع الشوارع، والأزقة وهذا الشكل استقر عليه البناء في المرحلة البيزنطية.

يحيط بالمدينة سور حجري، من الحجارة المنحوتة في نهاية من المتانة والقوة[٥٠]. يتخلل السور ثمانية أبواب في كل جهة بابان.

وعندما زارها ابن جبير سنة (١١٨٥) وجدها كثيرة الخلق، واسعة الزرق، جمة المرافق، على أحفل ماتكون المدن، وتكثر في المدينة، الآبار المالحة، التي يطلق عليها في الشتاء مياه نهير مجراه بالجهة الشرقية، بين سورها، وجبانتها ومنبعه من عين على بعد من البلدة، فيبقى الماء الحلو فوق الماء المالح، لايختلط فيه، حتى نفاذه في نهاية فصل الخريف»[٥١]. وكانت الآبار (الجباب) والصهاريج رائجة وكانت فوهاتها من الرخام المحكم الخرط، وتزود الآبار بأنابيب من الفخار، التي تحمل مياه المطر أو من مياه النهير إلى البيوت[٥٢].

وحول البلد حقول مزروعة بالحبوب والأشجار المثمرة والكرمة والزيتون. قال المقدسي: «ومن حران يجلب القبيط (ناطف الخرنوب) وعسل النحل، في دنان كبيرة والقطن والموازين واللوز والسمن والخيل والجياد»[٥٣].

واليوم مدّت أقنية حديثة لسقاية سهول حران، من مياه سد أتاتورك، على نهر الفرات.

أهم المنشآت المعمارية في حران:

معبد هيكل الصورة الذي أصبح الجامع القديم:

استولى عياض بن غنم على هذا المعبد، وحوله إلى مسجد جامع، ولازالت أثاره. قال عنه ابن جبير «كان في غاية التقانة والتنظيم. وقد جُدِّدَ أكثر من مرة، حتى صار درة في الحسن. له صحن كبير فيه ثلاث قباب على أسوار من الرخام، وتحت كل قبة، بئر عذبة، وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة، قد قامت على سوار من الرخام، دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام، عظيم الجرم، دوره خمسة عشر شبراً. هذه القبة من بنيان الروم، وأعلاها مجوف، كأنه البرج المشيد، يقال أنه كان مخزناً لعدتهم الحربية. والجامع المكرّم مسقوف بجوائز الخشب، وجداره المتصل بالصحن الذي عليه المدخل مفتح كله أبواباً عددها تسعة عشر باباً، تسعة يميناً وتسعة شمالاً، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب بهي المنظر كأنه باب من أبواب المدينة الكبرى، وبقية الأبواب على شبه أبواب مجالس القصور»[٥٤].

وبالقرب من هذا المسجد قصر الأمارة وأسواق المدينة، فعلى يساره يقع سوق الجزارين، وعلى يمينه يقع سوق النسوان، ثم بقية الأسواق حوله، وهي منتظمة عجيبة الترتيب، مسقوفة كلها بالخشب، فلايزال أهلها في ظل ممدود، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع، وقد بني عند كل ملتقى أربع سكك، أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمِفْرق لتلك السكك»[٥٥].

أما القصر الذي بناه نابونيدس (٥٨٦ ق. م) فلا أثر له وإنما بقي أنقاض قصر الأمارة، الذي بناه مروان بن محمد (الحمار) بجانب المسجد الجامع.

معبد بيت أنطاكية:

هو الذي تزعم الصابئة، أن الذي بناه، سقلا بيوس إله الطب. وهو المعبد الذي بناه

المكدونيون على أثر فتح الإسكندر المكدوني لحران. وكان بالقرب من سوق الجزارين، وقد شاهده المسعودي سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤م، وقال عنه: «هو معبد الصائبة ومحفلهم السري، وقد كتب على بابه، قول لأفلاطون، ترجمه له مالك بن عقبون الحراني «من عرف ذاته تأله». وكان هذا المعبد معظماً عند الصابئة الحرانية، زاره ثابت بن قرة قبل توجهه إلى بغداد. وقد ذكر الحارث بن سنان بن سنباط الحراني وهو من ملكية النصارى «قال: إن للصابئة، رموزاً وأسراراً، يخفونها وقرابين يقربونها من الحيوانات، ودخن يبخرون بها»[٥٦].

نعم إن الصابئة الحرانية هم فرقة فيثاغورية، كانوا يتعبدون سراً، ولهمإشارات للتعارف بينهم منها «النجمة المخمسة»، وهي علامة الصحبة. كما قال عنهم لوسيان السميساطي (١٢٥ ـ ١٩٢) وهو من مؤيديهم كانوا يلبسون الثياب البيض، ويمشون حفاة الأقدام لزهدهم بالحياة»[٥٧]. قال ابن شداد في كتابه الأعلان الخطيرة «وأخذ عياض هيكلهم العظيم، وجعله جامعاً، وعوضهم عنه بالهيكل الآخر، الذي ظل بأيديهم، إلى أن أسلمت كل الطائفة، فهُدم هذا المعبد وخُرِّب عام ٤٧٩ هـ، وهدمه محمد بن الشاطر، قبل تسليمه لملك شاه السلجوقي.

أبواب مدينة حران:

للمدينة ثمانية أبواب في كل جهة بابان:

١لجهة الجنوبية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ ـ باب الرقة: في الزاوية الجنوبية الغربية من السور، كان هذا الباب أثناء زيارة المسعودي للمدينة مغلقاً وهو مقابل «مصبتا» عين الذهبانية، أو عين العروس جنوب تل أبيض، قال ابن جبير: ولها بقبليها نحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية لأبينا إبراهيم الخليل، ولسارة ومتعبداً لها[٥٨].

وباب الرقة في الوقت الحاضر مفتوحاً للمارة وهو الشارع الرئيسي في أنقاض حران الحالية شاهدته في سنة ١٩٩٠ مفتوحاً للمارة.

٢ ـ باب بغداد: يقع في الطرف الجنوبي الشرقي من السور، وكان قديماً يدعى باب ترعوز (الزهرة)، ويسميه السريان (ترعيل) أي باب الله، وهو يقابل أثار قرية باب الهوى، شرق تل أبيض. وبالقرب منه قبر مكشوف، يزوره الناس اليوم، ويدعونه

الشيخ أبي خيوط، ربما كان للشيخ الزاهد (سلمة الحراني). قال عنه ابن جبير «كان رجلاً صالحاً عليه سيماء عباد الله المقرين».

الجهة الشرقية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ ـ باب الماء: ويقع في الزاوية الشرقية الجنوبية، وهو مقابل (دير كاذا) التي تعني بالسريانية (ها هنا)، ويقول عنه الحرانية، أن صنم الماء الذي يقال أنه هاجر إلى الهند وقال إنه لن يدخل حران وسيبقى هاهنا، وبني الدير تخليداً لرحيله، وترقباً لمجيئه.

٢ ـ باب فندق الزيت: ويقع مقابله قبر إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس قبض عليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ومات بالطاعون في حبسه سنة ١٣٢هـ. وهو مزار يزوره الناس ويقدمون له النذور. وقد قال عنه الشاعر سديف بن ميمن المقتول سنة (١٤٦ هـ ٧٦٣م) وكان شديد التعصب على الأمويين:

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني ‏ ‏ ‏ قبر بحران فيه عصمة الدين

الجهة الشمالية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ ـ باب النسر: كان عليه رسم نسر ملكي وبه كان يتفاءل الحرانيون. لأن حران قال عنها بطليموس طولها (٣٠َ ٧٢°)، وهي في الإقليم الرابع، ولها شركة في العواء (٩°). ولها النسر الواقع كله. ولها بنات نعش، كلها تحت (١٣°) من السرطان يقابلها مثلها من الجدي بيت ملكها، ومثلها من الحمل بيت عاقبتها، ومثلها من الميزان[٥٩] والنسر تسمية أطلقها العرب على المجموعة الكوكبية (النسر الواقع)، التي تضم ألمع النجوم، في النصف الشمالي من الكرة السماوية، وكان يرمز بالنسر لآلهة النصر المجنّحة.

جاء في تعليم (مار إداي) توبيخاً لأهل الرها «تعبدون النسر كالعرب والقمر كالآخرين ـ يقصد أهل حران ـ جيرانكم الذين هم مثلكم»[٦٠]، وكان باب النسر مقابل الرُّها.

٢ ـ باب التبن: وهو مقابل الربض، الذي تجمع فيه محاصيل الحنطة (البيادر) قبل دراستها، ثم هو مكان لبيع التبن أيضاً في حران.

الجهة الغربية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ ـ باب الفدان: يوجد في الزاوية الجنوبية الغربية من السور. وهو مقابل تل الفدان (فدان آرام) على بعد ١٠ كم من حران، وفي ظاهره بقايا كنيسة بنيت تكريماً للقديس هيلبديوس، الذي قتله الملك الفارسي شابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٨٠) عندما احتل حران سنة (٣٥٩) م. قال ابن العبري رغم حب المهدي للسحر والعرافة والقدر أشهر الاضطهاد للحرانية في موضع يقال له «الفدان الكبير» وكان غاصاً بهم[٦١].

٢ ـ باب يزيد: في الزاوية الشمالية الغربية من السور، بالقرب منه تربة الزاهد العابد أبي البركات حيان بن عبد العزيز، وقربه مسجد حيان، وهو مزار عامر بالمصلين، ويؤمه السواح أيضاً.

المراجع:

١ ـ رحلة ابن جبير ص ١٩٧ دار التراث بيروت ١٩٦٨.
٢ ـ معجم البلدان ـ مادة حران ـ ياقوت الحموي دار صادر بيروت ١٩٥٥.
٣ ـ تاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٢١٣ الطبري.
٤ ـ مختصر تاريخ الدول ص ١٧ ابن العبري. دار المسيرة ١٩٨٦.
٥ ـ صفة جزيرة العرب ص ٣٦ الهمداني، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣.
٦ ـ الصابئة المندائية ج ١ ص ٤٤ الليدي دوراور ترجمة نعيم بديوي بغداد ١٩٨٧.
٧ ـ تاريخ سورية ج ١ ص ٢٢٧ أسد الأشقر.
٨ ـ الطب العربي ص ٤٤ أدوارد جورج براون ترجمة أحمد شوقي حسن القاهرة ١٩٦٦.
٩ ـ الموسوعة الإسلامية ـ مادة حران.
١٠ ـ تاريخ الأدب السرياني منذ نشأته حتى الفتح الإسلامي ص ٤٠ د. كامل مراد دار المقتطف القاهرة ١٩٤٩.
١١ ـ أرها المدينة المباركة ص ٥٧ سيغال، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا، دار الرها، حلب.
١٢ ـ تاريخ الزمان ص ٤٩ ابن العبري.
١٣ ـ مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٨ المسعودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد كتاب التحرير القاهرة ١٩٦٦.
١٤ ـ الآراميون ص ٩٩ دوبونت ـ سومير ترجمة البيرابونا بغداد ١٩٦٢.
١٥ ـ تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ج ١ ص ٨٥ مار يعقوب. دمشق ١٩٥٢.
١٦ ـ التنبيه والإشراف ص ١٢٤ المسعودي تحقيق اسماعيل عبد الله الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
١٧ ـ الرها المدينة المباركة ص ١٧٥ سيغال ترجمة جبرا يوسف جبرا حلب ١٩٨٨.
١٨ ـ المجلة البطريركية العددان ١٥٤ و١٥٥ رحلة الراهبة ايجيريا ص ٢٣٢ دمشق ١٩٩٦.

١٩ ـ معجم البلدان مادة حران.
٢٠ ـ الرها المدينة المباركة ص ١٧٣.
٢١ ـ تاريخ الكنيسة الانطاكية المارونية ج ١ ص ٢٩ الخوري عبد الله الشبابي بيروت ١٩٠٠.
٢٢ ـ الرها المدينة المباركة ١٧٥.
٢٣ ـ الأدب السرياني ص ١١٢ د. كامل مراد دار المقتطف القاهرة ١٩٤٩.
٢٤ ـ الرها المدينة المباركة ص ٢١١.
٢٥ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٣٩ تحقيق عبد الله أنيس الطباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧.
٢٦ ـ كتاب المجدل ص ٦١ متى بن عمر والطبرهاني اعادت نشره دار المثنى ـ بغداد.
٢٧ ـ فتوح الشام ج ٢ ص ٨٣ للواقدي القاهرة ١٩٥٥.
٢٨ ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٣ والاعلان الخطيرة لابن شداد ج ١ ص ٤٢.
٢٩ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٠ تحقيق عبد الله عبارة بيروت ١٩٥٧.
٣٠ ـ المصدر السابق ص ٢٠٧.
٣١ ـ الفهرست ص ١٤ ابن النديم تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٧١.
٣٢ ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٥٠.
٣٣ ـ أخبار بطاركة كرسي المشرق ـ من كتاب المجدل ص ٥٤ ـ ٥٥ تأليف عمرو بن متى تحقيق هتريكوس جسيموندي ـ طبع روما ١٨٩٦ نشر دار المثنى بغداد.
٣٤ ـ أحوال نصارى بغداد ص ٧١.
٣٥ ـ الرها المدينة المباركة ص ٢٥٥ سيغال ترجمة يوسف جبرا حلب ١٩٩٠.
٣٦ ـ البلاذري ص ٢٥٠.
٣٧ ـ أهل الذمة في الإسلام ص ٩٧ ترتون ترجمة حسن حبشي دار المعارف بمصر ١٩٦٧.
٣٨ ـ كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٣ الاصفهاني.
٣٩ ـ كتاب الأيام الستة ص ٩٢ مار يعقوب الرهادي ترجمة صليبا شمعون ـ دار الرها حلب ١٩٩٠.

٤٠ ـ المصدر السابق ص ١٠٢.
٤١ ـ كتاب الخراج ص ٢٣ ـ ٢٤ لأبي يوسف.
٤٢ ـ الجزية والإسلام ص ١٠٦.
٤٣ ـ قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٣٣ ول ديورانت ـ دار المعارف ـ القاهرة.
٤٤ ـ كتاب الوزراء ص ١٣٤ الجشهياري تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
٤٥ ـ المصدر السابق ص ٦٨.
٤٦ ـ تاريخ الزمان ص ١١ ابن العبري، نقله إلى العربية اسحق أرملة دار المشرق ١٩٨٦.
٤٧ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٤٢.
٤٨ ـ المصدر السابق ص ٣٤٣.
٤٩ ـ الآثار الباقية ص ٢٠٥ البيروني. تحقيق أدوارد سخاو
٥٠ ـ المصدر السابق ص ٢٠٥.
٥١ ـ رحلة ابن جبير ص ١٩٩.
٥٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩ كتاب التحرير عدد (١٧٧) القاهرة ١٩٦٦.
٥٣ ـ أحسن التقاسيم ص ٧٨ المقدسي.
٥٤ ـ رحلة ابن جبير ص ١٩٩.
٥٥ ـ المصدر السابق ص ١٩٩.
٥٦ ـ مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٥ للمسعودي.
٥٧ ـ قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٨٢.
٥٨ ـ رحلة ابن جبير ص ١٩٩.
٥٩ ـ ياقوت الحموي معجم البلدان مادة حران.
٦٠ ـ الرها المدينة المباركة ص ٦٥.
٦١ ـ تاريخ الزمان ص ١١ ابن العبري.

الفصل الثاني
الصابئة الحرانية والمندائية

التسمية والأصل:

قيل إن أصل كلمة صابئة في العربية جاءت من الفعل «صبأ». لقولهم: صبأت إذا خرجت من شيء إلى شيء آخر. والصابئون هم الخارجون من دين إلى دين آخر[١].

كان مشركوا قريش، يطلقون على محمد وأتباعه، في بدء الدعوة اسم «الصَّبأة». قال المقريزي: إن سهيل بن عمرو. صاح يا آل غالب... أتاركون محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون عيركم وأموالكم..؟[٢].

لقد عدّ القرآن الكريم «الصابئة» بين طوائف المؤمنين. قال تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى، ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون» (سورة المائدة: ٦٩).

وفي الآرامية جاء اشتقاق كلمة «صابئة»، من الفعل (صبا) أو (صبع) الذي يعني الإغتسال أو الإرتماس بالماء الجاري، ولازالت كلمة صابئة تطلق على «المغتسلة» في جنوب العراق وغرب إيران. وفي العربية «صبغ يده في الماء، أو الزيت غمسها».

قال محمد بن إسحق النديم (توفي ١٠٢١): وبنواحي دست ميسان، قوم يعرفون «بالمغتسلة» وهم يطلقون على أنفسهم اسم «المندائية»[٣]. لأن كلمة مندائي، تعني العارف منه الفعل الآرامي (مدعا)، أي عرف وعلم.

وأشار علي بن الحسين المسعودي (المتوفي ٩٥٧) إلى الفرق بين الحرانية، والكيمارية الذين ديارهم بلاد واسط والبصرة من أرض العراق[٤]. وقد أشار ابن سعيد المغربي، إلى أن أهل البطائح (قرب البصرة) معظمهم من الكلدان ويسمونهم الصابئة»[٥].

كان السريان يطلقون اسم الكلداني، على الصابيء الوثني. وبهذا الوصف نعت مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) جيرانه أهل حران (بالكلدان أو الحنوفون) ويعني بذلك أنهم وثنيون. قال القس بطرس نصري الكلداني «وصار اسم الكلدان كناية عن الماهرين في علم الهيئة، وملاحظة النجوم، وبعد ذلك استعير الاسم للدلالة على

العرافين والمشتغلين في الكهانة والفأل المحرم وصار الاسم يشير إلى عبدة الأوثان، من الاسم اليوناني «باجانوس Paganus الذي هو بمعنى الوثني»[٦].

كان السريان يطلقون على حران «عش الوثنية» لأنها بقيت محافظة على الفكر الهلينستي الوثني، وكانت النحلة الحرانية مزيج من الفلسفة الفيثاغورية، والأفلاطونية الحديثة كما كانوا مزيجاً من الآراميين واليونان. قال عنهم المسعودي: «ولهذه الطائفة المعروفة بالحرائنيين والصابئة فلاسفة إلا أنهم حشوية الفلاسفة وإنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة، لأنهم يونانيون، وليس كل اليونانيين فلاسفة، والفلاسفة حكماؤهم»[٧]. كما أشار إلى نزعتهم الهرمسية أو الأفلاطونية المحدثة بقوله: «وقد نبه بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله، وإن كل مايحدث في هذا العالم، إنما هو على قدر ماتجري به الكواكب عن أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين، لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهراً. وأمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها وبنوا لكل صنم بيتاً، وهيكلاً مفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب»[٨] التي يقدمون لها القرابين الحيوانية، والبخور الخاص بها لأن هذه الكواكب هي التي توهبهم طول الأعمار وظهور المياه وغيضها.

الحرانية والمندائية في الفكر الإسلامي:

أطلق المؤرخون المسلمون اسم الصابئة على الطائفتين الحرانية والمندائية. وكل ما قالوه إن الصابئة قسمان:

أحدهما: القائلون بالهياكل وهم عبدة النجوم، والآخرون: القائلون بالأشخاص وهم عبدة الأصنام.

ثم جاء أبو سليمان السجستاني فقال: إن الحرانية هم المعروفون بالصابئة وكانوا يسكنون مدينة حران، ويتخذون أصناماً على مثال الهياكل السبعة[٩]، وعن المندائية أو المغتسلة قال الزمخشري في كشافه «الصابئون هم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة وبقاياهم في جنوب العراق».

إن الصابئة المندائية: قوم موحدون لله وكما كانوا خليطاً من الآراميين والفرس كذلك كانت ديانتهم مزيجاً من الفكرين اليهودي والمانوي لطول إقامتهم في (دست ميسان).

وإن كانوا هم ينكرون أي صلة أو علاقة لهم باليهودية أو المانوية، ويقولون عن أنفسهم طبقاً لذكرياتهم في كتابهم المسمى (حران كويثا): أنهم هاجروا من أرض كنعان إلى شمال سورية على أثر حروب بينهم وبين اليهود فهاجروا إلى حران، واستقروا مدة من الزمن، ثم هاجروا إلى بطائح البصرة، من مدينة حران ومن جبال (ماداي) حيث الينابيع الساخنة في الشتاء، والباردة في الصيف، ولازال يجري بالقرب من حران نهر الميديين (نهر الجلاب)[١٠] وحتى عام ١٩٩٠ قبل جفاف عين عروس كان هناك نبع كبريتي يستحم فيه الناس في الشتاء للاستشفاءمن أمراضهم الجلدية والعصبية.

ويؤكد المندائيون عدم صلتهم باليهودية والمجوسية والمسيحية يقولون في كتابهم (كنز رابا): بسم الله المتعالي... لا أمارس طقوساً بالنار، وليست يهودياً ولا مسيحياً ولكني أمارسها بالماء الجاري الطاهر، الذي وهبه الله، من أجل طهارة البشر ومنحهم الحياة»[١١].

بل وينكر المندائيون أي صلة لهم بالحرانية كمذهب ديني يقول المندائي حين خروجه من التعميد بالماء الجاري: «بسم الله المتعالي... إني خرجت من الماء الجاري، والطاهر بروح طاهرة، وأديت مناسك التعميد. نحمد الله ونعبده عبادة خالية من الأجرام السماوية، وإن الشمس نور مسخر لنا، وهي فاقدة لأية قدرة وعبادتها باطلة»[١٢]. بل وينكرون على الحرانية سجودهم للأصنام، يقول كتابهم (الكنز رابا) «ولا تسجدوا للشياطين، والأصنام وآلهة الكذب»[١٣].

ومن المفكرين والباحثين في النحلة المندائية الباحث العراقي عبد الرزاق الحسيني كتب عنهم دراستين:

قال في الدراسة الأولى: إنهم عبدة الكواكب. ووحد بينهم وبين الصابئة الحرانية، ثم قال في الدراسة الثانية: بعد أن اطلع على كتبهم وحقيقة شعائرهم «إنهم قوم يؤمنون بالخالق، جل شأنه، وأنه واحد أزلي، لا أول لوجوده، ولا نهاية، منزه عن المادة، لاتناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق، وأنه لم يلد، ولم يولد، وهو علة وجود الأشياء، ومكونها ولايختلف إعتقادهم في الخالق عن اعتقاد المؤمنين»[١٤]. وأن الله يفصل بينهم وبين يوم القيامة لقوله تعالى «إن الذين آمنوا، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (سورة الحج: ١٧).

إن المندائية طائفة مؤلهة يتبعون وصايا نبي الله يحيى عليه السلام ويقدسون الماء الجاري ويتعمدون به.

الصابئة في الدراسات الحديثة:

أعني بالدراسات الحديثة، ماكتبه المستشرقون حول الصابئة، وقد انقسموا إلى قسمين:

- طائفة منهم نفت أية علاقة بين المندائية والحرانية.
- والطائفة الأخرى قالت بوجود علاقة بينهم.

أولاً ـ الطائفة الأولى:

ومنهم المستشرقون الأوكرايني خولسون. قال: إن الحرانيين لم تكن لهم وحدة مع المندائيين لأن الحرانيين عبدة كواكب، بينما يبغض المندائيون عبدة الكواكب(١٥). وممن وافقه على رأيه المستشرق أوليري، الذي اعتبر أن الصابئة الحقيقيين، هم المندائية في جنوب العراق ولا علاقة لهم بحران. وإلى هذه الطائفة من المفكرين أضم صوتي وأدلي بالحجج التالية لنفي العلاقة بين الحرانية والمندائية.

١ ـ اختلافهم في بناء المعابد:

يسمي المندائية معبدهم (بالمندى)، وهو عبارة، عن كوخ من القصب، منصوب على شاطىء نهر جار أو نبع ماء جار حي وباب المندى متجهة نحو الجنوب، ومحرابه نحو الشمال (نجم القطب) لاعتقادهم أنه المكان الذي يحكم فيه، على أعمال الناس بالصلاح، أو الفساد يوم القيامة.

ومعابد المندائية خالية، من أي تمثال أو صنم لتقديسهم الماء الحي الجاري. وفي المندى يمارسون صلواتهم العلنية بعد تعمدهم بالماء الجاري، وفيه يعقدون قران زواجهم، وفيه يقدمون القرابين في الأعياد. جاء في كتابهم (الكنز رابا): كل من صنع تمثالاً، أو صنماً أو جسماً ليعبده من دون الله، تكتوي شفاهه ويداه بنار حامية، ويتمنى الموت ولكن الموت لايدركه»(١٦).

بينما بنى الحرانية، معابدهم الحجرية، على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية، وأقاموا فيها هياكل وتماثيل للكواكب السبعة، وفيها يمارسون صلواتهم بصورة سرية. حكى عنهم الحارث بن سنان بن سنباط الحراني، وهو من ملكية النصارى ذو معرفة،

ودراية بمذاهب القوم. قال: «إن لهم هياكل على أسماء الجواهر العقلية، أو الكواكب فمن ذلك هيكل العقل، وهيكل النفس أو الصورة، وهذه مدورات الشكل وهيكل زحل (مكعب) وهيكل المشتري (هرم)، وهيكل المريخ (مستطيل)، وهيكل الشمس (مربع)، وهيكل عطارد (مثلث)، وهيكل الزهرة (مثلث في جوف مستطيل)، وهيكل القمر (مثمن الشكل)، وكانوا يقدمون لها القرابين، والبخور في أعيادهم»[١٧].

إن الإختلاف في بناء المعابد، كان استجابة لشروط المناخ والجغرافية، حيث المناخ المعتدل المائل إلى الحرارة، والمياه المتدفقة باستمرار والفيضانات التي تدمر معالم الحياة، على شواطىء نهري دجلة والفرات. إن الديانة المندائية هي من رواسب الديانات القديمة، التي تكونت في بلاد مابين النهرين، منذ الألف السابع قبل الميلاد. بينما كانت الديانة الحرانية هي مزيج من الديانة السورية التي تؤله النجوم وقد امتزجت بالفكر الفيثاغوري والهرمسي اليوناني.

٢ ـ اختلافهم في طقوس الصلاة:

الصلاة هي عماد الدين في كل ديانة. وتسمى الصلاة «البراخة» أي المباركة، وتُسبق عند الصابئة (بالرشامة) أي الوضوء. يتلو المصلي المندائي قبل غسل يديه، ووجهه ورجليه، «بسم الله المتعالى... واسم الملك مندا وهي، الملك المقرب من عرش الله. السلام عليك، أيها الملك (برباوس) أيها الطاهر الجاري. نويت الصلاة لله الواحد الأحد، وعليك السلام (يابرباوس) أيها الملك المقرب من العرش، ويا حارس الحياة الجارية[١٨].

يصلي المندائي ست صلوات ثلاث في النهار، وثلاث في الليل.

أما الحرانية فالمفترض عليهم من الصلوات في كل يوم ثلاث.

أولها ـ قبل طلوع الشمس بنصف ساعة، أو أقل لتنقضي، مع طلوع الشمس، وهي ثماني ركعات وثلاث سجدات في كل ركعة.

والثانية ـ إنقضاؤها، مع زوال الشمس، وهي خمس ركعات، وثلاث سجدات في كل ركعة.

والثالثة ـ مثل الثانية إنقضاؤها عند غروب الشمس.

وصلواتهم النافلة هي بمنزلة الوتر عند المسلمين، ثلاثة في كل يوم. الأولى في الساعة الثانية من النهار، والثانية في الساعة التاسعة من النهار، والثالثة في الساعة الثالثة

من الليل (التوقيت بالعربي اليوم ١٢ ساعة يبدأ من طلوع الشمس في الساعة الأولى والغروب الساعة الثانية عشرة) ولا صلاة عندهم إلا على طهور[١٩].

٣ - طقوس قبول الحدث في الديانتين:

يتجلى الاختلاف واضحاً بين الديانتين المندائية والحرانية، في شعائر قبول كل منهما للحدث في استلام مبادىء الديانة.

كيفية عمادة طفل عند المندائية:

العقيدة الأساسية عند المندائية «كل من تعمد بالمعمودية يسلم» وهي بالآرامية «إنش صابي بمصبته شلمى». وفي هذه المقولة تنعكس كل عقيدتهم.

- يحضر الطفل قبل العماد مع كفيله «الاسكندا» إلى الكاهن «الترميدة»، ومعهما غصن أخضر من الآس، ووعاء مليء بالماء (الكبثا)، وفيه خاتم من نحاس أصفر، وطير أبيض من حمام، ويتوجه الجميع إلى شاطىء النبع، أو النهر الجاري.

- يؤدي الحدث المراد تعميده «الرشامة» أي الوضوء، وهو داخل الماء الجاري، ووجهه نحو الشمال، بينما يقف «الترميدة» نحو القبلة، ثم يلف الغصن، على شكل إكليل يضعه، على رأس الحدث، وبيده عصا من الزيتون، «مركنه» ويقوم الكاهن بالأدعية، بعد أن يسأل الطفل عن اسمه في العماد، «ملواشه» ويحدد الساعة والشهر الذي ولد فيهما الطفل المعمد.

- ثم يبدأ الترميدة بالدعاء «البوثه» ويضع على رأس الطفل قطعة من القماش الأبيض فوق إكليل الآس، ثم يضع في خنصر يد الطفل أو الحدث الأيمن الخاتم. مكتوب عليه بالآرامية «الشوم ياور» ومعناه «الله المعين». ويظل هذا الخاتم بيده مدى الحياة ثم ليقبر معه.

- ويردد الطفل المتعمد، أو وكيله «أنا المعمد (فلان بن فلانة) قد غطست في الماء الجاري الطاهر والمقدس، وتعمدت كتعميد (بهرام) ابن الأجداد الكبار، وإن تعميدي هذا سيحفظني من شر الشياطين، ويبعدني عنها، ويزيد إيماني ليذكرني دائماً، اسم الله الكبير والعظيم، واسم الملك (منداده‍ي)، الملك المعظم، ثم يغطس في الماء الجاري، ثلاث مرات، وهو متوجه نحو الشمال»[٢٠].

ثم يتوجه الحدث أو كفيله نحو الكاهن، ويقول: أنا وبقدرة من الله والإتكال عليه، وبكامل رغبتي، وحريتي، دخلت الماء الجاري، وتعمدت استناداً لعاداتي، وقبلت

الطهارة، ولبست لباس الدين الطاهر، ووضعت الإكليل المقدس النوراني على رأسي، ويشهد هذا الماء الجاري على أعمالي الحسنة.

ـ ثم يأخذ الكاهن قليلاً من الماء براحتيه ليسقي المتعمد.

ـ ثم يغمس الكاهن يده بزيت السمسم ويمسح على وجه المتعمد، ويطلب المغفرة له ولوالديه، ثم يأخذ منه (الكشطا) العهد والميثاق.

ـ ثم يشرع الترميدة، بذبح الطير، وهو يدعو «عليك اسم الله، واسم ملكا منداد هي الملك المقرب من عرش الله».

ـ وعندما يتم الفداء، عن المتعمد يقول الكاهن: «ليباركني اسم الله المتعالي واسم ملكا منداد هي المقرب من عرش الله، إني أديت عمل الذبح، بسكين حديدي بأمر من الله، وإنه غافر لذنوبي»[٢١].

ـ ثم يقدم الترميدة، الخبز المقدس (البهثا)، المكون من القمح والملح والماء، ويقدم معه بعض فاكهة الموسم، كالجوز والتمر والرمان والبصل، وطير الحمام ليأكل منها الحدث المتعمد.

ـ ثم يقدم للمتعمد لباس الرستة (المكون من خمس قطع) ثوب أبيض وعمامة بيضاء وحزام صوفي (الهريانة)، وسروال أبيض (شلوار)، وشال أبيض تلفح به الرقبة).

ـ ثم يبارك الترميدة، الكفيل، والحضور ويحرق البخور (السندلوس) ذو الرائحة الزكية.

كيفية اطلاع الحدث على أسرار المذهب عند الحرانية:

الديانات السرية والمذاهب المغلقة، تهيء أفرادها قبل استلامهم مبادىء الدين في طقوس خاصة بهم، ومن تلك الديانات وأصحاب المقالات (الحرانية).

وفي رسائل إخوان الصفا وصف دقيق لكيفية استلام الحدث لدينه. قالوا:

ـ يحضر الفتى ومعه كفيله، في يوم معلوم، يجمع رئيس الكهنة، فيه كل الأحداث الذين يودون «سماع السر». في الصباح الباكر من يوم الأحد. فيعرّى أحدهم، ويقبض على عضده، كاهنان ثم يدخلانه، وهو مشدود العصابة على عينيه. ويمشي القهقرى حتى يصل إلى (قدس الأقداس) في المعبد. فيدخل ويطبق الباب، والسرج تتقد، والمجامر تدخن بأنواع البخور والدخن العطرة.

يقول الكاهن: أتحب أن تدخل في ديننا، وتسمع ملائكتنا؟.

يجيب الحدث: نعم.

الكاهن: إن أقمت على ديني، وحفظت سري، فإن رأسي، يبقى عالياً، وإكليلك ثابتاً.

يخاطب الكاهن الكفيل: أتكفله على إقامته على ديني وحفظ سري؟.

الكفيل: نعم!

ـ يضع الكاهن الحدث على بساط أمام المائدة، والفتى على جانبه الأيسر، ويتلو على رأسه أسماء الملائكة وهي (٨٧) اسماً على رأسهم (جرجاس). ثم يتابع الكاهن كلامه: طوباك إذا صرت من أهل الاستماع، لهذه الأسرار فإن الله يطهرك. ويتناول سكيناً من الحديد ليذبحه... فيتقدم الكفيل، ويقدم خاتمه رهناً عنه. ويقول: إنه سيحفظ المناسك، ويقيم على الدعوة ويكتم السر. فيعيد الكاهن الخاتم إلى الكفيل، ويأخذ بدلاً عنه الديك، وهو يقول: «إني أقبله نفساً بدل نفس، وأندبه بين يديّ الشمس، المحببة للنفوس وجرجاس. ويقوم بعملية ذبح رمزية على عنق الحدث وهو يتمتم: ياجرجاس، اقبل هذه الذبيحة، واترك هذا الغلام لأبوية.

ـ ثم يحمي على السراج خاتماً من حديد، ويكوي يد الطفل اليمنى مكرراً ذلك (٩٩) مرة. ثم يكويه، ببعض عيدان الطرفاء، كياً لطيفاً، على صدره وجبهته ثم يلبسه ثياباً بيضاء، وخفاً من جلود القرابين الطاهرة، ويشد وسطه بعمامة بيضاء، ويعطيه فصاً من ملح على صورة مثلث، رمزاً لهيكل عطارد»[٢٢].

في عملية الذبح والفداء إعادة للموروث الآرامي القديم عندما افتدى إبراهيم الخليل ابنه بكبش (بذبح عظيم) وأما استبداله بالديك، فلأن سقراط قال موصياً عند موته «اذبحوا عني ديكاً في الهيكل، فإنه نذر علي».

٤ ـ اختلافهم في عقيدة الحشر والمعاد:

الديانة المندائية، ديانة موحدة، تؤمن بخلود الروح، وبالحشر والمعاد. عندما يموت الإنسان، تبقى روحه، تحوم حول القبر ثلاثة أيام، ثم تحاسب في اليوم الثالث قبل أن تنطلق في عروجها نحو السماء السبع، وفي اليوم السابع، ترتفع نحو السماء الأولى وفي اليوم الثلاثين تصل إلى السماء السابعة، وفي اليوم الخامس والأربعين، تصل إلى مكان الحشر. (آلمادا ايتاهيل). المكان الذي توزن به الحسنان والسيئات، ويحكم على

الأرواح. إما الثواب أو العقاب. وتظل تنتظر، حتى يوم القيامة ليعود إليها جسدها، وتستقر بالجنة (الماد نهورا) أو جهنم (المادهشوخا).

ـ أما في الديانة الحرانية، فإن النفس خالدة أيضاً. ولكن النفس بعد الموت تحل في جسد آخر (تناسخ) إذا كانت ذات أعمال سيئة في الحياة الدنيا، وتظل تبدل أجسادها حتى تتطهر من الأدران، بالمعرفة الإلهية، فإذ تطهرت النفس ارتفعت إلى عالم القدرة (عالم الأفلاك)، وتظل تنتظر يوم الحساب لتنعم برؤية البارىء سبحانه.

٥ ـ وفي الديانتين اختلاف في الدفن وتوجيه القبور:

فالمندائيون تتجه قبورهم (القاورا) شمال ـ جنوب. وللقبر في الأعلى شكل دائري، ويوجه الوجه باتجاه الشمال. وتدفن مع الميت، قطعة من الخشب، ويضعون في فمه حصاة صغيرة، أو قليل من التراب، ويدفن مع الميت خاتم العمادة.

أما الحرانيون فقبورهم تتجه (غرب ـ شرق) ويكون الرأس باتجاه الغرب والوجه نحو الأعلى باتجاه الشمال الشرقي، ويدفن مع الميت متاعه، وثيابه وخاتمه. وخواتمهم عليها تماثيل منحوتة على حجارة صغيرة (ومعظم فصوص الخواتم من العقيق). ولقبور الحرانية شواهد طويلة على شكل التماثيل.

وفي كلا الديانتين (الحرانية والمندائية) لايظهرون الحزن على الميت فاللطم والبكاء محرمان.

٦ ـ اختلافهم في عقيدة خلق العالم:

للمندائية أسطورة حول خلق العالم مفادها:

أن العالم تم خلقه على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: استغرقت ستة آلاف روبان (أي مايعادل ستين مليون سنة) وفي هذه المرحلة لم تكن الأرض في البداية جامدة ولا باردة وليس لها حدود واضحة ولم يكن عليها أثر للحياة والعمران.

المرحلة الثانية: استغرقت ستة آلاف روبان أيضاً. وفي هذه المرحلة بردت الأرض وغطى سطحها مياه آسنة متعفنة، خرجت منها كائنات صغيرة.

المرحلة الثالثة: استغرقت ستة آلاف روبان. في هذه المرحلة خلق الله الملائكة والسموات السبع ثم خلق الله بعد مائة ألف سنة (آدم) فهاجمته كائنات شريرة فناداه

الله، ياآدم تقدم وكن صاحب هذه الأرض. وهبط الملاك (ملك اهيول زيوا) ووضع على رأس آدم إكليلاً من الآس وهو رمز النور والطهارة.

ثم تضطرب أسطورة خلق آدم الذي هبط في جزيرة سرنديب. وتقول الأسطورة إن الله أخذ من طين الأرض، وضع هيكل آدم ثم تغلغلت (نشمته) في الجسم واستغرق ذلك (٣٥٦، ٤٤٥) سنة. ثم دب الفساد في الأرض بعد آدم فظهر آدم شتيل ليعيد العدالة للمجتمع البشري ثم خلق له من نفسه حواء، لتكون له زوجاً ومؤنساً، وانطلقا في الأرض، وعاشا على الزراعة، ثم صارت حواء تنجب توأمين ذكراً وأنثى، ثم أرسل الله ستين شخصاً من الملائكة مع أسرهم ليتزاوجوا مع البشر ليكثر العالم، وكانت تعاليم آدم الأولى هي مضمون كتاب الكنزرابا.

ثم أرسل الله لآدم ملكين، قبضا روحه، وعرجا بها إلى السماء. ثم أرسل الله بعد (٢١٦) ألف سنة، رجلاً صالحاً مؤمناً يسمى (رام)، تسانده زوجته (رود) استطاع أن يعيد الهدوء إلى البشرية، وأزالا الحقد والكفر وعدم الطاعة والفقر، وأقاما العدالة.

ثم ظهر رجل مؤمن آخر، بعد مرور مائة ألف عام، ظهر (شوربامي) ترافقه زوجته (شرحبيل) واستطاعا قيادة الناس، بعون الله، ولكن بعد مرور (٩٢) ألف سنة تفشت الشرور وساد الجهل وعم الفساد، فأرسل الله (نوحاً) تسانده زوجته (تورثيا)، وأمره أن يصنع فلكاً طوله (٣٠٠) ذراعاً وعرضه (٥٠) ذراعاً، وارتفاعه (٣٠) ذراعاً، وكان الفلك من شجر السنديان. ثم أنذره أن يأخذ من كل الحيوانات، من كل زوجين اثنين. وأمطرت السماء (٤٢) يوماً وليلة حتى غطى الماء أركان الكرة الأرضية بما فيها قمم الجبال، وطافت السفينة على سطح الماء (أحد عشر شهراً)، ثم رست إلى جانب جبل (قاردن)، عندما أعلنت له الحمامة البشارة، بحملها غصن الزيتون.

أخرج (نوح) الحيوانات من السفينة، ونشرها في الأرض، وصنع مما تبقى عنده من الحبوب طعام (العاشورية). وكان لنوح أربعة أولاد هم: (شوم بن نوح) أي سام. يعده الصابئة جدهم الأعلى، وهو الذي ولد قبل الطوفان، أما أولاد نوح الثلاثة (يام وحام ويافث) فقد ولدوا بعد الطوفان.

في هذه الأسطورة دليل على امتزاج ثقافة بلاد مابين النهرين بثقافة فلسطين، لأن اليهود قد تأثروا بعد السبي، بالفكر الكلداني بعد عام (٥٨٤ ق. م)، وعندما دونت التوراة، كانت مزيجاً من المعتقدات، التي تأثرت بها المندائية فيما بعد[٢٣].

أسطورة خلق العالم عند الحرانية:

إن أسطورة خلق العالم عند الحرانية، أقرب إلى الفكر اليوناني، إنها نظرية هرمس الحكيم في خلق العالم. قال مار يعقوب الرهاوي لقد ورد في كتب الحرانية الذين يقولون إن السماء والأرض والشمس والقمر وسائر الكواكب هي أزلية غير مخلوقة، وهي آلهة وأرباب، وهم سادة هذا العالم، ومولوه اهتمامهم. وقبل خلق العالم، كان يرفرف فوقه روح الله. ويقولون في البدء كان كل شيء ظلاماً ومياهاً قبل أن يكون هناك آلهة وبشر وكان الروح يرفرف فوق المياه السائلة. قال الروح: فخلقت هذه كلها، وضعت لهم أسماء وأرضاً وأبراجاً، صورت فيها تماثيل، جعلتها وجهات لمسيرتهم ثم خلقت (بعل)، أولاً وبعده (مارود)، سيداً للآلهة ومن ثم البقية، وجعلت الشمس والقمر سلاطين على الليل والنهار، وهكذا جاء كلامهم مطابقاً للحق[٢٤].

- ثم يتكلم الصابئة عن خلق آدم ونوح وإبراهيم طبقاً لما جاء في التوراة وليس كما ورد عند المندائية.

ثانياً - الطائفة الثانية:

من الباحثين الذين قالوا بوجود علاقة بين المندائية والحرانية.

أكدت الباحثة الانكليزية الليدي دراور التي عاشت فترة طويلة في جنوب العراق تدرس التراث المندائي. قالت: في جملة ماأورده المؤلفون العرب من روايات يوجد بها قدر لا بأس به من الحقيقة، وهو أن لدى الحرانيين مايشتركون به مع الصابئة المندائية، الذين يسكنون أهوار جنوب العراق[٢٥].

ثم ذكرت الليدي دراور اشتراك النحلتين، في أن النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية، وأرواح ثانوية، لأمر ملك النور، وإنها تتحكم بمصائر البشر، ويصاحب هذه الأرواح الخيرة أضدادها من الأرواح الشريرة. ففي فلك الشمس، ينتصب (شامش) إله الخير النافع، ورمز الخصب والخضرة، ومعه الروح الشرير المهلك (أدوناي) إله الظلمة مع أرواح نورانية أخرى حارسة، وتوصلت الليدي إلى أن اعتقاد كلا الطائفتين، يقوم على ثلاثة أمور جوهرية، والصواب أنه لا اتفاق بين الطائفتين في الأمور التي ذكرتها الليدي دروار.

١ ـ الماء الجاري (يردنا) رمز الحياة العظمى:

للماء في المذهب المندائي دور هام فمن يتعمد، يقترب من الله ليغفر ذنوبه، ويحفظه من الأرواح الشريرة. وبالماء الجاري، يتم دخول الحدث إلى المذهب، ويحق له دخول المندى. وشعارهم (من يتعمد بالمعمودية يسلم).

أما الحرانية فهم وإن كانوا يقدسون الماء الجاري، مسكن الأرواح الخيرة، إلا أن الخلاص عندهم يرتبط بالمعرفة الآلهية، وعلى التجربة الروحية، التي من خلالها يتحد الفرد بالإله، الكامل ويصبح مثله. ولا دور للمياه والعمادة في خلاصهم كما هو الحال عند المندائية.

٢ ـ خلود الروح (نشمثا):

كل الديانات تقول بخلود الروح. كان المندائيون يرون أن للروح صلة بأرواح أسلافها، بل إن الروح تعيش على صدقات الأهل والقرابين التي تقدم للموتى (اللوفاني) قبل انتقالها إلى عالم القدرة (عالم الأفلاك).

أما الحرانية، فالروح عندهم لاتتأثر بالصدقات، لأنها تنتقل من جسد إلى جسد آخر وتعاني قبل أن تتطهر. وإن القرابين، التي تقدم للآلهة تفيد الأحياء لا الموتى.

كتب ثابت بن قرة الحراني رسالة عن النفس بعد الموت قال فيها: إن من يتصرف تصرف البهيمة في الحياة، فإن نفسه حالة في جثة الحيوان. وهذا الاعتقاد استفاده ثابت من الفكر الفيثاغوري. قيل أن فيثاغورس مرّ بقوم يضربون كلباً فعرف من عوائه أن صوته يشبه صوت صديق له مات منذ مدة. فصاح بهم كفى[٢٦].

٣ ـ الخضوع لما يقول الكهنة الموكلون بالكتب المقدسة:

يخضع الصابئة لرؤسائهم الذين يقومون بحل قضاياهم بدلاً من السلطة الزمنية. فهم يعمدون الأطفال، ويعقدون القران ويطلقون النساء، ويكفنون الموتى، ويترحمون على الميت، من خلال اعتمادهم على الكتب المقدسة. وأهم هذه الكتب عند المندائية.

١ ـ كتاب الكنز رابا: وفيه أحكام الدين المندائي، وأسطورة خلق العالم، ترجم الكتاب إلى الألمانية عام ١٩٢٥ من قبل المستشرق ليدزبارسكي.

٢ ـ كتاب سيدرا أونشمتا أي كتاب الروح، وفيه كيفية إقامة الشعائر الدينية. ترجمته إلى الانكليزية الليدي دروار.

٣ ـ كتاب أدراشا أديهيا أي تعاليم يحيى، يحتوي على وصايا أخلاقية. منها:

ـ يكمن سر السعادة، في أن لاتكون كذاباً أو منافقاً.

ـ من يعمل خيراً، يرى خيراً.

ـ الويل لعالم لم يُعَلِّم شيئاً، من علمه للآخرين.

٤ ـ كتاب التعميد (سيدرا مصبوثا) ترجمته الليدي دراور إلى الانكليزية.

٥ ـ كتاب العبادات (ايناني) يتضمن كيفية الصلاة والصوم، وكيفية الطهارة.

٦ ـ كتاب الزواج (مسكنتا)، يحتوي على شعائر الزواج، وشروط الطلاق.

٧ ـ سفر ملواشه (الاسم النجومي للعماد). وفيه تحديد لطالع الغيب وتحديد أفضل أوقات العمادة، والزواج والسفر، والطبابة، وهو مجموعة تعاليم لقارىء الحظ (كصوما) وتحذير من عمل الساحر (كلدايا).

٨ ـ كتاب حران كوثيا، أي حران السفلى، فيه ذكريات الصابئة المندائية وهو أقرب إلى القصص الخرافية. فيه ذكر لحكمائهم السبعة. وتنقلهم من أرض فلسطين إلى حران ومنها إلى بلاد مابين النهرين. وفي الكتاب ذكر وصول العرب إلى العراق، زمن رئيسهم (انش بن دنقا) الذي تفاوض مع سعد بن أبي وقاص، وأخذ منه عهد الأمان، وأدوا الجزية، عند جبل (أرساي)[٢٧].

ولا زالوا إلى اليوم يدعون في صلاتهم «أيها المسلمون لاتتراجعوا عن عهدكم، الذي عاهدتم الله عليه»[٢٨].

غاية القول: إنه لاصلة بين مذهبي الصابئة المندائية والحرانية. فالمندائية حصاد ثقافة بيئة فقيرة في معطياتها الحضارية. لذا لم يكن لهم أي تاثير على الشعوب المجاورة.

وعلى العكس من ذلك فالحرانية وريثة ثقافة عريقة فيها من حضارة الكلدان والآراميين واليونان والعرب، وعنهم ظهر كبار أمثال ثابت بن قرة الحراني وأبو روح الصابيء ومحمد بن جابر البتاني المعروف لدى الغرب ببطليموس العرب، وأبي إسحق الصابيء شيخ كتاب عصره.

قال العلامة حسين مروّة: «لعب علماء مدرسة حران دوراً بارزاً في نقل الفلسفة والعلوم اليونانية إلى العربية».

متى أطلق على الحرانية اسم الصابئة؟

الحرانيون لا علاقة لهم بالصابئة، وكان أهل الرّها يطلقون عليهم أسماء متعددة منها (الكلدان والحنوفون والحرانيون) ولم يذكر بين تلك التسميات اسم الصابئة. وهذه التسمية أطلقت عليهم في القرن الثالث الهجري. عندما اجتاز الخليفة المأمون سنة ٢١٨ هـ ٩٣٣م مدينة حران. فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرنانيين وكان زيهم لبس الأقبية، وشعورهم طويلة، بوفرات كوفرة قرة جد سنان بن ثابت. فأنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم من أهل الذمة؟ فقالوا: نحن الحرنانية. فقال: أنصارى أنتم؟. قالوا: لا... قال: فيهود أنتم؟.. قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا.. قال: لهم، أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول. فقال لهم المأمون: فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس أيام الرشيد والدي. وأنتم حلال دماؤكم ولا ذمة لكم. فقالوا: نحن نؤدي الجزية. فقال لهم: إنما نأخذ الجزية، ممن خالف الإسلام من أهل الأديان، الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه. فأنتم لستم من هؤلاء فاختاروا أحد أمرين:

- إما أن تنتحلوا دين الإسلام.

- أو أن ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه. وإلا قتلتكم عن آخركم. فإني أنظرتكم إلى أن أرجع من سفري هذه. ورحل المأمون يريد بلاد الروم. فماذا حدث بعد ذلك للحرنانية؟. إنهم غيّروا زيهم، وحلقوا شعورهم، وتركوا لبس الأقبية. وتنصر كثير منهم، ولبسوا الزنانير، وأسلمت منهم طائفة. وبقي منهم شرذمة، على حالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه. فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل. فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مالهم الذي أحدثوه منذ أيام الرشيد لهذه الغاية أعدوه للنوائب، قال لهم الشيخ: إذا عاد المأمون وسألكم عن دينكم فقولوا له: نحن الصابئون، فهذا اسم دين ذكره الله في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به». هذه أول أشارة إلى واقعة تاريخية هي انتحال الحرنانية لاسم الصابئة. ومن انتحل منهم الإسلام وخشي العودة، والارتداد عن الإسلام أعلنوا الإسلام، واتخذوا الأسماء الإسلامية غطاء، وهذه هي التقية عند الحرانية، أو الصابئة الجدد، وكانوا

يضمرون ديانتهم سراً كما فعل آباء محمد بن جابر بن سنان البتاني، وهو ابن أخت ثابت بن قرة الحراني. وقد أبى البتاني تسمية زيجه العظيم إلا باسم (الزيج الصابيء).

عندما خضع أهل حران، للحكم الإسلامي، كان اسمهم الحرنانية. قال مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) في كتابه الأيام الستة «عندما اطلع على كتاب هرمس الحكيم وهو من كتب الحرنانية المقدسة قال عنهم: وهؤلاء القوم عند الناس لهم أسماء مختلفة منها الكلدان والحرانيون والحتوفون[٣٠]. لم يذكر اسم الصابئة بين تلك الأسماء.

أما الكندي فإنه دعاهم بالصابئة، وقد نقل أحمد بن الطيب حكاية عنه: «إنه نظر في كتاب يقره هؤلاء القوم وهو مقالات لهرمس في التوحيد لابنه على غاية من التقاتة في التوحيد لايجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه، مندوحة عنها، والقول بها[٣١] وهؤلاء القوم دعوا إلى الله وإلى الحنفية التي يتسمون بها»[٣٢].

طوائف الحرانية:

انقسم المؤرخون حيالهم فالفيلسوف أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي (قتل ٢٨٦ هـ ٩٠٠) صديق ثابت بن قرة الحراني. قال عنهم: «دعوة هؤلاء القوم كلهم واحدة لافرق بينهم وسنتهم وشرائعهم غير مختلفة. جعلوا قبلتهم واحدة، بأن صيّروها لقطب الشمال في سفرة العقلاء، قصدوا بذلك للبحث والحكمة، ودفعوا ما ناقض الفطرة، ولزموا فصائل النفس الأربع، وقالوا إن السماء يتحرك حركة اختيارية وعقلية[٣٣].

ولكن أبا سعيد وهب بن إبراهيم النصراني، وهو ممن عاشر القوم وسكن معهم ذكر أنهم يتفرقون إلى طوائف عدة ذكر منها ابن النديم طائفتين:

طائفة الروفسيين:

بما أن الديانة الحرانية، تؤخذ عن الأم. فالاختلافات بين الحرانية نلحظها ونلمسها من لبس حلي نسائهم. فنساؤهم لايلبسن ولايتحلين بذهب البتة، ولايلبسن خفاً أحمر، وإذا خرجن من بيوتهن خرجن محجبات متلثمات بخمر سود، يغطين بها رؤوسهم. إلا أن جلابيبهن السوداء كانت مطرزة بخيوط حريرية ملونة، وكانت هذه الطائفة تقرّب للإله في كل سنة خنزيراً في أعياد تموز الصيفية.

طائفة الربانيين:

كان الرجال في هذه الطائفة، يلزمون بيوتهم، وفيها يمارسون حرفتهم المختلفة، وهم يحلقون رؤوسهم بالمواسي أو النورةوحتى النسوة المترهبات، منهن يحلقن رؤوسهن. هذه الطائفة تأخذ بتعاليم هرمس المصري، قال إخوان الصفا عن الحرانية:

«إنهم أخذوا علومهم عن السريان، والمصريين على حسب نقل الصنائع والعلوم في البلدان وبما يحدث لها من السياسات والأديان»(٣٤).

المراجع:

١ ـ الموسوعة الإسلامية مادة الصابئة ص ٨٩ ـ كتب المادة كارادي فو ـ القاهرة.
٢ ـ كتاب امتاع الاسماع ج ١ ص ٦٧ المقريزي تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة.
٣ ـ الفهرست ص ٣٨١ ابن النديم.
٤ ـ مروج الذهب ج ١ ص ١٦٥ المسعودي.
٥ ـ كتاب الجغرافيا ص ٨٩ ابن سعيد المغربي.
٦ ـ ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٣٥ القس بطرس نصري الكلداني الموصل ١٩٠٥.
٧ ـ المسعودي ج ١ ص ٤٦٨.
٨ ـ المسعودي ج ٢ ص ١٦٩.
٩ ـ تاريخ الفلاسفة والحكماء ص ١٥ ابن جلجل تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩٥٥.
١٠ ـ الصابئة المندائية ج ١ ص ٣٣ الليدي دراور ترجمة نعيم بديوي وغضبان الرومي بغداد ١٩٨٧.
١١ ـ الصابئة المندائيون ص ٨١ سليم برنجي دار المدى دمشق ١٩٩٦.
١٢ ـ المصدر السابق ص ١٨٨.
١٣ ـ المصدر السابق ص ٤٣.
١٤ ـ مجلة العربي عدد ١١٢ عام ١٩٦٨.
١٥ ـ الليدي دراور ص ٢٧.
١٦ ـ سليم برنجي ص ٢١٦.
١٧ ـ المسعودي ج ١ ص ٤٦٥.
١٨ ـ سليم برنجي ص ٢٢٦.
١٩ ـ البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٢ ابن المطهر المقدسي تحقيق كليمانت هيوار دار المثنى، بغداد.
٢٠ ـ سليم برنجي ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
٢١ ـ المصدر السابق ص ٢٣٧.

٢٢ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٨٣.
٢٣ ـ سليم برنجي ص ٥٩.
٢٤ ـ كتاب الأيام الستة ص ١٠٩ مار يعقوب الرهاوي ترجمة جورج صليبا دار الرها حلب ١٩٩٠.
٢٥ ـ الليدي دراور ص ٢٧.
٢٦ ـ تاريخ العلم ج ١ ص ١٤٨ جورج سارطون القاهرة.
٢٧ ـ سليم برنجي ص ٨١.
٢٩ ـ الفهرست ص ٣٨٥.
٣٠ ـ الأيام الستة ص ١٠٠.
٣١ ـ الفهرست ص ٣٨٤.
٣٢ ـ المصدر السابق ص ٣٨٣.
٣٣ ـ المصدر السابق ص ٣٨٨.
٣٤ ـ المصدر السابق ص ٣٨٩.

الفصل الثالث

أهم قواعد العقيدة الحرانية

الحرانية ديانة عرفانية سريّة:

رأينا في الفصل السابق، أنه لاعلاقة للحرانية بالصابئة المندائية، لأن الحرانية ديانة عرفانية سريّة وهي خليط من أفكار فيثاغورية، واعتقادات شعبية غلفت بطابع الحكمة الهرمسية.

اختلف الباحثون حول تحديد شخصية هرمس الحكيم، الذي كان قبل الطوفان، الذي تدعي الحرانية حكمته[1] أهو هرمس المصري.. أم هرمس البابلي؟. لقد وحّد اليعقوبي بينهم[2] واكتفى بالقول «هرمس المحمودة آثاره المرضية أقواله الذي يعد من الأنبياء الكبار، وهو الذي وضع أسماء البروج، والكواكب ورتبها في بيوت، وبيّن تعديل الكواكب وتقويمها»[3] وهو الذي تدعوه الحرانية «نبي الله أدريس» الذي قال عنه القرآن الكريم «ورفعناه مكاناً علياً» لأنه صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة، حتى شاهد جميع أحوال الفلك، ثم نزل الأرض فبنى بيتاً لزحل في مكة وأخبر الناس بعلم النجوم، ووصف الباري سبحانه «بالحكمة والحياة والوجود» من أجل ذلك دعي عندهم بهرمس المثلث الحكمة»[4].

كان هرمس الحكيم يدعو لإقرار توحيد الله، وحظر النفس عن الشهوات، والأمور المحبوبة بأسرها وترك الرخصة في كل شيء منها، للوصول إلى إدراك الحقائق. قال عنه مار يعقوب الرهاوي إنه مصري الجنسية، وكان اليونانيون يحبونه كثيراً وقد سأله أحد مواطنيه المصريين المدعو (أوزيريس) حول تكون الشمس، فكان جوابه «إنها ظهرت بعناية الله، سيد الكل فكلامه هذا كان كلام قديس»[5].

كان الحرانية يعدونه من أنبيائهم، كعاذيمون وأفلاطون، الذي ينسبون إليه معظم حكمتهم وكان يقول: «إن معرفة صانع العالم (الباري سبحانه) يحتاج إلى بحث وفكر شديد، وإذا ماكشفنا الغطاء عن حقيقته استحال علينا نقل هذه المعرفة إلى الآخرين.

من هنا نجد أفلاطون لجأ إلى التشبيهات الأسطورية ليقرب معرفة الباري إلى أذهان الناس، من أجل هذا عدّه ثابت بن قرة الحراني من نحلة فيثاغورس، لأنه قال مثله بخلق العالم، وصدوره عن الواحد، وإن كان يعتقد بخلوده»[٦] أي بخلود العالم.

إن لتفاعل الثقافتين اليونانية والمحلية، في حران أثر في تكوين ديانة تقول بمبدأين للعالم (النور والظلمة)، نادى بها الفيلسوف برديصان الرهاوي (١٥٤ - ٢٢٢) وجرى من وقتها تناقض بين الحرانية والديصانية، بصورة مطلقة على مستوى الكلمات أو مستوى الأشياء[٧] ولكنهما اتفقتا حول مصدر الشر في هذا العالم فهما مجمعتان على أن الطبيعة هي أساس سقوط الإنسان في الخطيئة، حينما اتصلت النفس الخالدة بالعالم المادي (جسد الإنسان الفاني)، وإن الخلاص لن يتم إلا بخلع ربقة هذا الجسد للعودة إلى النور الأزلي.

كان الحرانية يخاطبون المبتدىء في الدين: «هل لك أن تدخل في هيكل عاذيمون حتى ترى الأفلاك يحكيها لك أفلاطون، وهي أفلاك روحانية لا مايشير إليه المنجمون. وذلك أن علم الله يحيط بما يحوي العقل من المعقولات والعقل محيط بما تحوي النفس من الصور، والنفس محيطة بما تحوي الطبيعة من الكائنات، والطبيعة محيطة بما تحوي الهيولى من المصنوعات، فإذا هي أفلاك روحانية محيطات بعضها ببعض»[٨].

من النص السابق نرى أن لحرانية عقيدة تلفيقية تعتمد على فكر أفلاطون الهرمسي في الصدور أكثر من علاقتها بفكر أفلوطين. وما أروع ماقاله عنهم المسعودي «إنهم حشوية الفلاسفة وإنما اضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة والفلاسفة حكماؤهم».

من المؤكد أن تعاليم هرمس الحكيم كتبت في الشرق في القرن الرابع الميلادي أثناء الصراع المرير والضاري بين المسيحية والوثنية، في صياغة محكمة كي يقبلها الوجدان الشعبي الوثني والمسيحي معاً. وأثر تعاليم أفلوطين فيها واضح جداً حتى أنه ليصعب علينا التفريق بين تعاليم هرمس الحكيم وتعاليم التاسوعات لأفلوطين.

كانت حران مركزاً ثقافياً مهماً في قلب العالم القديم عاش فيها (أفلوطين). وعلّم فيها تلميذه يامبليخوس الكالخيسي) (توفي ٣٢٥) وعندما أرسل أحدهم من الاسكندرية يسأله عن موضوع ماكتب إليه «إذا طرحت مسألة فلسفية، فإننا سنحكم فيها وفق نهج هرمس الحكيم الذي استعمله أفلاطون وفيثاغورس في الماضي لضبط فلسفتهما»[٩]. وكان يامبليخوس أحد معلمي الفكر الأفلاطوني الحديث.

أهم تعاليم هرمس الحكيم:

كان الحرانية يعظمون تعاليم هرمس، بل هي محور عقيدتهم، التي كانوا يعلمونها في معابدهم ومدارسهم. وكانت تلك التعاليم، تقوم على فكرة الجدل الأفلاطوني الصاعد والنازل في مدارج المعرفة السبع، وقد كتبت في تكثيف فلسفي شديد الإيجاز.

تبدأ الأسطورة من تصور هرمس الحكيم وهو جالس في حالة تشبه الوسن، رأى النور بغمره وهو في حالة صعود نحو الإله الأب المتعالي.

قال هرمس: «رأيت في عقلي النور الذي هو عبارة عن عدد لايحصى من القوى (الملائكة) قد تحولت إلى عالم لاحدود له، بينما كانت النار مطوقة، بقوة هائلة، تبلغ مستقرها وتكفها عن الحركة»[١٠] لتصبح أساس الأشياء المحسوسة.

في هذه المقدمة نلمح النار الحية التي تشتعل وتنطفيء حسب نسق معين ثم تتحول إلى كل شيء، وهي الأساس العام والجوهر لجميع الأشياء المحسوسة، وهذه هي فلسفة هيرقليطس العامة[١١].

المدرجة الأولى ـ صدور الكلمة أو (اللوغوس) Logos:

قال هرمس: «ثم انبجس (الكلمة الآلهية) المقدسة من النور، وهو ابن الإله الصانع» هذه هي عين فكرة فيلون الاسكندري (٢٠ ق.م ـ ٥٤ م) الذي اعتبر الكلمة «اللوغوس» وسيطاً بين الله والعالم. وهي عين الفكرة التي تجسدت، في السيد المسيح الذي هو ابن الله الذي عاش وعمل وصلب ورفع إلى السماء من أجلنا. وهي عين الفكرة التي تحدث عنها أفلوطين (٢٠٤ ـ ٢٧٠) عندما تحدث عن صدور اللوغوس وشبهه، بالنور الذي ينبع من المقر الآلهي، ويمتد إمتداداً حتى أطراف العالم[١٢].

وفكرة الصدور هذه قالها الشاعر السرياني العظيم مار أفرام السرياني (المتوفي ٣٦٣) عندما شبه الأب بقرص الشمس، والنور بالإبن (السيد المسيح) والحرارة (بالروح القدس).

المدرجة الثانية ـ صدور العناصر الأربعة:

سأل هرمس الإله المتعالي: ومن أين صدرت العناصر الأربعة؟

أجابه: عن إرادة الله، عندما تلقت الكلمة، ورأت سناء عالم المثل البهي الجميل، وظهور العنصرين المكونين للعالم السماوي، وهما (النار والهواء) وقد صعدا نحو

الأعلى وانفصل عنهما (التراب والماء)، ممتزجين متحركين بفضل الكلمة المقدسة.

فالماء رطب بارد بالطبع، وهو يروي العطش. والنار حارة ويابسة بالطبع، وهي تحرق وتضيء»(١٣).

أما التراب فهو أثقل العناصر كلها لهذا يرسب تحت سائر الأشياء كلها، وهو في الغاية القصوى من الكدر، وعدم النور والحياة، ثم يتلو جرم النار في الفلك الأعلى المخصوص بالشرف على كل الأجرام وهو جوهر النفس الروحانية، وإن كل الأشياء مما دونها لاحياة لها، إلا بها لأنها ذات الفكر والإرادة والتمييز(١٤).

ومن العالم النوراني، تشكلت مادة السماء، وأصبحت موطناً للأرواح النورانية الصالحة.

وأما العالم الحسي (عالمنا الأرضي) فقد تشكل بمشيئة الإرادة الإلهية عن طريق الكلمة المقدسة (اللوغوس)، التي كونت على محاكاة، العالم العلوي الفائق الجمال، وفيه وزعت نفوساً على الكائنات الأرضية.

إن فكرة الفيض والصدور توفق بين تعالي الأول عن كل مايوجد، وبين حضور قواه في كل الموجودات، وبفكرة الفيض يمكن أن يظل الأول في تعاليه، وهو أشبه بمصدر مشع للنور، دون أن يفقد شيئاً من ذاته. هذه الفكرة هي التي مهدت لفكرة، وحدة الوجود عند السهروردي، وابن عربي والشيرازي، وغيرهم من متصوفة الإسلام.

المدرجة الثالثة ـ تدفق الحركة الدائرية الأولى:

قال هرمس: اتحد الإله المتعالي، بالإله الصانع، وأعطيا للأفلاك الدفقة الأولى، فانطلقت بحركتها الدائرية الدائمة الأزلية، وصارت المدبرات السبع تدير العالم عن طريق القدر.

وعن الهرمسية أخذت الحرانية، تعلم أنه لايقع من أحد فعل ولاييسر له عمل إلا ماقد سبق له في علم الباري، الذي هو القضاء المبرم، والقدر المحتوم، اللذين هما موجبات، أحكام النجوم وتأثيرات الأشكال الفلكية(١٥).

بدأ الصراع على أشده، بين أتباع برديصان الرهاوي والحرانية. قال ماريعقوب الرهاوي: نورد هنا حديث أحد العلماء الحرانيين ذائعي الصيت (مع الأسف لم يسمه) الذي كان يدافع بشدة، عن القضاء والقدر، الصادر من الكواكب السبعة، والذي

يشمل كل مايحدث في هذا الكون، ضد العالم (ولغش الرهاوي) أحد أتباع برديصان، وكان يحاوره ضد القدر، محاولاً تسفيهه ببراهين من الطبيعة(١٦).

كان برديصان يحصر تأثير الأفلاك في الطبيعة، عن طريق المناخ محدثة الجو المناسب لمعيشة الإنسان، من طول العمر أو أحداث الأوبئة والأمراض التي تميت الإنسان، أما روح الإنسان، فلا تأثير للأفلاك عليها، لأنها تخضع لعادات وشرائع البلدان التي يكتسبها الإنسان من مجتمعه لا عن تدبير الكواكب، وقدرها المحتوم(١٧).

تناول العالم الألماني هانز هينرش شنيدر الخبر الذي أورده مار يعقوب الرهاوي فقال: عن ولغش الرهاوي، وهو في حواره مع نصير متحمس لايقبل المساومة للجبرية النجومية يدلي بهذا الرأي وهو أن الناس متساوون من حيث الاستعدادات الطبيعية، متباينون من حيث تأثير النجوم، غير أن الحرية الممنوحة لهم للأعمال الأخلاقية، تدعوهم إلى الإرتفاع فوق القيود الطبيعية النجومية»(١٨).

المدرجة الرابعة ـ خلق الإنسان السماوي الأول:

قال هرمس: ظهر الإنسان السماوي الأول، خلقه الإله المتعالي على صورته، وسخّر له جميع مخلوقاته، وأذن له العيش في عالم الكلمة المقدس (الجنة)، التي احتفت به، واكتسب طبيعتها، ثم اخترق محيط الكرات السبع، وأطل على عالم الطبيعة (الأرض والماء) فانعكست صورته على الماء، فعشقها ونزل إلى الطبيعة، وتعانقا واتحدا، وهذا أول (السقوط والخطيئة).

وظّف مؤلف تعاليم هرمس أسطورة نرسيس اليونانية ليقرب تعاليمه للناس. ومؤدى الأسطورة اليونانية أن الشاب الجميل (نرسيس) عشقته الحورية إيكو (النفس) فنبذها لأنها لاتستطيع أن تردد صدى كلماته. ولكن الحورية نيميس (التي تمثل الإعتدال في نشاط البشر) عاقبته، بأن أجبرته على رؤية صورته في صفحة الماء، فعشق نفسه، وتحول إلى زهرة نرجس بجانب غدير الماء.

المدرجة الخامسة ـ سقوط الإنسان الأول وهبوطه على الأرض:

قال هرمس: «هبط الإنسان الأول إلى عالم الأرض، وصار أسيراً للقدر وسيداً عليه، بآن واحد. خاطب الإنسان الأول نفسه: يانفس مادمت في عالم الطبيعة، فلا تطلبي مني لذة، ولاتتشاغلي بمحسوس عن العلم والتصور والتمثل والبحث،

والاستكشاف، وليكن مأربك العودة والرجوع إلى ذلك العالم، عالم الكلمة المقدسة»[١٩].

ربطت الديانة الحرانية الخلاص الإنساني بالمعرفة الإلهية. وقد كتبوا على مدقة باب مجمعهم في حران (من عرف ذاته تأله). لأن الإنسان متى عرف نفسه فقد عرف ربه، نسبت المذاهب العرفانية الإسلامية هذا القول إلى الإمام علي عليه السلام[٢٠]. وصار الخلاص مرتبط بحال الخطيئة الشخصي بالمعرفة وبالإيمان الماحي للخطايا[٢١].

الدرجة السادسة ـ نشوء الحياة على الأرض:

قال هرمس: «ولد للإنسان السماوي الأول سبعة أولاد من اتحاده بمحبوبته الأرض، كل منهم ذكر وأنثى في نفس الوقت، ويتألف جسدهم من العناصر الأربعة، وأصبحوا موزعين حسب طبيعتهم إلى جزئين هما:

العقل والنفس الشهوانية. وبتدبير الكواكب السماوية، بدأت عملية التكاثر والتناسل في الكائنات الحية، كل حسب نوعه. وكل من تعلق بجسده الصادر عن الخطيئة، والشهوة، فإنه يبقى في الظلمة، يعاني من الموت فإذا عاد إلى وعيه، وعرف بعقله أصل نفسه الإلهي رجع إلى عالم النور.

سأل هرمس: العقل الكلي، عن معنى الحكمة القائلة، ليعرف الإنسان العاقل نفسه) أليس كل الناس ذوي عقول؟.

أجاب العقل الكلي: احفظ لسانك ياصديقي. إني أنا العقل. قريب من الذين هم أولياء طيبون، مطهرون رحماء. قريب من الأتقياء الذين يطيعون الرب بمحبة، ويشكرون ويباركون ويسبحون وبهذا يعرفون[٢٢].

الدرجة السابعة ـ المعاد أو العروج نحو السماء:

سأل هرمس العقل الكلي: حدثني عن المعراج وعن كيفيته؟.

فأجابه: عندما يفسد جسدك تغادره النفس، فينحل وتختفي الصورة التي كنت تحملها، وتصدر حواسك الجسمانية ليعود كل منها إلى مصدره عبر الكرات السماوية فتترك في (كرة القمر) قوة الإنماء والنقصان وفي (عطارد) قوة الخبث والاحتيال، وفي (الزهرة) وهم الرغبة، وفي (الشمس) كبرياء الحكم والأهداف الطموحة، وفي (المريخ) التهور الكافر والإدعاء الكاذب، وفي (المشتري) الشهوات المحرمة، التي يولدها الغنى

والفقر وفي (زحل) الكذب الذي يكيد كيداً، ثم ترتفع إلى (السماء الثامنة) متحررة ماتركته الكرات الفلكية، وتندمج مع الملائكة مسبحة للرب متحدة في ملكوته السعيد، وفي النهاية تتحد بالله[٢٣].

هذا إذا كانت الروح قد تطهرت من إدرانها الجسديّة. أما إذا كانت النفس شريرة فإنها تحل بجسد آخر، وتظل تعاني وتتعذب، أو أنها تظل هائمة تحت عالم فلك القمر، لتعلقها بعالم الحواس.

عندما أخرج ثابت بن قرة الحراني تعاليمهم السريّة إلى وسط ثقافي مغاير أجرى عليها بعض التعديل والتحوير لتتلائم والوسط الجديد (الإسلامي) فأخذت الصورة التي عرضتها رسائل إخوان الصفا (اعلم أيها الأخ البار الحكيم أيدك الله وإيانا بروح منه. أن العاقل إذا عرض في علم النجوم وفكر في سعة هذه الأفلاك وسرعة، دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها، وأقسام هذه البروج وغرائب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود ومعاينة ما هنالك. ولكن لايمكن الصعود بهذا الجسم الثقيل بل النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها فهي هنالك، في أقل من طرفة عين، بلا زمان لأن كونها حيث همتها ومحبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقة[٢٤]. وإن قدر على خلع جسده ورفض حواسه وتسكين وساوسه صعد إلى الفلك، وجوزي هناك بأحسن جزاء[٢٥]. والكواكب عند الحرانية هي آلهة لديها النفوس البشرية قبل نزولها إلى الجسد، وإليها تصعد النفوس الطاهرة، بعد مغادرة الجسد.

فلسفة النفس عن الحرانية:

لازالت الأفكار الهرمسية تستهوي بعض مفكري الغرب. فالشاعر الألماني جوته أورد شعراً على لسان فاوست قال فيه: أما أنا فيسكن جسدي روحان مشاربهما متباينة، وتحاول كل واحدة أن تبين عن الأخرى.

- الأولى دنيئة - تلتصق بأديم الأرض، وتتعلق بأهداب هذا العالم.
- والأخرى طمّاحة - تندفع محلقة في السماء، صاعدة إلى مسرى النجوم.

فياليت الأرواح السابحة في الهواء بين الأرض والسماء تهبط إليّ فتنشلني من وهدة الشر، وترقي بي إلى أقطار جديدة ذات ألوان بديعة[٢٦].

كان الحرانية يؤمنون بمثل هذا الاعتقاد. فالنفوس عندهم نوعان:

النفوس الآلهية:

مالا يتعلق بالأجسام ولاتسكن الجثة بوجه من الوجوه لعلوها عليها، وارتفاعها عن أوساخها وأقذارها، وهذه هي النفوس الإلهية. وهي عندهم نوعان:

أحدهما: نفوس خيرة بالذات وهم الملائكة، يتقربون إليها لاجتلاب خيرها.

والثانية: نفوس شريرة بالذات، وهم الشياطين يتقربون، إليها لاستكفاء شرها ورئيسهم (جرجاس).

وقد جعلوا لكل نوع واحد منهم دعاء مقرراً وبخوراً معلوماً، وسياقة عمل يتوصلون بهاإلى مايرومونه منهم.

النفوس الكوكبية:

هذه النفوس متعلقة بجثة الكواكب لاتفارقها وهي تتصرف بالعالم الأرضي. وتنقسم حسب تصرفيها إلى قسمين:

أحدهما: تتصرف بطبائع أجسادها كما ذكر في كتب أحكام النجوم.

والثانية: تتصرف بنفوسها ونفوس أخرى متعلقة بالأجساد لاتفارقها ولا تصبر عنها إلابمقدار ماتفارق الجثة عند فراقها[٢٧].

هذه النفوس يمكنها أن ترتقي الأفلاك، وتسكن بها إن كانت طاهرة. ويمكن أن تهبط، عنها وتسكن الجثة، وتتعلق بها عند مرضها، وتلتذ وتتعذب. وهذه هي النفوس البشرية.

التناسخ والنسخ عند الحرانية:

كان الحرانية يزعمون أن لديهم معرفة بما تؤول إليه النفس بعد الموت. يستدلون على ذلك من أخلاق الشخص في الحياة، فإذا وجدوه شبيهاً بالبهيمة في تصرفه، محباً للذات، حكموا عليه بأن نفسه نفس بهيمة لاتصلح إلا لعمارة الدار أو لحفظ نوع الإنسان.

وجاء في كتاب الخواص الذي يعتقد أبو بكر الرازي أنه من تأليف ثابت بن قرة الحراني. «إن كل صنف من أصناف الأخلاق موجود في الناس، كالشجاعة في الأسد، والختل في الذئب، والروغان في الثعلب، والمواثبة في الديك، فإذا مات الإنسان انتقلت روحه إلى نوع البهيمة، التي توافق خلقه في الحياة، حسبما ذكر في كتاب الخواص»[٢٨].

ومن النصوص المعتمدة في دراسة الحرانية، ما أورده عبد الرحمن بن الجوزي عن يحيى بن بشر النهاوندي. قال في كتابه عن الصابئة «إنهم يعتقدون أن الأرواح الخيرة تصعد إلى الكواكب الثابتة وإلى الضياء. أما الأرواح الشريرة، فإنها تنزل إلى أسفل الأرضين. وإن العالم لايفنى وإن الثواب والعقاب في التناسخ. وإن أرواح أهل الخير إذا خرجت، دخلت في أبدان خيرة فاستراحت وإن أرواح أهل الشر إذا خرجت تدخل في أبدان شريرة، فتحمل عليها المشاق، وإذا كثرت إساءة أهل الشر، بلغت نفوسهم إلى الهيولى الأصغر (الرسخ) انعكست فصارت حشائش تأكلها البهائم فتصير الروح في بهيمة، ثم تنسخ من بهيمة إلى أخرى عند موت تلك البهيمة، فلا يزال منسوخاً متردداً، في العلل ويعود كل ألف سنة إلى صورة الإنس، فإن أحسن في صورة الإنس لحق بالمحسنين»(٢٩).

ثم أورد أبو الفرج ابن الجوزي قصة من واقع الحياة، رواها له أبو الحسن علي بن نظيف قال: «كان أبو بكر بن الغلاس يقول بمذهب التناسخ. وكان لديه سنور (أي هر) أسود كان يمسحها ويخاطبها فتدمع عينيها، وكان يعتقد أنها أمه، وأنه حينما يخاطبها تفهمه ولاتستطيع الرد عليه.

سأله أبو الحسن: هل تفهم عنك ماتخاطبها به؟ فقال: نعم.

ثم سأله: أتفهم أنت صياحها؟ قال: لا. فقال له أبو الحسن: فأنت المنسوخ وهي الإنسان»(٣٠).

ظل الاعتقاد بالتناسخ سارياً في حران حتى بعدان هفت الحرانية، وتحول أهل حران كلهم إلى الإسلام. قال ابن حزم (المتوفي ٤٥٦ هـ ١٠٦٤م) عن الحرانية: «إنهم في جميع الأرض لايبلغون أربعين نفساً»(٣١).

وعندما زار ابن جبير حران سنة (١١٨٥) كان أهلها كلهم إسلام وفيهم الصلاح.

وهاهو الهجويري يروي في كتابه كشف الأسرار (سنة ٦١٣ هـ ١١٩٧م). قصة محتال اختار حران. قال الهجويري «رأيت بحران رجلاً، من بني ساسان، قد أخذ قرداً، فعلمه (السلام والتسبيح والسواك والبكاء). فإذا كان يوم الجمعة. أرسل الساساني عبداً هندياً حسن الوجه، نظيف الملبوس، إلى الجامع فيبسط عند المحراب سجادة. وقد البس القرد، ملابس أولاد الملوك، ثم طيبه بأنواع الطيب وأركب القرد بمركوب مذهب محلى. وفي ركابه ثلاثة، عبيد هنود يحفونه والقرد يسلم على الناس، وأمامه عبد يعلن للناس هذا ابن الملك الفلاني أكبر ملوك الهند وهو مسحور. وحيثما يؤتى بالقرد إلى الجامع، يقلع القرد منديله ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يأخذ

بالسبحة، ويسبح وينهض العبد الكبير ويسلم على الناس قائلاً: «اعلموا أن هذا القرد الذي ترونه أمامكم لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه، لا أطوع لله تعالى منه. وكان من القضاء المدبّر أن زوجّه والده ابنة الملك الفلاني فاقام معها مدة.

ثم قالوا لها: إنه قد عشق مملوكاً له. فأدركتها الغيرة وسحرته. وهو كما ترون. وقد سألوا زوجته العفو عنه. فادعت أنها خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار، وقد تخلف عليه عشرة آلاف. فمن يساعده بشيء لله؟ فارحموا هذا الشاب الذي عدم الأهل، والملك والوطن.

فيجعل القرد المنديل على وجهه، ويبكي، فترق قلوب الناس، ويرفده كل واحد بما يسره الله»(٣٢).

لِمَ اختار هذا المحتال حران دون غيرها؟

أظن أنه أدرك بفطرته، أن الفكر الذي يدخل في اعتقاد الناس، لايزول وقد يظهر ولو بعد حين. لقد كانت حران مؤئل التناسخ، وعندما انتقل أهلها إلى المذاهب الإسلامية الموحدة والعرفانية.

إن أولاد شعبه الحراني هم الذين أدخلوا فكرة التقمص إلى المذهب النصيري وقد كان مذهباً شيعياً خالص الاعتقاد.

وإن الأديب والمؤرخ عبد الملك المسبحي (المتوفي ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩) صديق الحاكم بأمر الله ألف كتاب درك البقية في وصف الأديان والعبادات مما رسّخ فكرة التناسخ والتقمص في البلاط الفاطمي. قال عنه ابن سعيد المغربي «لقد عني بما عني به الصابئة الحرانية»(٣٣) لأنه كان من أهل حران.

وعلى الرغم من أن علمائم كانوا فلاسفة آلهيين ولهم تصانيف في أنواع الفنون وهم من أرفع الناس طبقة ومن أهل العلم منزلة وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم(٣٤) فإنهم كانوا يؤمنون، بالتناسخ والرسخ والنسخ، مما لايصدق بعضه العقل.

إن الآراء المتضاربة، حول العقيدة الحرانية، دفعت المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون للقول: «إن تاريخهم قصة أدبية». لأن عقيدتهم مشحونة بالأساطير الوثنية ومفعمة بالأعداد الفيثاغورية التي حطت رحالها عند أفلوطين الذي كثّف الفلسفة اليونانية بكاملها ليذب بها عن حياض الوثنية، والتي غدت وبدون إرادة منه ديانة صوفية(٣٥). كما تركزت في العقيدة الحرانية.

المراجع:

١ ـ تاريخ الحكماء والأطباء ص ٧ ابن جلجل تحقيق فؤاد السيد القاهرة ١٩٥٥.
٢ ـ كتاب البلدان ج ١ ص ١٨٧ اليعقوبي.
٣ ـ كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ٤٧ الشهرستاني. الوكيل القاهرة ١٩٦٧.
٤ ـ مختصر تاريخ الدول ص ١٢ ابن العبري.
٥ ـ الأيام الستة ص ١٠٩ مار يعقوب الرهاوي ترجمة جورج صليبا دار الرها حلب ١٩٩٠.
٦ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٣٥٩ فيليب حتى ترجمة جورج حداد دار الثقافة بيروت ١٩٥٨.
٧ ـ بنية الفكر العربي ص ٢٥٤ محمد عابد الجابري.
٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٩٢.
٩ ـ البنية الذهنية للحضارة في الشرق الأوسط القديم ص ٢٦ يوسف حوراني دار النهار بيروت ١٩٧٨.
١٠ ـ بنية العقل العربي ص ٢٦٤.
١١ ـ مشكلات مابعد الطبيعة ص ٧٦ بول جانيه ترجمة يحيى هويدي مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١.
١٢ ـ اتساعية الرابعة لافلوطين ص ١٨ دراسة وترجمة فؤاد زكريا المكتبة العربية ١٩٧٠.
١٣ ـ كتاب زجر النفس لهرمس ص ٢٤ نشر دار قتيبة دمشق ١٩٨٢.
١٤ ـ المصدر السابق ص ٢٧.
١٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٠٠.
١٦ ـ كتاب الأيام الستة ص ٤٥.
١٧ ـ كتاب البلدان والشرائع ص ٤١.
١٨ ـ روح الحضارة العربية ص ٩٣ هاتز هتريش شيدر ترجمة عبد الرحمن بدوي دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩.

١٩ ـ زجر النفس لهرمس الحكيم ص ٣٢.
٢٠ ـ روح الحضارة العربية ص ٧٦.
٢١ ـ المصدر السابق ص ٨٠.
٢٢ ـ بنية العقل العربي ص ٢٦٥ محمد عابد الجابري.
٢٣ ـ المصدر السابق ص ٢٦٧.
٢٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٣٧.
٢٥ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨.
٢٦ ـ فاوست ص ٣٦ جوته ترجمة محمد عوض محمد، القاهرة ١٩٣٨.
٢٧ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٩٦.
٢٨ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٧.
٢٩ ـ تلبيس إبليس ص ٨٩ عبد الرحمن بن الجوزي دمشق ١٩٧٢.
٣٠ ـ المصدر السابق ص ٩٠.
٣١ ـ كتاب الفصل ج ١ ص ١١٥ ابن حزم طبعة مصر ١٣١٧هـ.
٣٢ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ آدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.
٣٣ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٥.
٣٤ ـ ابجد العلوم ج ١ ص ١٧١ صديق بن لسن القنوجي تحقيق عبد الجبار زكار دار الثقافة دمشق ١٩٧٨.
٣٥ ـ منبعا الأخلاق والدين ص ٢٣٥ هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي الهيئة المصرية القاهرة ١٩٧١.

الفصل الرابع
أهم الشعائر والطقوس والعادات

أهم الشعائر التعبدية:

لعب الدين الحراني قديماً، دوراً اجتماعياً هاماً، غايته تماسك أفراد المجتمع الحراني، ومساندة بعضهم لبعض، من خلال الشعائر والطقوس، واللباس والعادات التي بها يتميز بها أفراد الطائفة، عن بقية الطوائف الأخرى. وكان المعبد يرسم للأسرة والفرد مسلك حياتهم اليومي.

شبه بعض العلماء المجتمع القديم بقرية نمل، إذا خرجت عنهم نملة، ذبلت وماتت. وكذا الإنسان إذا عزل عن الآخرين، ولم يساهم معهم مساهمة كافية عانى ألماً وحدث له ماحدث للنملة الآبقة.

لقد كانت الشعائر والطقوس ضرورية، لتوليد حالة انفعالية تستدعي سلوكاً معيناً غايته زيادة اللحمة والترابط بين الفرد والمجتمع.

عندما هجر الحرانية بيئهم الأصلية، ولم يمارسوا طقوسهم وشعائرهم، وضاعت عاداتهم، اضمحلوا ضمن المجتمعات التي هاجروا إليها.

الصلاة والدعاء:

الصلاة صلة ورحمة بين الفرد وربه، والصلاة اسم المصدر، وهو التصلية أي الثناء الكامل، والصلاة هي الدعاء والتبريك والتمجيد.

قال سعد الدين التفتازاني: «وردت كلمة الصلاة في لغة العرب بمعنى الدعاء، قبل شرعية الصلاة المشتملة على الركوع والسجود لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، والصلاة عند الحرانية لاتختلف في جوهرها عن الصلاة في الديانات الأخرى. فالدعاء والتضرع للكواكب، وتلاوة التعاويذ الخاصة لاسترضاء الأرواح الخيرة، ولاجتناب أذى الأرواح الشريرة، واجبة على الرجل المؤمن الذي يدعو في صلاته:

تقبلوا مني دعائي لإصلاح مافسد فينا، وتسهيل ماعسر علينا، وتسديد ماعدل عن الصواب من أفكارنا وآرائنا ليحصل لنا طيب العيش في الدنيا والتمكن من الخلاص في الآخرة»[١].

«ويجب أن تكون النفس أثناء الصلاة، والتضرع غير مدخولة، والنية مضعوفة»[٢]. لأن الكواكب ذات النفوس الإلهية لاتقبل إلا ماكان خالصاً لوجه الله، وإلا كان تأثير الكواكب في قضائها لحاجات الناس ضعيفاً. قال ابن النديم عن الحرانية «إنهم يصلون كل يوم للكوكب الذي هو ربه، لزحل يوم السبت وللشمس يوم الأحد وللقمر يوم الاثنين وللمريخ يوم الثلاثاء ولعطارد يوم الأربعاء، وللمشتري يوم الخميس وللزهرة يوم الجمعة. وزعم أحمد بن الطيب أن لهم ثلاث صلوات، عن طهر ووضوء، وعندهم صلوات نافلة وقبلتهم نحو الشمال[٣].

«كان توجه الحرانية للكواكب التي هي المديرات لهذا العالم، على عكس الصابئة المندائية الذين هم أناس موحدون لله، ولايسجدون لتمثال أو صنم أو لكوكب بل يعدونها مظهر من مظاهر الخدعة، والنفاق والفتنة، ومن يعبدها فهو في نار جهنم خالداً»[٤].

وكان الحرانية لايطلعون أحداً على صلواتهم ولا على دعائهم الأفلاطوني، إلا إخوان الصفا الذين كانوا منهم. وكان دعاء إبو نصر الفارابي (المتوفي ٣٣٩ هـ ٩٥١م) الأفلاطوني:

«اللهم إني أسألك ياواجب الوجود. ويا علة العلل، ياقديماً ولم يزل، أن تعصمني من الزلل، ياإله المشارق والمغارب، ويارب الجوار الكنس السبع التي انبجست عنها الكون انبجاس الأبهر، هن الفواعل عن مشيئة التي عمت فضيلتها جميع الجواهر. أصبحت أرجو الخير منك، وأمتري زحلاً، ونفس عطارد والمشتري.

اللهم أنقذني من عالم الشقاء، والفناء، واجعلني من (إخوان الصفا وأصحاب الوفاء). وسكان السماء مع الصديقين والشهداء».

صوم الحرانية:

الأصل في الصوم الإمتناع عن الطعام والكلام، وهو من الشعائر التي تدل على الطاعة لله والرغبة إليه.

وفي صوم الحرانية، لايمتنعون عن أكل الطعام النباتي بل كل مايخرج من الحيوان من لحم وسمن وحليب وبيض، ويمتد يوم صومهم من قبل طلوع الشمس إلى مابعد الغروب.

وصومهم في أيام معلومة من السنة. قال أبو الريحان البيروني «صوم الحرانية الكبير يقع في التربيع الأول من هلال آذار، والشمس والقمر في برجين ذوي جسدين. وفطرهم في التربيع الأول، من هلال نيسان والنيران (الشمس والقمر)، معاً في برجين منقلبين مفروضين، وذلك يوجب أن تدور شهورهم في سنة الشمس دوران شهور اليهود[٥]. ثم فصل لنا ذلك أبو الفرج ابن الجوزي أيام صومهم قال:

«عليهم صيام شهر أوله ثمان ليال يمضين من آذار ويفطرون في السابع من نيسان وعليهم سبعة أيام أخرى أولها لتسع بقين من كانون أول (٢٢ ـ ٣١) وعليهم سبعة أيام أخرى من (٨ ـ ١٤) شباط ويختمون صيامهم، بالصدقة والذبائح»[٦].

وهذا يتفق مع ماقالوه في رسائل إخوان الصفا.

ومن الأطعمة المحرّمة عند الحرانية. من النباتات ـ الباقلاء (الفول) والثوم والعدس واللوبياء والقرنبيط وكل ماليس له جذور كالفطر والكمأة»[٧].

ومن اللحوم ـ يحرمون لحوم الإناث من الماعز والضأن والبقر[٨] كما يحرمون أكل الجزور من الإبل[٩] وسمك الجري والأرنب والضب، وكل طير وحيوان جارح ذي مخالب.

هذه المحرمات من الأطعمة هي نفس المحرمات عند النحلة الفيثاغورية.

الطهارة عند الحرانية:

الطهارة لغة هي التنزه عن الأدناس المادية والمعنوية. والطهارة شرعاً تعني الإغتسال بالماء الطاهر المطهر. وسمي الصابئة المندائية في جنوب العراق «بالمغتسلة» لكثرة ارتماسهم بالماء الجاري.

كان الحرانية لايكثرون، من الارتماس في الماء الحي الجاري، كالمندائية وإنما كانوا يتوضؤون بالماء كالمسلمين، ويتطهرون من الجنابة. ذكر ابن العبري أنه اطلع على كتاب لثابت قرة الحراني باللغة السريانية كتاب الطهارة والنجاسة»[١٠].

والحرانية ليسوا كالمندائية، القائلون في صلاتهم «بسم الله المتعالي. لا أمارس طقوسي بالنار ولست يهودياً ولا مسيحياً، ولكني أمارسها بالماء الجاري الطاهر الذي وهبه الله من أجل طهارة البشر»[١١]. ويتفق الحراني والمندائي، بتطهير أنفسهم من الجنابة.

وآذان المندائي «كل من يتعمد بالمعمودية يسلم». ومع ذلك يتفق المندائية والحرانية أن كل من يلوث الماء أو يتبول في النهر أو يتغوط به يصاب بمرض جلدي كالبهاق أو البرص[١٢].

إذا مرّ الصابئي المندائي أو الحراني بالقرب من ماء جار يقول: «السلام عليك أيها الماء الجاري، من تحت عرش الرب، الذي يحيي بك كل من في الأرض»[١٣].

بعض الطقوس والقرابين:

الطقس كلمة يونانية دخيلة على العربية، وهي تعني المنهج أو السلوك تجاه المقدس، فإذا كان الاعتقاد حالة ذهنية، فإن الطقس حالة انفعالية، من شأنها إحداث رابطة بين المتعبد والمقدس. وإن المعتقد والمقدس يتبادلان الاعتماد على بعضهما، رغم أن الطقس يأتي كناتج المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه[١٤].

والقربان أو الأضحية كل مايتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها إبتغاء مرضاة الآلهة أو إتقاء لسخطها. إلا الحرانية فإنهم لايقدمون الأضحية لله وإنما تقدم للكواكب مدبرة هذا العالم. كان العرب يقدمون أولادهم أضاحي (للات والعُزّى) كما قدَّم إبراهيم الخليل ابنه البكر أضحية للرب ثم فداه بذبح عظيم (كبش). وفي المسيحية قدّم الله ابنه الوحيد فدّية لخلاص البشر من الخطيئة الأولى.

كانت الأضاحي قديماً، تقدم للآلهة لإطالة العمر، وقد اتهم الحرانية بتقديمهم أضاحي بشرية للكواكب. ولكن أبا الريحان البيروني نفى عنهم تلك التهمة قائلاً: «لم يثبت عنهم سوى القرابين الحيوانية». والقربان الفلسفي عند ثابت بن قرة الحراني «ترك النفس محبة الدنيا والزهد فيها، وقلة الخوف من الموت، وهذه هي قرابين الحكماء والصديقين. أما القرابين الشرعية عند العامة، فهي لكل هيكل سماوي من السيارات والثوابت نحتوا له صورة وبنوا له معبداً يتقربون إليها بالدعاء والأضاحي»[١٥].

جاء في كتب المؤرخين المسلمين حول قرابينهم أن لكل كوكب قربان خاص به، من البشر أو الحيوان:

قربان المشتري:

يقربون إليه طفلاً وذلك أنهم يشترون جارية، ليطأها السدنة للأصنام السبعة، وتترك حتى تضع حملها، ثم يأتون بها والصبي على يدها، ابن ثمانية أيام فينخسونه بالمسال (المخارز) والأبر وهو يبكي على يد أمه. فيقولون له: أيها الرب الخير الذي لايعرف الشر قد قربنا لك من لم يعرف الشر يجانسك في الطبيعة فتقبل قرباننا وارزقنا خير أرواحك الخيرة»[١٦].

قربان زحل:

صنعوا لزحل تمثالاً عظيماً من الآنك (البرونز) وهو أعمى، لذا تراهم يقربون إليه ثوراً حسناً، يؤتى به إلى بيت تحته خندق محفور، وفوقه درابزين من حديد، على ذلك الخندق، فيدخل الثور، فتغوص رجلاه ويداه بين فتحات الدرابزين. ثم توقد تحته النار حتى يحترق. ويقول له المقرّبون: مقدس أنت أيها الإله الأعمى، المطبوع على الشر الذي لايفعل خيراً. قربنا لك ما يشبهك. فتقبل منا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة»[١٧].

قربان المريخ:

يقربون له رجلاً أشقراً أنمش الوجه، أبيض الرأس من الشقرة، يأتون به، فيدخلونه في حوض عظيم، ويشدون قيوده إلى أوتاد في قعر الحوض، ويملؤون الحوض زيتاً حتى يبقى الرجل قائماً، فيه إلى حلقه ويخلطون بالزيت الأدوية المقوية للعصب والمعفنة للحم والجلد، حتى إذا مضى عليه الحول قبضوا على «رأسه» فملخوا عصبه من جلده، ولفوه تحت رأسه، وأتوا به إلى صنمهم الذي هو على صورة المريخ. وقالوا: أيها الإله الشرير ذو الفتن والجوانح. قربنا إليك مايشبهك، فتقبل قرباننا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة الشريرة. وهم يزعمون أن الرأس تبقى فيه الحياة سبعة أيام ويكلمهم بعلم مايصيبهم تلك السنة من خير وشر»[١٨] في يقيني أن هذا الخبر عار من الصحة.

إلا أن ابن النديم يورد خبراً تاريخياً عندما سألهم المأمون (ألستم أصحاب الرأس في أيام والدي رحمه الله؟). وكان الجشهياري (محمد بن عبدوس المتوفي ٣٣١

هـ) قد روى في كتابه الوزراء «قصة الحرناني» الذي صلب سنة (١٨٤هـ) في الرقة وهو صاحب قصة الرأس قال: محمد بن حصين الأهوازي: كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة، وخلا بأنس بن أبي شيخ، ناحية ونحن نراه، فأدخل صاحب الشرطة رجلاً من أهل الذمة (الحرانية) وقال لجعفر: أحضرت الرجل الذي أمرت بإحضاره. فقال جعفر للرجل: ما اسمك؟ قال فلان بن فلان. قال: أنت الحرناني؟ قال: نعم. قال جعفر لصاحب الشرطة: خذه فإن أمير المؤمنين أمر بقتله وبصلبه. فأخذه صاحب الشرطة وقال له: (أنس بن أبي شيخ): أصلبه على أطول عمود بالرقة. فالتفت إليه الحرناني فقال: إنشاء الله على أطول عمود، وإن شاء الله على أقصره. ليس والله بعدي غيرك.

قال أحمد بن الحصين الأهوازي: فعجبنا من صرامته ومن تحقق ذلك القول، وذهب به وصلب وقتل»[١٩].

القربان للشمس:

يقربون للشمس المرأة التي قتلوا ولدها للمشتري.

القربان لعطارد:

يقربون إليه شاباً أسمراً كاتباً متأدباً. يأتون به بحيلة، ثم يخدرونه، ويقدمونه إلى صنم عطارد. ويقولون له: أيها الرب الظريف. أتيناك بشخص ظريف يطيعك فتقبله منا. ثم ينشر الشاب نصفين، ويربع ويجعل على أربع خشبات، ويضرم في كل خشبة النار حتى يحترق، ويحثون رماده في وجه التمثال.

القربان للزهرة:

يقربون لها عجوزاً شمطاء ماجنة، يقدمونها بين يدي تمثال الزهرة. ثم يأتون بالحطب فيجعلونه حول العجوز. ويضرمون فيه النار إلى أن تحترق فيحثون رمادها في وجه صنم الزهرة.

القربان للقمر:

يقربون إليه رجلاً آدم شديد السمرة. ويقولون: «يا أبرد الآلهة وخفيف الأجرام السماوية، تقبله منا[٢٠]» ثم يحرقونه ويحثون برماده وجه تمثال القمر.

نلاحظ أن القرابين التي رواها من يكنوّن العداء للحرانية هي قرابين بشرية. بينما القرابين التي ذكرها ثابت بن قرة الحراني وإخوان الصفا هي قرابين حيوانية من بقر وضأن وديوك وحمام. وإلى هذا أشار البيروني.

هل كان الحرانية يأكلون القربان؟.

اختلفت الأجوبة في هذه المسألة:

القول الأول: ذكره إخوان الصفا وهو أن الحرانية كانوا يأكلون القربان أو الأضحية وسائر لحوم ذبائحهم كيفما شاؤوا إلا لحوم ديوك نذر السر فإنها مخصصة للكهنة ومتناول السر(٢١).

القول الثاني: لايأكلون القربان بل يحرقونه. وهذا قول ابن العبري: «أنه قرأفي كتاب لثابت بن قرة. ذكر فيه مايصلح من الحيوان لتقريب الضحايا ذكر فيه أن أكثر قرابينهم من البقر والماعز وسائر ذوي الأربع إلا الجزور من الإبل. ثم قال:

«وقرابينهم الكثيرة لايأكلون منها بل يحرقونها»(٢٢).

القول الثالث: «يأكلون اللحم ويحرقون العظام وشحم الكلي»(٢٣). هذه رواية طاهر بن المطهر المقدسي وهذه الرواية تتفق ومايقوله مايكل جيمس: لقد التهى الإله زيوس بالناس فنحر له برومثيوس ثوراً. قسمه قسمين: احتفظ باللحم والأحشاء وأبقى في الجلد الكرش ولفائف من الشحم تغطي العظام. ثم سأل زيوس: أن يختار كومة فإذا به مع فضل علمه يختار مالاقيمة لهمن الدهن والعظام اللذين ظل الناس من بعد ذلك يحرقونها على المذابح للآلهة(٢٤).

لِمَ حرم الحرانية أكل إناث البقر والضأن؟ حرموها لأنها خلقت للحراثة والسحب وإنتاج الحليب(٢٥).

ولِمَ حرّم الحرانية ذبح إناث الماعز؟

جاء في رسائل إخوان الصفا: «أن من المعظمين عند الحرانية (فولس وأسر الرومي) لعل في اسم (فولوس) تصحيف، والاسم الصحيح (فونا) زوجة (فونوس) ربة الأرض والحقول، والتي كانت كاهنة لها قدرة على التنبؤ، وهي التي حرمت ذبح المعزى، وجعلتهن للقربان فقط. وأن لاتقربهن حامل ولاتأكل لحومهن»(٢٦).

عادات وتقاليد حرانية:

شعائر الزواج والطلاق:

كانت الأسرة الحرانية وحدة إنتاجية، مكتفية بذاتها من حيث إنتاج الطعام واللباس. وكانت المرأة تلعب دوراً هاماً، في اقتصاد الأسرة هذه الأهمية ورثتها حق توريث العقيدة الدينية للأبناء فالديانة مرتبطة بالأم.

كان الزواج محصوراً بين أبناء الطائفة، وإن كان يفضل الإبتعاد في النسب لاعتقادهم أن زواج الأقارب يورث، الوهن والبهق، وكثرة الشعر والإصابة بالصمم.

وكان الحراني الذي يتزوج من خارج الطائفة يعتبر خارجاً على الدين بصورة تلقائية[٢٧]. وكان زواج الأنثى لايتم إلا بولي وشهود. وكان زواجهم أحادياً فهم لا يقرون مبدأ تعدد الزوجات على عكس الصابئة المندائية الذين يقرون بل ويمارسون تعدد الزوجات[٢٨].

كانت الديانة الحرانية لاتحض على طلب الملذات فهم لايطأوون المرأة إلا من أجل الولد، ويعتزلون الطامث، ويحرمون الرضاع من الغير، خشية العقاب في الآخرة[٢٩].

أما من حيث الميراث فللمرأة كنصيب الذكر سواء بسواء، والمراة المطلقة لاترد، وعقد الثيب ينجس الكاهن الذي يقوم به، ولايسمح في الطلاق إلا في حالات محددة حين ثبوت الزنا والمرض المزمن والسرقة أو ترك الصلاة عن عمد.

اللباس والزينة:

اللباس من المفاخر الثقافية الملموسة في حياة الشعوب. فإذا كنت في أكبر مدن العالم مثل (نيويورك) تجد هناك تعدد الأعراق والأجناس ويمكنك أن تميز بسهولة الرجل (اليهودي) من لبسه اليرموكة على رأسه، ومن لحيته الكثة، وجدائل شعر رأسه، وسترته الطويلة قبل أن تسأله عن اسمه أو دينه.

ويمكنك التعرف على الرجل الهندي من طائفة (السيخ) من عمامته الملونة ولحيته الكثة وسوار يده اليمنى، والرجل المسلم من عمامته والكاهن اليسوعي من لباسه.

فاللباس إذن إحدى السمات الثقافية التي يتوارثها الأفراد جيلاً جيلاً.

كان الحرانية يلبسون الأقبية القطنية البيضاء ويمكنك معرفتهم من وفرات شعر

رؤوسهم المكشوفة وهم الذين أثاروا انتباه الخليفة المأمون عندما مرّ بحران وسألهم عن ديانتهم فقالوا: له نحن الحرنانية[٣٠]. وعندما هددهم المأمون، غيروا أزياءهم وقصوا شعورهم.

كان الحرانية يحرمون لبس اللون الأزرق على الرجال[٣١] كالمندائية اليوم ولباسهم المفضل الثياب القطنية البيضاء.

وكانت نساؤهم يلبسن الجلابيت الطويلة السوداء، المطرزة بخيوط حريرية ملونة ويتلثمن بالخمر الحريرية السوداء أو الملونة. ويتحلين بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

وكان الرجال يضعون في خناصر أيديهم خواتم من الفضة، عليها فصوص ملونة مزينة بصور. قال ابن النديم «وشاهدت بأصابعهم خواتم منقوشة على فصوصها تماثيل حيوانات تصلح بزعمهم لفنون شتى ـ فسألتهم عن مصدرها فزعموا له أنهم يصيبونها في قبور موتاهم القديمة فيتبركون بها»[٣٢].

طقوس الموت والدفن:

إن الأساطير التي تضمنتها (محاورة فيدون)، لأفلاطون قد تناولت أصل الروح وهبوطها ثم انتقالها من جسد إلى آخر. لقد وهبت تلك المحاورة، فيضاً من القوة في معاكسة فكرة الموت، واستمرار الحياة بعد الموت (بالتناسخ) ساعدت تلك الفكرة، في إثارة نشاط الناس وتنظيم فعاليتهم[٣٣].

قال هيرميروس: (النوم صنو الموت) هذه العبارة خلاصة عقيدة انحدرت من أحقاب بعيدة في تاريخ البشرية. وكان الحرانية يعتقدون بها وهي أن نفس الميت حتى بعد تقمصها لجسد آخر تظل قريبة من البيت الذي عاشت فيه.

كان الحرانية يقدمون الطعام لروح الميت لمدة، سبعة أسابيع ويسمون ذلك الطعام (اللوفاني). والغريب أن هذه الطقوس لازالت دارجة في مدن الجزيرة وعلى ضفاف الفرات، وتدعى تلك الصدقة (عشيات الميت) وهذه من رواسب ثقافة قديمة.

ومن عادة الحرانية الاستعداد، لتجنيز الميت قبل خروج الروح من الجسد، لأن الروح لاتطهر إذا لم تخرج من بدن طاهر، لذلك يجب عسل الميت ساعة احتضاره وإلا تعذّر تطهيره وحرّم مسه[٣٤].

يحمل نعش الميت عادة رجال أربعة انحدروا من عائلة حرانية، مؤمنة منذ ثلاثة ظهور، ثم يدفنون الجثة، ويكون وجه الميت باتجاه نجم القطب.

الانتحار محرّم في الديانة الحرانية لأن النفس لكي تتطهر لابد أن تعاني في هذه الحياة التي لاينقطع عذابها[٣٥].

والحرانية يحرمون البكاء واللطم على الوجه، لأن كل دمعة تصبح نهراً، من الدموع تعيق انتقال الروح إلى جسد آخر. لذا لايقيمون الحداد ولايلبسون الثياب السود.

- يكتب الحرانية على شواهد موتاهم أشعاراً جميلة (بالآرامية) وكانوا ينحتون لذوي المكانة منهم صور تماثيل متقنة الصنع.

المراجع:

١ ـ رسائل إخوان الصفاج ٤ ص ٢٩٨.
٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٨.
٣ ـ الفهرست ص ٣٨٦.
٤ ـ الصابئة المندائيون ص ٤٣ سليم برنجي ترجمة أحمد جابر دار المدى ١٩٩٧.
٥ ـ كتاب الآثار الباقية ص ٣٢٢ أبو الريحان البيروني نشر أدوارد سخاو، لندن ١٨٧٨.
٦ ـ تلبيس ابليس ص ٨٤ عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق محمد علي خير.
٧ ـ الصابئة المندائية ج ١ ص ١٠٠ الليدي دراور.
٨ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣.
٩ ـ تلبيس ابليس ص ٨٤.
١٠ ـ تاريخ الزمان ص ٣٤ ابن العبري.
١١ ـ الصابئة المندائيون ص ٣٥.
١٢ ـ الصابئة المندائية ص ١١٣ سليم برنجي.
١٣ ـ الصابئة قديماً وحديثاً ص ٤١ عبد الرزاق الحسيني مكتب الخانجي القاهرة ١٩٣١.
١٤ ـ دين الإنسان ص ٤٤ فراس السواح.
١٥ ـ تلبيس ابليس ص ٦٠.
١٦ ـ المصدر السابق ص ٦٠.
١٧ ـ المصدر السابق ص ٦١.
١٨ ـ المصدر السابق ص ٦١.
١٩ ـ كتاب الوزراء ص ١٩٠ محمد بن عبدوس الجشهياري تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
٢٠ ـ تلبيس ابليس ص ٦٢.
٢١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣٠٤.

٢٢ ـ مختصر تاريخ الدول ص ٣٨٤.
٢٣ ـ البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٣. طاهر بن المطهر المقدسي نشر كلمين هيوار باريس ١٩٠٣.
٢٤ ـ أساطير العالم القديم ص ٢٤١.
٢٥ ـ تاريخ الحكماء ص ٣١١ القفطي تحقيق جوليوس ليبرت ليبزيغ ١٩٠٣.
٢٦ ـ معجم الأساطير ص ١٠٠ ماكس شاييرو ترجمة حنا عبود دار الكندي دمشق ١٩٨٩.
٢٧ ـ الصابئة المندائية ج ١ ص ٣٩.
٢٨ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٩.
٢٩ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٠٠.
٣٠ ـ الفهرست ص ٣٨٦.
٣١ ـ الصابئة قديماً وحديثاً ص ٤٥ عبد الرزاق الحسيني مكتب الخانجي القاهرة ١٩٣١.
٣٢ ـ الفهرست ص ٣٨٦.
٣٣ ـ منبعا الأخلاق والدين ص ١٤٣ هنري برجيون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم القاهرة ١٩٧١.
٣٤ ـ الصابئة قديماً وحديثاً ص ٣٤.
٣٥ ـ منبعا الأخلاق والدين ص ٢٤٠.

الفصل الخامس
أعياد الحرانية واحتفالاتهم

أعياد الحرانية الشهرية والسنوية:

اقترنت أعياد الحرانية، بطقوس انحدرت إليهم من مرحلة تاريخية سابقة، عندما كانوا يعيشون على ماتجود به الطبيعة، عيشة كفاف، وفيها كانوا يلجأون إلى السحر والتنجيم للسيطرة على طرائدهم أو للتنبؤ بشروط مناخية جيدة[١].

وكانت أعياد الحرانية ذات نزعة سلالية خاصة بهم وهي مثل كل الأديان الوثنية، يوم كانت سلطة الآلهة، لاتتجاوز حدود المنطقة التي يحمونها[٢].

أعيادهم الشهرية:

١ ـ عيد الهلال من كل شهر. وفيه يتطهر الحراني، ويجلس في محراب صلاة العشاء، يسبح ويقدس إلى أن يمضي من الليل الثلث الأول. ثم يقوم ويجدد الوضوء، ويسبغ الطهارة، ويخرج من منزله يقف تحت نجم الجدي. ويمكث حتى زوال ثلثي الليل ويدعو أثناءها بالدعاء الأفلاطوني والتوسل الهرمسي والمناجاة الأرسطوية المذكورة في كتبهم، أي في كتاب أوقات الصلاة لثابت بن قرة الحراني، وإذا كان من أهل اليسار ذبح مايقدر عليه من محلل الحيوان. ثم يخرج إليهم من الحكمة بحسب مايوجبه الزمان ويسعه المكان إلى بقية يومهم[٣].

٢ ـ عيد ليلة البدر من كل شهر، إذا استكمل القمر استدارته، في تلك الليلة يفعل الحراني مافعله في العيد الأول.

٣ ـ عيد ليلة ٢٥ من الشهر، بينه وبين أول الشهر الجديد خمسة أيام يفعلون به مافعلوه في العيدين السابقين[٤].

كل هذه الأعياد تعكس عبادة القمر (سين).

أعيادهم السنوية:

١ ـ عيد الاعتدال الربيعي: في أول شهر نيسان، وهو رأس السنة عندهم وهو يوم

تزول الشمس في برج الحمل وفيه يستوي الليل والنهار ويعتدل الزمان ويطيب الهواء، ويهب النسيم ويذوب الثلج، وتسيل الأودية وتنبع العيون، وينبت العشب وتورق الأشجار، وتنتشر الحيوانات في المراعي، ويطيب عيش أهل البر.

كان حكماء الحرانية وكهنتهم يجمعون أولادهم بأحسن زينة، وأنظف طهور، ويتوجهون إلى الهياكل المقدسة يقربون لها الذبائح الطاهرة، ويضعون الموائد العامرة، بأصناف الطعام فإذا أكلوا وفرحوا في سماع الموسيقى، ثم يبدأون بتلاوة الحكمة ونشر العلم فيكون بذلك راحة النفس، وكمال الأنس[٥].

قد يقوم الحرانية في هذا اليوم بحركات تمثيلية غنائية لاسترضاء الآلهة مع تقديم القرابين الحيوانية والنباتية[٦].

يبدو أن هذا اليوم، عيد مقدس عند كافة الشعوب، قال البيروني: إنه عيد معروف عند اليونان باسم (نوء الربيع)، ومعروف عند الفرس (بعيد هيرمزروز). وعند مجوس بخارى (نيم سروه) ومعناه نصف السنة، وهو عند الخوارزمية عيد (ازدا كندخوار) أي يوم أكل الخبز المشحم)[٧] وعند العلوية في ١٧ نيسان ويسمى عيد الرابع من نيسان وعند الدروز عيد النبي شعيب في اليوم الخامس والعشرين من نيسان.

٢ ـ عيد المنقلب الصيفي: إذا نزلت الشمس أول السرطان (نوء الصيف) وفيه يشتد الحر ويشول العشب، ويدرك الحصاد. قال إخوان الصفا «وكانت حكماء الصابئة الحرانية تجتمع فيه إلى الهياكل المبنية لذلك اليوم، وهم يلبسون زي خاص يليق بطبيعة ذلك البرج، ويأكلون الثمار الرطبة واليابسة، فإذا قضوا ماعليهم انصرفوا»[٨].

أما البيروني فيسميه (عيد الكرموس) أي عيد التبريك وفيه يبدأ السموم بالهبوب لمدة واحد وخمسين يوماً[٩].

٣ ـ عيد الاعتدال الخريفي: إذا نزلت الشمس في أول دقيقة من برج الميزان، فيستوي الليل والنهار، ويدخل الخريف، ويطيب الهواء، وتهب رياح الشمال ويتغير الزمان، وتنقص المياه، وتجف الأنهار، وتقل مياه العيون وتجف أوراق النبات.

وفيه يدخل حكماء الحرانية الهيكل المبني لذلك اليوم ويكون طعامهم مايوافق ذلك اليوم والزمان، ومن ثم ينشر من العلم مالابد منه»[١٠]. ذكر البيروني أن هذا العيد يقع في حدود ٢٥ أيلول، وهو عيد الشمع في تل حران (تل الفدان) وفيه تشتد الرياح، وتجيء الغربان البقع في أكثر البلدان والعيد السابق له يدعونه عيد رؤوس مخرج الأهلة.

٤ ـ عيد المنقلب الشتوي: وفيه تبلغ الشمس آخر القوس وأول برج الجدي، ويتناهى طول الليل، ويقصر النهار، ويشتد البرد، ويتساقط ورق الشجر، ويموت النبات، وتحجر الحيوانات في أعماق الأرض، وكهوف الجبال من شدة البرد، وتكثر الأنداء وتهزل البهائم. قال إخوان الصفا: وكانت حكماء الصابئة تتخذ هذااليوم يوم حزن وكآبة وندم واستغفار، وكانوا يصومونه ولايفطرون(١١). ذكره البيروني وقال عنه: هوأول الصوم الأول، وفطره يوم الاجتماع الذي يتلوه، ويحرم فيه اللحم، والإفطار عندهم بالصدقة والمواساة. وقد حدده في يوم ١٧ كانون أول وفيه يمتنعون عن شرب الماء، بعد النوم وطلي النوره، والحجامة إلا من اهتاج به الدم، وذلك لبرودة الوقت، ورطوبته، وفيه ينهون عن تناول لحوم البقر، والأترج (البرتقال). وقال أصحاب النيرنجات، إن من عباقة هذا اليوم القيام من الرقاد على الجنب الأيمن، والتبخر في صبيحته باللبان قبل الكلام ويستحب استقبال المشرق مع طلوع الشمس اثني عشرة خطوة متوالية(١٢).

تعليق إخوان الصفا على أعياد الصابئة الحرانية. قالوا: إذا نظرت إلىأعياد الشريعة الإسلامية وجدتها موافقة لأعيادهم، فعيد الفطر وهو أعظم فرح بخروج الناس من شدة الصوم، وعيد الأضحى هو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج وإراقة الدم. فيكون فرحاً ممزوجاً، بغم وعيد غديرخم يوم، وصية الرسول من حجة الوداع وفرحه ممزوج بغم لأنه خالط ذلك نكث وغدر، وهو موافق للعيد الثالث الفلسفي المنقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف(١٣). هذا العيد (عيد غدير خم) يصادف يوم ١٨ من ذي الحجة تأخذ به الشيعة دون السنة وفي هذا اليوم قال رسول الله: أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعادي من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللهم بلغت(١٤) ثلاثاً.

يرى الشيعة أن هذا هو النص الجلي في إمامة علي عليه السلام. ذكره إخوان الصفا لإثارة الفرقة بين فرق الإسلام. وهم الحاقدون على الإسلام كله قالوا عن أعياد الحرانية: ماتواتر عليهم وأقاربهم من المصائب سبباً لاختفائهم، وانقطاع دولتهم إلى أن يأخذ الله بقيام أولهم وثانيهم وثالثهم، في الأوقات التي تنبغي لهم القيام فيها. إذا برزوا من كهفهم واستيقظوا من طول نومهم. فأعيادهم أيها الأخ هي أشخاص ناطقة، وأنفس فعّالة، تفعل بأذن باريها، مايوجبه إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال.

ـ اليوم الأول هو العيد الفاصل من أعيادنا، هو يوم خروج أول النائمين منا، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا.

ـ واليوم الثاني ـ فيه تصرم دولة أهل الجور وانقضاؤها وهو يوم فرح وسرور واستبشار.

ـ اليوم الثالث ـ هو يوم قيام ثالثنا، وهو مقاومة الباطل للحق، وكون الأمر على خلاف ماكان عليه.

ـ اليوم الرابع ـ يوم الحزن والكآبة، يوم رجوعنا إلى كهفنا (كهف التقية والاستتار) وكون حزنهم لغيبة سيدهم، كما غاب أبوهم سيد الناس، وماكان من الحزن والكآبة الواقعة بهم من بعده، وكون الأمر على مثل مانحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج والذهاب. ثم يروون حديثاً يموهون به على عامة المسلمين فيقولون: وكما قال صاحب الشريعة: إن الإسلام ظهر غريباً، وسيعود غريباً فيا طوبى بعد للغرباء(١٥).

إن حلمهم هذا، هو أداتهم الوهمية، التي يرجون بها استعادة مافقدوه.

قال فيورباخ: «كلما ازداد بؤس الإنسان اتسع حلمه فعظمة الحلم الديني هو عظمة البؤس الدنيوي»(١٦).

وسأعطي تفصيلاً لأعيادهم، كل شهر بأعياده وقرابينه، والموقع الذي يحتفلون به. هل أخفى إخوان الصفا مايتهم به الصابئة بما يقدمونه من قرابين بشرية، كي لايثيروا حفيظة العامة ضدهم؟. سوف أقوم بتحقيق ونشر هذه الأعياد كما وردت عند المؤرخين رغم احترامي لذكرى هذه الطائفة التي عاشت، وعانت، وأبدعت، ثم اختفت، وتلاشت من الوجود.

إحتفالاتهم على مدار السنة:

أعيادهم في شهر نيسان:

في هذا الشهر تبدأ، دورة الحياة الطبيعية، فينتشر الناس والحيوانات من بيوتهم الرطبة، ومن غرفهم الواطئة، من تلك الأزقة الوحلة الضيقة، التي تنقبض لمرآها الصدور، ومن تلك المعابد المظلمة، من وسط هذا كله يخرج أهل حران، لينعموا بالنور والضياء والشمس والهواء، ويستمرون، في اللهو ثلاثة أيام، من بداية الشهر في الحقول، فتقدم القرابين إلى آهلة الزهرة (بلتي)، ينحرون لها الذبائح، راجين منها العون، لتكون سنتهم سنة خير ويمن.

كان الحراني، يحمل في ذاته ثقافة سلالية، ورثها منذ أجيال موغلة في القدم، وهي من مخلفات مرحلة الصيد والقنص، وإن مضت تلك السنون وأهلها، فقد ظل الحرانية يحتفلون بها، وهم أهل زراعة واستقرار[١٧]. كانوا يخرجون في هذه الأيام الثلاثة إلى قرية ترعوز، (أي باب الزهرة)، وآثارها موجودة على بعد ١٥ كم جنوب شرق حران، ضمن الحدود السورية في قرية (باب الهوى)، لأن الزهرة هي آلهة الحب والهوى.

وفي اليوم الرابع من نيسان يعظم الغناء والرقص. ذكره البيروني. وربما قامت في هذا العيد بعض الاحتفالات الإباحية. وفي اليوم السادس منه، ينحرون فيه ثوراً لإله القمر (سين)، (في قرية (صلم سين) وهي قرية على نهر سلقيوس جنوب حران)، ويأكلون لحمه في آخر النهار. هذه رواية مأخوذة عن أبي سعيد وهب بن ابراهيم النصراني الحراني[١٨] أما البيروني فقد نقل خبراً عن الزيج الكامل، عن محمد بن عبد العزيز الهاشمي، الذي ذكر أن لهم عيداً في هذا اليوم، يقوم في دير كاذا[١٩] وهو عيد شارا أي القمر. وقد ذكر ابن النديم أن عيدكاذا يجري في ٢٠ نيسان وهو على مقربة من باب فندق الزيت في الجهة الشرقية، حيث يذبحون فيه، ويحرقون لزحل والمريخ وللقمر والأرواح الشريرة. ذكر إخوان الصفا هذا العيد بقولهم: وهم يعظمون آروس (الصواب أريس) - أي المريخ - وصنم الماء الذي سقط من الآلهة في أيام (اسطروينغوس) وخرج قاصداً إلى بلد الهند، فخرجوا في طلبه فلحقوه، وسألوه أن يرجع إليهم، فقال لهم: إني لا أدخل بعد هذا، بلد حران، ولكن أجيء إلى (كاذى)، ومعناها (هاهنا) وأتفقد مدينتكم. وهم يخرجون في يوم ٢٠ نيسان من كل سنة إلى دير كاذا متوقعين ورود ذلك الصنم، فانتظارهم الورود مثل انتظار اليهود للمسيح[٢٠] وقد سماه البيروني عيد الجمع لدير كاذى.

يتصور الحرانية آلهتهم كما يتصورها أسلافهم اليونان وهو أن الإله على شاكلة الإنسان، يجلب رضاه، ويتقي شره بالقرابين التي هي كالصلاة صلة بين الإنسان والإله[٢١].

أعيادهم في شهر أيار:

في أول الشهر يعملون قرباناً لسر الشمال، وفيه يشمون الورد، ويأكلون ويشربون خمراً، وفي اليوم الثاني يعملون عيداً لابن السلام، ونذوراً، ويملؤون موائدهم، من كل طرفة وفاكهة وحلواء، ويأكلون ويشربون[٢٢]. وهذا العيد سماه البيروني (عيد سلوغا)

رئيس الشياطين بينما سماه إخوان الصفا (عيد جرجاس رئيس الشياطين)، وفي اليوم الثالث، لهم عيد بيت بغدادي، وفي اليوم الرابع، عيد النذور، وهو عيد الورد عند السريان، والسبب فيه أن والدة يحيى عليه السلام، اتحفت بباكورة من الورد، وهذا العيد له أصل وثني عند شعوب أوروبا، حيث يحتفلون فيه بالخروج إلى المقابر، حاملين الزهور البيضاء وأغصان شجر الآس والغار، وكانت تحتفل فيه النحلة الأورفية، ثم نقلتها الفيثاغورية إلى الطائفة الحرانية. وفي ١٧ أيار لهم عيد خارج باب التبن، أو الباب الكبير في الجهة الشمالية وهو عيد (برخوشيا). أما الصابئة المندائية اليوم، ففي ١٨ أيار يقع عيدهم الصغير، وينتهي في ٢١ منه، وهذا العيد يقام على ذكرى الملاك جبرائيل، الذي جمد الأرض، بعد أن كانت سائلة(٢٣).

أعيادهم في شهر حزيران:

في اليوم ٧ حزيران ذكرى الإله تموز، وفيه نوح، وبكاء عند الصابئة الحرانية(٢٤). وهذا عيد، كانت تحتفل فيه الشعوب القديمة، كالسومريين حيث يقوم الكهنة والشعب بتمثيل قصة (أنانا) آلهة الحب، وزوجها الراعي دموزي(٢٥) وفي أيام المعتضد، جعل النيروز في ١١ حزيران، وصار أهل بغداد وبقية المدن، يحتفلون فيه برش الماء على بعضهم، ويحثون التراب، ويقومون ببعض الألعاب المسلية. وفي ١٧ حزيران يعيد الأقباط فيه، لأن الملاك ميخائيل يسقط في ماء النيل نقطة من الماء المخمر، فيرتفع في الحال منسوب النيل، ويحدث الفيضان(٢٦)، وفي يوم ٢٧ حزيران يعمل الحرانية تشميس السر للشمال، فيخرجون إلى الهواء الطلق، للاله الذي يطير النشاب. وهذا العيد كان مخصصاً عند اليونان للآلهة أرتميس أخت أبولو ربة القنص، وحامية الحيوانات البرية والنساء، ويرمز لها بالقوس والنشاب(٢٧) وفي هذا اليوم يمدون مائدة مقسمة إلى سبعة أقسام لآلهة الشمال، ويكون على رأسها الكاهن الأكبر (الكمر) فيوتر قوساً، ويجعل فيها نشابة من يوصين في رأسه نار، ويرمي (١٢) سهماً، ثم يمشي على رجليه ويديه، كما يمشي كلب الصيد، حتى يسترد تلك السهام، وهو يفصم، ويتفأل أن لاتنطفىء أعواد البوصين ليقبل العيد(٢٨) يسمى البيروني هذا العيد (عيد بيت القِصَاب) عند الحرانية. نسبة إلى قصب البوصين، وهو نبات يشبه البردي، عليه زغبر تشتعل النار فيه، كما تشتعل الشمع.

واحتفالات النيران كانت جزءاً من عبادة آلهة الشمس، وكانت المعتقدات الدينية إبان العصر الهلينستي ذات طابع فلكي(٢٩).

أعيادهم في شهر تموز:

في ١٥ تموز لهم عيد يسمى (عيد البوقات) ـ أي النساء الباكيات ـ وهو عيد الإله تموز وفيه تبكي السماء عليه، وفيه لاتأكل النساء شيئاً مطحوناً في رحا، بل يأكلن حنطة مبلولة وحمصاً وتمراً وزبيباً ومأأشبه ذلك[٣٠]. وفيه تُعيد النسوة تمثيل أسطورة الإله تموز البابلية، وهي قصة الفتى الراعي المملوء شباباً وعنفواناً، وهو من نسل الإله العظيم (أي الرب) وقد شاهدته عشتار ربة الحب، وآلهة الخصب والطبيعة، التي تسجد كوكب الزهرة، واعتبرت ربة القمر ورسمت بهلال، أو بقرني قمر جديد[٣١] ولقد شاهدت تموز، يرعى غنمه تحت (شجرة أريدو) المقدسة، التي اغطت بظلها الأرض، فشغفت به حباً واختارته زوجاً لهاوعاشا أمداً طويلاً في قصة حب ندية، لم تشهد السماء مثلها قط، حتى كان ذلك اليوم الذي هاجمه فيه خنزير بري، وهو يرعى غنمه، فقتله وهوى تموز، كما يهوي الموتى إلى الجحيم المظلم (أرالو)، فتوسطت عشتار عند أختها (ارشكجال) آلهة الجحيم، فأرسلت رسولها (نمتار)، فصب ماء الحياة على جسد تموز، فأحياه، وإذا النبات ينمو، وكثرت الحيوانات، وانطلق كل كائن حي، يبغي الإكثار من نسله، وعادت عشتار من جديد، على عرش الحب والربيع[٣٢]. هذا الأدب التمثيلي، لم ينتقل أثره إلى الفكر العربي، لنزعته الوثنية، قال ابن النديم: «إن لهم أدباً تمثيلياً كانوا يرددونه حكاية أسرارهم الخمسة»[٣٣] ولقد أثبت الدكتور علي عقلة عرسان في كتابه (الظواهر المسرحية عند العرب) قال: «مما لاشك فيه، أن لدى العرب طقوساً دينية كسواهم من الأمم، وكانوا يمارسوها عند آلهتهم، وخاصة ماوجد منها في الكعبة، وحولها قبل ظهور الإسلام»[٣٤]. وقد نقل خبراً عن كتاب الإكليل للهمداني عن (عشر) الالهة التي كان يعبدها اليمنيون، وانتقلت عبادتها إلى الشمال مع الفينيقيين، ويسمونها في السواحل الشامية (عشتروت)[٣٥]. وقد ذكرها اسحاق الانطاكي أنها كوكب العُزى، ويراد بها الزهرة، ويقال أن الأنباط اتخذوا لها معبداً في بصرى، عرف ب ـ (بيت ايل)، وقال بروكوبيوس إنها تشبه أفروديت، عبدت في الجنوب العربي، وقدّم له ملوك الحيرة، القرابين البشرية[٣٦]. وفي هذا العيد يستمر الحزن سبعة أيام، وفيه تضحي الكاهنات بشرفهن، بينما يضحي الرجال برجولتهم، ويخدمون كخصيان في المعبد، ثم تحول هذا البغاء إلى قص الشعر الرمزي عند الرجال والنساء[٣٧]. وكان عرب الجاهلية، يقصون شعورهم، ويخلطونها بالدقيق. وجاء في الحديث: (لاتقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة) والمعنى أنهم يرتدون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان فتسعى نساء بني دوس حول ذي

الخلصة، فترتج أعجازهن، وكان عباد ذي الخلصة وسواه، يرددون كلاماً معيناً، وهم يرقصون، وقد علق الدكتور جواد علي: «إن الجاهليين مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عبادتهم»[٣٨] إن بعض أسباب نشوء الأساطير، والطقوس الجنائزية وعمليات السحر فيما يبدو، لاتعود إلى تفسير الظواهر الطبيعية، تفسيراً قائماً على العقل، ولكنه نشأ استجابة لعواطف الجماعة القاهرة[٣٩]. هذا ماقاله (ليفي بريل) عالم الاجتماع الفرنسي.

وللخوارزمية في هذا اليوم (عيد نيمخب)، يستعملون فيه البخور ورائحة الأطعمة، لدفع غوائل الجن، وتضع فيه عزائم السحر، التي وضعها الحكماء كجالينوس وأمثاله، والعائدة مؤكدة إذا استعين بها بشيء من أمور الكواكب، والاختيارات بالأشكال المذكورة لذلك[٤٠].

وفي يوم ١٧ منه عيد (عرس الرعاة) عند الحرانية، وفيه يستدلون على أيام السنة من هبوب الرياح السبعة، فإن أكثر ظهورها في العشيات والأسحار، فإن كل في عشائه غيم في الآفاق، نرى برداً ومطراً في أول تشرين الثاني، وإن كان ذلك في نصف الليل، نرى المطر في نصف الشهر، ويسمونها أيام الرعاة، يستدلون بها على كل شهر من شهور السنة، من لطخ الغيم في السماء[٤١].

وفي ٢٥ تموز، ذكر سنان بن ثابت بن قرة الحراني: أن كهنة الحرانية يعمدون إلى نشر ثوب من الكتان بعد وزنه، ويترك إلى بعد منتصف الليل، ولمدة أربع ساعات يتعرض فيها للندى، ثم يوزن ثانية، فما زاد، فكل مثقال فيه يقابله يوم مطير في الشهر المنسوب، إلى ذلك الليل حسب الأيام السبعة السابقة، أما القبط من أهل مصر، فإنهم يضعون لوحاً في العراء أمام الكوكب، ويزرع فيه من الزرع، فإن كل مايزكو في تلك السنة، يكون أصفر اللون، ومالايصلح زرعه يبقى أخضراً، ذكر ذلك البيروني نقلاً عن كتاب الأنواء لسنان بن ثابت بن قرة[٤٢].

وفي يوم ٢٧ منه يعمل الرجال للجن والشياطين والآلهة، ويعملون طرموساً (خبز الملة عند الرعاة، كثيراً من دقيق وبطم وزبيب وجوز مقشر، كما يعمل الرعاة، ويذبحون تسعة خرفان ذكور، لهامان رئيس الأبالسة (وقرباناً لنمتريا) ويأخذ الرئيس من كل رجل درهمين، ويأكلون اللحم، ويشربون الخمر[٤٣] لعله نمتار رسول الآلهة إلى العالم السفلي. وهذا العيد يؤقت بطلوع كلب الجبار، وهو الشعرى اليمانية العبور. وفيه يتمثل الصابئة لقول ابقراط، فيمتنعون عن تناول الأدوية الحارة والفصد[٤٤].

أعيادهم في شهر آب:

في اليوم ٣ منه هو عيد صنم الزهرة (بلتي). وكان الورد والآس من مقدساتها، واليمامة والخروف وهي حسب رواية هوميروس ابنة زيوس من ديوني. ذكر هذا العيد البيروني دون أن يذكر مايفعلون فيه من طقوس ومايقدمونه من قرابين.

في اليوم ٨ منه، يعصرون خمراً حديثاً، للآلهة، ويسمونه بأسماء كثيرة مختلفة، وهذه الأعياد تعود إلى باخوس رب الخمرة، وهو متوحد مع ديونيسيوس اليوناني ابن زيوس، من سيملي رب الإنبات والخصب والخمرة، لأنه هو الذي أدخل الحضارة والزراعة وخصوصاً، زراعة الكرمة وكانت تقام على شرفه مهرجانات، تدعى (ديونيشا)، تقام في جو من القصف والمجون[٤٥].

وكانت تقدم له الخمرة المعصورة حديثاً. ولكن حسب رواية أبي سعيد وهب بن ابراهيم النصراني الحراني: «أنهم يضحون في هذا اليوم بطفل حديث الولادة للآلهة أولي الأصنام. قال: يذبح الصبي، ثم يسلق حتى يهتىء، فيؤخذ لحمه فيعجن بدقيق السميد وزعفران وسنبل وقرنفل وزيت، ويعمل منه أقراصاً صغاراً، مثل التين ويخبز في تنور جديد، ويكون لأهل السر للشمال لكل سنة، ولا تأكل منه امرأة، ولاعبد، ولا ابن أمة، ولامجنون، ولايطلع على ذبيحة هذا الطفل، وعمله إلا الثلاثة كمرين، ومابقي من عظامه، وأعضائه وغضاريفه وعروقه وأوراده تحرق قرباناً للآلهة»[٤٦] ولكن البيروني اعتبر هذه التهمة باطلة، وكاذبة. قال: حكى عنهم ابن سنكلا النصراني في كتابه الذي قصد فيه نقض نحلتهم، فحشاه بالكذب، والأباطيل، وحكى عنهم عبد المسيح بن اسحق الكندي في جوابه إلى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي، أنهم يعرفون بذبح الناس، ولكن ذلك لايمكنهم اليوم جهراً»[٤٧].

ترددت هذه التهمة كثيراً في كتب التاريخ العربي، والسرياني، وفي عام ٥٣٧ م اتهم الوثنيون في انطاكية، أنهم قدموا قرباناً بشرياً للإله ميثرا في دفنة (ميناء انطاكية)، فأعدم الكاهن الأكبر أناتولينوس في القسطنطينية[٤٨]. وهذه التهمة تنسب إلى كل من يعبد الزهرة، ذكر الراهب نيلوس (المتوفي ٣٩٠ م)، أسقف طور سينا، أن أعرابياً، حاول تقديم ابنه لآلهة الزهرة، في طقوس استعدوا لها طول الليل، فأنقذه رهبان الدير[٤٩]. وقد ذكر الشاعر السرياني ماراسحق الرهاوي (المتوفي ٥٢٢م): أنه في عام ٤٥٧م غزا أعراب الحيرة قريته بيت حورا، وكانوا يعبدون الكواكب، وكان فيهم مسيحيون، إلا أن ديانتهم أفسدت، ويقدم هؤلاء الأعراب أولادهم، قرباناً لآلهة

الزهرة[٥٠]. وقد روى اليعقوبي أن عبد المطلب نذر لربه، إن إعطاه عشرة أولاد، لينحرن أحدهم، وعندماا ولد له عبد الله، منعته قريش من تنفيذ وعده، خوفاً من أن تصبح تلك عرفاً، وفداه بذبح إبل كثيرة[٥١].

وكان الرسول محمد (ص) يفتخر، إنه ابن الذبيحين، جده اسماعيل ووالده عبد الله

وفي ٢٤ آب، لهم عيد يسمى (عيد الاغتسال)، يقيمونه، في حمة سروج، ويمكثون فيها حتى نهاية الشهر وهم يغتسلون[٥٢]. ومثل هذا العيد وفي نفس اليوم، يغتسل مجوس بخارى في المياه الجارية، وللمجوس في أصفهان عيد يسمى (أفريجكان) ومعناه صب الماء[٥٣].

إن للصابئه المندائة اليوم عيد ملك النور، ومدته ٣٦ ساعة يقع في اليوم ٩ من آب وفيه يمكث الصابئي في بيته مختزناً طعامه وماءه، ويطالع الكتاب المقدس (الكنز رابا)، ويقرأ منه سفر ملواشا ـ أي سفر البروج ـ لمعرفة البرج الذي ولد فيه الشخص، ويسهر طيلة الليل خشية أن يحتلم[٥٤].

أعيادهم في شهر أيلول:

في اليوم ٣ منه يسخنون ماء، يستحمون به سراً للشمال، لرئيس الجن (هامان) وهو الإله الأعظم، ويطرحون في الماء شيئاً من ملح الطرفاء، وصمغ الصنوبر وقصب وشطرج، ثم يغلونه، ويستحمون به مثل السحرة قبل طلوع الشمس، ويذبحون، ويأكلون في مجمعهم في حران، ويأخذ منهم الرئيس، درهمين لبيت المال عن كل رأس[٥٥].

وفي ١٤ أيلول، ذكر البيروني: أن لهم صوماً يسمى (صوم دفلنا). وهذا اليوم تحتفل به اليونان، بذكرى دافني، ابنة بنيوس العذراء، وهي حورية وبنيوس رب نهري، وعندما هربت دافني من حب أبولو، حولها والدها إلى شجرة الغار، التي غدت مقدسة عندهم[٥٦]. قال جيمس فريزر في كتابه الغصن الذهبي: بالنسبة للرجل البدائي، إن العالم بصفة عامة، حي ذو روح، وليست الأشجار والنباتات مستثناة من هذه القاعدة، ولذلك فهو يعاملها طبقاً لهذا الاعتقاد وكان يحرم قطع شجرة الغار، وشجرة الصنوبر[٥٧]. وفي بعض الأحيان كان يعتقد بأن أرواح الموتى حية في الأشجار، بمعنى أن الأسلاف قد تحولوا أشجاراً. وقد أشارت الكتابات العربية إلى اعتقادهم، بتحول الأرواح الشريرة إلى عشب تأكله البهائم.

وفي يوم ٢٥ أيلول يخرجون إلى الجبل، أو تل حران (تل الفدان غرب حران)، يشعلون فيه الشمع لذا يسمى عندهم بعيد الشمع[٥٨]. وفيه يقدمون قرابينهم إلى الشمس، وزحل، والزهرة، حيث يذبحون الخراف، والديوك، ومن عليه نذر لرب البخت، يأخذ ديكاً عتيقاً، ويشد في جناحه بوصياً، (عود بردي)، ويشعل طرفه فإن احترق كله قبل نذره.

وفي يومي ٢٧ - ٢٨ منه، يقدمون قرابين، ويحرقونها لسر الشمال، وهو الرب الأعظم الذي يعطيهم البخت.

أعيادهم في تشرين أول:

في اليوم الأول من تشرين أول (عيد الذهبانية)، وهي نبع عين البليخ، وتسمى اليوم (عين عروس) وتبعد ١٥ كم جنوب يحران، وفيها مزار ابراهيم الخليل، وكان الصابئة يسمونه (مصبتا)، أو عين التعميد، وينسبونه إلى آزر والد ابراهيم الخليل/ وبالقرب منه (نبع دافيء) كبريتي المياه، يقصده الناس للاستشفاء، حتى عام ١٩٩١ قبل جفاف عين العروس، والبئر معاً بعد استنزاف الآبار الارتوازية على الحدود السورية التركية، لمياههما وقد جفت في عام ١٩٨٠ عين الحصان، ثم جفت عين صلولع ١٩٨٣م، وحول عين العروس يروى إيليان الذي كان معاصراً لبرديصان أسطورة تقول أن هيرا استحمت في نبع نهر البليخ، بعد، وصالها مع زيوس، ويقال أن الهواء هناك عطر بصورة مستديمة، والسمك الأليف يتواثب زرافات وأسراباً، وعلى مقربة منه بحيرة صغيرة من السمك المقدس على المصدر الرئيسي لنهر البليخ تدعى (عين العروس)، أو عين الخليل. هذا ماذكره ج. ب. سيغال في كتابه الرها المدينة المقدسة. وهيرا زوجة زيوس. عُبدت كربة للزواج، وحامية للنساء ومن قرابينها ومقدساتها (الطاووس وشجرة الرمان).

وفي ١٥ منه يحرقون قرب العين، قرابينهم طعاماً للموتى. وفي هذا اليوم يشتري كل منهم، مما يجده من صنوف اللحم والفاكهة الرطبة (كالعنب)، ويطبخون أصناف الطبيخ والحلواء، ثم يحرق جميع ذلك بالليل، ليكون طعاماً للموتى، ويحرقون مع هذا الطعام عظم فخذ من جمل، ويحيل ذلك للكلب المؤذية حتى لاتنبح عى موتاهم، فيفزعون، كما يصبون لموتاهم على النار خمراً، ممزوجاً ليشربوه، ثم يأكلون الطعام المحروق[٥٩] وهذه الطقوس هي وليمة الموتى عند النحلة الأورفية، وهي لاتزال جارية عند الصابئة المندائية، في جنوب العراق، وتسمى هذه (الوليمة اللوفاني). وهذا العيد

يسمى عندهم (عيد البنجة)، أو (دهوه برونايا)، ومدته خمسة أيام، بين تشرين ثاني وكانون أول.

أعيادهم في شهر تشرين ثاني:

في ٧ منه (عيد بلتي)، صنم الزهرة، ذكره البيروني.

وفي ١٥ منه (عيد الأقسام)، ولعله عيد الأقسام السبعة، الذي ذكره ابن النديم، أنهم يعبدون فيه في ٢٧ حزيران، وفيه ينصبون مائدة، يجعلون عليها سبعة أقسام من الطعام، للسبعة آلهة الشمال[٦٠].

وفي ١٧ منه يخرجون إلى قرية بطنان (غرب الرها)، وفي ١٨ منه ينتقلون إلى بلدة سروج، حيث العيون الجارية ويلبسون الثياب الجديدة.

وفي ٢١ منه يصومون لرب البخت، ويفتون في كل ليلة الخبز اللين (الحنطة)، ويخلطونه بالشعير واللبان والآس الرطب، ويرشون عليه الزيت، ويخلطونه، ويبددونه في منازلهم، ويقولون: ياطراق البخت، هاكم خبزاً لكلالكم، وشعيراً لدوابكم، وزيتاً لسرجكم، وآساً لآكاليلكم، ادخلوا بسلام، واتركوا أجرة حسنة لنا ولأولادنا[٦١].

أعيادهم في شهر كانون أول:

في اليوم ٤ منه، ينصبون في محراب مجمعهم خيمة (لبلتي)، (صنم الزهرة)، ويعلقون عليها أصناف الفاكهة والرياحين، ويذبحون الذبائح من الطيور والحيوانات، ويستمرون على ذلك سبعة أيام[٦٢].

وفي يوم ٧ منه يلقي الرئيس خطاباً أمام صنم الزهرة، (ذكر ذلك البيروني).

وفي يوم ١٠ منه عيد (صنم المريخ)، يقربون له، وفي هذه الليلة، حسب رواية سنان بن ثابت الحراني، ينهون فيه عن مواظبة الجماع. وقد علق البيروني قائلاً: «ولا أدري كيف ذلك، إلا أن الباه في الخريف وأوائل الشتاء غير محمودة، بل ضارة هادة للبدن»[٦٣].

وفي يوم ٢٠ منه عيد الجن. والجن آلهة تحرس كل الكائنات، والأمكنة، وقيل إنهم يحضرون ولادة كل إنسان، لحراسته طيلة حياته[٦٤].

وفي يوم ٢١ منه بداية الصوم الأول، وفيه يحرمون أكل اللحم، كالصوم عند المسيحيين، والإفطار عندهم بالصدقة (زدقة بريخة) أي صدقة مباركة.

وفي ٣٠ منه يجلس الكاهن الأكبر (الكمر)، على منبر مرتفع، يصعد إليه تسع درجات، ويأخذ بيده قضيباً، من طرفاء، ويمر به سائرهم، فيضرب كل منهم ثلاثاً، أو خمساً أو سبعاً، ثم يخطب فيهم فيدعو فيها لجماعتهم بالبقاء وكثرة النسل، وبخراب كنيسة الروم، والسوق المعروفة، بسوق النساء، (وفي هذا الموضع كان معبدهم الذي أخذه منهم عياض بن غنم، وبنى فيه المسجد الجامع. وفي هذه المواضع، كانت أصنامهم، التي قلعها ملوك الروم لما تنصروا) وإقامة دين عوزي (الزهرة)، ثم ينزل عن المنبر، فيأكلون من الذبائح، ويشربون، ويأخذ الرئيس (ريش أمه) من كل رجل في هذا اليوم درهمين لبيت مالهم[٦٥].

في هذه الخطبة، يعرض الكمر (الكاهن الأكبر) المعاناة، التي لاقوها من البيزنطيين، حينما تنصروا، يقول اليعقوبي: (فلما قهرتهم الروم، وملكتهم بسطوة شديدة، وسلطان أبطلوا، ماكانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم في بدء أمورهم، على شرائع اليونانيين، حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم (اللسان اللاتيني)، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس ماكان من أمر دينهم وسنتهم[٦٦]. والحقيقة أنهم لم يتعرضوا للظلم، كما وصفه اليعقوبي: إذ لم تضمحل ديانتهم وسنتهم، وإن لاقوا بعض الاضطهاد، وهم بدعائهم بخراب المسجد الجامع، يدل على أن حالهم في الإسلام لم تتحسن عما كانت عليه في العهود السابقة.

أعيادهم في شهر كانون الثاني:

في اليوم الأول منه عيد رأس السنة الشمسية. وفي اليوم ٤ منه عيد رأس الجبل، وهو للزهرة، وفي اليوم ٨ منه صوم فطرة، وفي اليوم ١٢ منه دعوة حسوا (أي القداسة)، وفي ١٥ منه الإفطار من الصوم الذي بدأوه في ٨ منه. وفي يوم ٢٠ منه يصلون للمشتري (بيل حران)، وكان له هيكلاً بمثابة قلعة استولى عليها المسلمون بعد أن لم يبق أحد من أهل حران على دين الصابئة عام ٤٢٤هـ - /١٠٣٣م.

وفي يوم ٢٤ منه ميلاد (سين إله القمر)، يعملون فيه سراً للشمال، ويذبحون، ويحرقون ثمانين حيواناً، أو (٨٧ حيواناً) من ذوات الأربع والطير، ويأكلون منها، ويشربون الخمر، ويوقدون (الداذي) وهو قضبان الصنوبر للآلهة، والآلهات[٦٧]، لعله شجر السرباتو Sarbatu ذو الصمغة العطرية، وكانت حران مشهورة بإنتاج هذا الصمغ العطري، الذي ذكر بلينوس الكبير (٢٣ - ٧٩)[٦٨] وهذه المادة تفيد أيضاً في العلاج، وصناعة العطور[٦٩].

أعيادهم في شهر شباط:

في ٩ منه أول الصوم الأصغريصومون فيه سبعة أيام، ويفطرون في ١٦ منه وهذا الصوم مخصص للشمس الرب العظيم، رب الخير، وفيه لايأكلون شيئاً من اللحم، أو الزفر الحيواني ولايشربون الخمر ولايصلون إلا للشمال(٧٠). وفي اليوم ١٠ منه (عيد بيت العروس)، هكذا أسماه البيروني، ولعله في (عين العروس) نبع البليخ(٧١). وفي ٢٢ منه عيد فنطس (لعله منتو Mentu الرب رع على هيئة شمس مشرقة)(٧٢). ذكره البيروني دون ذكر ما تقدم فيه من طقوس.

وفي اليوم ٢٤ منه عيد شيخ الوقار زحل، وفي يوم ٢٥ عيد عروس علمايا. ذكره البيروني والصواب (مارادا علما) أي رب الكون باللغة السريانية.

أعيادهم في شهر آذار:

في اليوم ٧ منه، عيد الاله هرمس، ذكره البيروني. وهرمس هو رب البخت (هرميس بن زيوس) من الجنية (مايا) وهو رسول الآلهة رب الطرق والتجارة، والأبواب والحظ، وقائد الموتة وحامي الرعاة(٧٣).

وفي اليوم ٨ منه يصومون ثلاثين يوماً، ويفطرون فيه ٦ نيسان، وفيه يعيدون للرب الأعمى المريخ. وصومهم فيه، يوم تكون الشمس في برج الحوت، بعد ٣١ يوماً والشمس في برج الحمل، وربما صار الصوم ٢٩ يوماً، إذا كان هلال آذار ناقصاً(٧٤).

وفي يوم ٢٥ منه يعيدون لصنم الزهرة، وفي يوم ٢٦ منه عيد عرس السنة الحرانية، ويستمر فيه الاحتفال العلني لمدة (١٣) يوماً متواصلاً، وتقام حفلة جنائزية، تمازجها قهقهات صاخبة، من خلال القيام بتمثيلية، تمثل قيام الأموات وحفلة (ذبيحة الثور) وهي رمز لانتقال عنصر الحياة من الضحية إلى الإنسان. وفي يوم ٢٨ منه يخرجون إلى (قبة الآجر)، ويذبحون، ويحرقون ثوراً وكباشاً، وديوكاً كثيرة للمريخ. ثم تتوج هذه الأعراس في ٣٠ منه، يقيمون احتفالاً وابتهاجاً بعرس الآلهة، حاملين عسب التمر، يضعونها تحت وسائدهم في الليل باسم الآلهة السبعة، ومعها كسرة خبز وملح، وفيه يدفعون درهمين لبيت مالهم(٧٥).

قال البيروني معقباً على أعيادهم «هذه نبذة من أعيادهم على وجه الإخبار، دون التفحص عن أوائل أحوالها، وتفصيل أسبابها»(٧٦). وبدوري أقول هذه أعيادهم حاولت تفسيرها وتقريبها للأذهان قدر الإمكان والله أعلم.

المراجع:

١ ـ متبعاً الأخلاق والدين ص ١٨٣ برجسون ترجمة د. سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم القاهرة ١٩٦٠.
٢ ـ الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ص٢٨ سعد الخادم الألف كتاب ٤٨٨ القاهرة.
٣ ـ رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٢٦٤ دار صادر بيروت ١٩٥٨.
٤ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٥.
٥ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
٦ ـ سعد الخادم ص ٢٩.
٧ ـ الآثار الباقية ص ٢٤٧ البيروني. تحقيق ادوار سخاو. لندن ١٨٨٧.
٨ ـ رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٢٦٦.
٩ ـ الآثار الباقية ص ٣٢١.
١٠ ـ رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٢٦٧.
١١ ـ المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٧.
١٢ ـ الآثار الباقية ص ٢٤٩.
١٣ ـ رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٢٦٧.
١٤ ـ الآثار الباقية ص ٣٣٤.
١٥ ـ رسائل إخوان الصفا جت ٤ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
١٦ ـ الماركسية والدين ص ٢٣ فيصل دراج دار ابن خلدون.
١٧ ـ الأثنوس والتاريخ ص ٣ برومليه ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو ١٩٨٨.
١٨ ـ الفهرست ص ٣٨٦.
١٩ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.
٢٠ ـ رسال إخوان الصفا جـ ٤ ص ٣٠٦.
٢١ ـ أساطير العالم القديم. ص ٢٤١.

٢٢ ـ الفهرست ص ٣٨٧.
٢٣ ـ الصابئة قديماً وحديثاً ص ٥٨ عبد الرزاق الحسيني مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٣١.
٢٤ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.
٢٥ ـ أساطير العالم القديم ص ٨٦.
٢٦ ـ سعد الخادم ص ٤٣.
٢٨ ـ الفهرست ص ٣٨٧.
٢٩ ـ هرقل فوق جبل أوتيا ص ٩٢ سنيكا الكويت ١٩٨٤.
٣٠ ـ الفهرست ص ٣٨٧.
٣١ ـ معجم الأساطير ص ٥٢ ماكس شابيرو ترجمة حنا عبود دار الكندي ١٩٨٩.
٣٢ ـ أساطير من الشرق ص ٩٦ ـ ٩٧.
٣٣ ـ الفهرست ص ٣٩.
٣٤ ـ الظواهر المسرحية عند العرب ص ٣٠ د. علي عقلة عرسان ـ اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨٥.
٣٥ ـ المصدر السابق ص ٣٨.
٣٦ ـ المصدر السابق ص ٣٩.
٣٧ ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ١ ص ١٢٧ فيليب حتي نشر دار الثقافة بيروت ١٩٥٨.
٣٨ ـ علي عقلة عرسان ص ٤٥.
٣٩ الأساطير ص ٣ ـ ٤ د. أحمد كمال زكي المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٧.
٤٠ ـ الآثار الباقية ص ٢٣٧.
٤١ المصدر السابق ص ٢٧٠.
٤٢ ـ المصدر السابق ص ٢٦٩.
٤٣ ـ الفهرست ص ٣٩٠.
٤٤ ـ الآثار الباقية ص ٢٧٠.

٤٥ ـ معجم الأساطير ص ٨٧.
٤٦ ـ الفهرست ص ٣٨٧.
٤٧ ـ الآثار الباقية ص ٢٠٥.
٤٨ ـ أنطاكية القديمة ص ٣٣ جلانفيل داوين ترجمة ابراهيم نصحي القاهرة ١٩٦٧.
٤٩ ـ التاريخ العربي القديم ص ١٩٩ نيلسن وهومل ترجمة فؤاد حسنين دار النهضة القاهرة ١٩٥٨.
٥٠ ـ اللؤلؤ المنثور ص ٢٦٦.
٥١ ـ كتاب البلدان جـ ص ٢٥١ أحمد بن واضح اليعقوبي.
٥٢ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.
٥٣ ـ المصدر السابق ص ٢٤٨.
٥٤ ـ الصابئة قديماً وحديثاً ص ٥٦.
٥٥ ـ الفهرست ص ٣٨٨.
٥٦ ـ معجم الأساطير ص ٨٤.
٥٧ ـ تراث الإنسانية مج (٧) جـ ص ٣٢٥ القاهرة ١٩٦٧.
٥٨ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.
٥٩ ـ الفهرست ص ٣٨٨.
٦٠ ـ المصدر السابق ص ٣٨٧.
٦١ ـ المصدر السابق ص ٣٨٨.
٦٢ ـ المصدر السابق ص ٣٨٨.
٦٣ ـ الآثار الباقية ص ٢٤٨.
٦٤ ـ معجم الأساطير ص ١٠٥.
٦٥ ـ الفهرست ص ٣٨٨.
٦٦ ـ كتاب البلدان جـ ص ١٨٧.
٦٧ ـ الفهرست ص ٣٨٩.
٦٨ ـ تاريخ العالم القديم جـ٢ ص ٢٥٣.

٦٩ ـ كتاب الأيام الستة ص ١٠٠.
٧٠ ـ الفهرست ص ٣٨٩.
٧١ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.
٧٢ ـ معجم الأساطير ص ١٦٧.
٧٣ ـ أساطير العالم القديم ص ٤١.
٧٤ ـ الآثار الباقية ص ٣٢٢.
٧٥ ـ الفهرست ص ٣٨٩.
٧٦ ـ الآثار الباقية ص ٣١٩.

الباب الثاني

موروث الحرانية الفلسفي

الفصل الأول ـ حياة ثابت بن قرة الحراني، وأهم أحداث عصره.

الفصل الثاني ـ تراث الحرانية الفلسفي.

ـ علمهم الإلهي.

ـ علم ظواهر الطبيعة.

الفصل الأول
حياة ثابت بن قرة وأهم أحداث عصره

النشاة الأولى في حران:

كانت حران في مطلع القرن الثامن الميلادي، مجتمعاً متعدد الأعراق والديانات. تعيش في ظل ثقافة عربية إسلامية، ولم تعد داراً أو عشاً للوثنية، كما دعاها أهل الرُّها. بل أصبحت مركزاً لثقافات متعددة (العربية والآرامية والحرانية).

في تلك البيئة ولد ثابت بن قرة الحراني سنة (٢١١ هـ ٨٢٧م)، كان أجداده يقطنون قرية «بيت مارنيوس» إلى الشمال الغربي من حران على مجرى نهر ديصان (الوثاب).

ذكر كتاب الفهرست أنه: «ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرّايا بن إبراهيم بن كرّايا بن مارنيوس بن سلامانس»[١] وجاء في كتاب مختصر تاريخ الدول، قال ابن العبري: «أنه قرأكتاب ثابت عن تاريخ آبائه، وأسرته وأن نسبه كالتالي: «ثابت بن قرة بن مروان بن قيورا بن إبراهيم بن قيورا بن مارينون بن سلومون الصابيء الحراني»[٢].

فالخلاف بين ابن النديم وابن العبري قليل، فاسم كرّايا يعني الرجل بالسريانية، أو من كوريا Curia الوجيه في قريته، والمسؤول عن جمع الضرائب، والمشرف على المهن، والأشغال العامة، كانت هذه الوظيفة وراثية، في العصر البيزنطي، وكانت تسند إلى الوجهاء في القرية، وظلت هذه المهنة تمارس في العهد الأموي، وتسند إلى وجهاء أهل الذمة، الذين منهم الكتاب في الدواوين.

عندما مرَّ الخليفة المأمون بحران عام ٢١٨ هـ ٨٣٣م، واستغرب زي الحرانية وسألهم عن دينهم، فقالوا: نحن الحرانية. فقال لهم: أنتم (أصحاب الرأس) أيام والدي الرشيد رحمه الله، وطلب منهم انتحال دين من الأديان التي تقرها الدولة. فاسلم بعضهم، وتنصر البعض، وبقي (ثابت بن قرة) وآباؤه على دينهم. وكان ذلك مبعث افتخار ثابت بآبائه.

قال: «عندما اضطر الكثيرون، إلى أن ينقادوا للضلال، خوفاً من العذاب، احتمل آباؤنا ما احتملوه بعونه تعالى، ونجوا بيسالة ولم تتدنس، مدينة حران هذه المباركة»[٣].

كانت الحرف والمهن العلمية واليدوية، تنتقل بالوراثة، وبالتقليد مما جعل للأسرة دوراً هاماً في تنشئة الأطفال، وتكوين اتجاهاتهم الفكرية، قال العالم البولوني تاتاريينسكي: لاتعلم بلاتقليد، فبفضل أعمال التقليد تتجمع وتمتزج منجزات الأسلاف الأوائل، والأحفاد في وحدة متكاملة تامة»[٤].

كان للمعبد في حران دورٌ هامٌ في حياة الناس، ففيه تنتج بعض السلع المنزلية الهامة (كحياكة الثياب، وصناعة السيوف والموازين وصياغة الحلي).

وكان الكهنة يبيعون انتاجهم، وينالون أجورهم، وهذا الشكل من أشكال الإنتاج الآسيوي، قد توارثته كهنة حران.

كان الفرس القدماء يجبرون الأبناء على قبول مهنة الآباء، وحجتهم في ذلك أنه أكثر نجاعة في التعليم، وأكثر ثباتاً للطبقات الاجتماعية. أما الصابئة الحرانية فخيار المهنة متروك لاختيار الأسرة، بل وأحياناً للكهنة، عندما يحملون الصبي إلى المعبد، ويدخلونه إلى هيكل الصنائع، ليعرضوا عليه صور سائر الكواكب، فيتقدم الطفل لإختيار الصورة التي يرغب فيها، ويقدمون لتلك الصور القرابين، ويسلمون الصبي لمعلم الصنعة»[٥]. وقيل أن ثابت تقدم إلى صورة عطارد (الكاتب)، وبذلك تحدد مستقبله.

كانت الدراسة تتم إما داخل المعبد، وإما خارجه، حسب درجة التعليم.

الدراسة الإبتدائية:

تغيرت أهداف التعليم، وكذلك مناهجه، منذ العصر الأموي، حينما بدأ الحرانية، يقبلون في دواوين الدولة، ويسمح لهم بتعليم أبناء المسلمين. أصبحت اللغة العربية هي أداة التعليم في المراحل الأولى. وخرج التعليم من حجرات المعبد، وبذلك فقد سريته وخصوصيته، وصار أبناء الطائفة يتعلمون في المدارس مع أولاد المسلمين. يتعلمون اللغة، والشعر والنحو وحتى الفقه والحديث، وعلوم القرآن، كما كان أبو اسحق الصابيء (ابراهيم بن هلال) المتوفي ٣٨٥هـ، يتقن كل تلك العلوم، وكان شيخ المترسلين والكتاب في عصره.

مرحلة الدراسة العليا:

تبدأهذه الدراسة بعد الخامسة عشر من العمر، ويصبح التعليم داخل المعبد، ويتغير المنهاج، وتبدأ اللغتان السريانية واليونانية تُعلمان إلى جانب اللغة العربية، وبدأت دروس الفلسفة، والرياضيات، والفلك، والمنطق، والطب، تدرس بهذه اللغات الثلاث، وصارت كتب أرسطو، وأفلاطون، وبطليموس، وأقليدس وجالينوس هي الكتب المعتمدة.

واحتلت مادة (الترجمة والتفسير)، مكانها في المنهاج، يبدأ المعلم درسه بقراءة النص من السريانية أو اليونانية، (بعد التحقق من صحته، وعدم انتحاله) قراءة سليمة وبلغة واضحة، ثم يبدأ بشرح الكلمات الصعبة والغريبة لإزالة الصعوبة في فهم النص.

ثم ينتقل المعلم إلى مرحلة أخرى، هي شرح النص والتعليق عليه، بإشراك الطلاب ثم يكلف الطلاب، بنقل النص إلى اللغة العربية، في عمل جماعي مشترك، وكانوا ينقلون المعنى بحرية ثم يصوغونه بألفاظهم الخاصة، وإذا صعب عليهم مقطع أو فكرة في النص، كالصعوبة في إيجاد مرادفات بعض الكلمات، كان المعلم يسمح لهم بإبقائها بلغتها الأصلية، ريثما يجد (هو أو هم) مشتقاً يتناسب مع المعنى الجديد في اللغة العربية.

كانت عملية التذكر هي عماد التعليم وكان المعلمون يضعون الجوامع والملخصات لكي يحفظها الطلاب غيباً، ثم يقوم الطلاب بشروح أخرى، تحت إشراف المعلم ليعّود الطلاب حرية البحث والتفكير.

برز ثابت بن قرة بين أقرانه، وتميز بعقليته الموسوعية في الفلسفة، والرياضيات وتخرّج من المدرسة من أبناء العهد (بناي قيوما)، وصار له الحق في كشف الأسرار، وتفسير كتب أفلاطون وأرسطو واقليدس وبطليموس، وغيرهم ودعي (صدّيقياً)، وهم الحكماء الإلهيين، أو من كان حكيماً كاملاً في أجزاء علوم الحكمة[٦]. قال عنه ابن النديم في كتاب الفهرست: «وكان صديقياً»[٧]. ولكن المحقق أصلحها وجعلها «وكان صيرفياً» مقارناً إياه بصديقه ونظيره في الحكمة، حنين بن اسحق (توفي ٢٦٤ هـ).

ثابت بن قرة معلماً في حران:

تصدر ثابت للتدريس منذ عام (٢٣٠ هـ - ٨٤٥م)، وذاعت شهرته في ديار مضر. كانت الديانة الحرانية ديانة نجومية، تجل وتعظم كتب بطليموس الفلكية، وعمل لها

ثابت أرصاداً في حران وترجم بعضها، معتمداً على النصوص السريانية واليونانية. أما في الهندسة فالكتاب المعتمد، هو كتاب الأصول لاقليدس، وقام ثابت بشرحه، كما شرع بترجمته، منذ أيام شبابه، وتصدى للبرهنة على مسلمة أقليدس في الخطين المتوازيين. حاول ثابت تحويلها إلى نظرية، وكتب عنها رسالة بعنوان: «البرهان أن السطرين المستقيمين إذا ضبطا على أقل من متوازيين مستقيمين، التحما معاً»[٨].

ومن الكتب التي درّسها كتاب المخروطات لابولونيوس الصوري، وكتاب الإيقاع الهرموني لأرستكسينوس التارنتي (عاش حوالي ٣٥٠ ق. م)، لأن الموسيقى جزء من منهاج الرياضيات، ويبدو أنه درّسه باللغة السريانية، حسب رواية القفطي.

وفي الطب درَّس كتب جالينوس البرغامي (١٣٠ - ٢٠٢)، وكان يسميه (بالحكيم الفاضل). وكان يعتمد حكمة ابقراط في الطب، (إن حفظ الصحة هي دفع المرض بما يضاده).

وفي الفلسفة اتخذ ثابت الشاب موقفاً، لم ترض عنه كهنة الحرانية، فهو قد أعلى من الحرية العقلية، وإن الإنسان لايحتاج إلى الشرائع، لأن العقل وحده كاف، ولاحاجة للوحي الإلهي. من هنا بدأ الخلاف بينه وبين الكهنة الذين استعدوا عليه السلطة. ولكن كثيراً من الشباب كانوا معه، قال القفطي: «إنهم صاروا من المغالاة، ما لايكون بين غيرهم، وإن بعضهم يسعى في بعض، ويهيج عليه، إن وجد لذلك سبيلاً»[٩] زاد ضغط الحياة على ثابت، مما اضطره إلى الهرب إلى كفرتوثا، ومنها انتقل إلى الرقة.

ثابت معلماً في الرقة (٢٣٤ - ٢٥٠هـ).

في سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م) حدثت هزة أرضية في حران في أول حزيران، والناس نيام، فسقطت كثير من البيوت، وتصدع معبدهم، وسقط ثمانية عشر برجاً من سور المدينة، ومات منهم زهاء مائتي نسمة»[١٠].

وعلى أثر هذ الحادث الأليم، هاجر كثير من الحرانية إلى مدينة الرقة، ومارسوا فيها الحرف اليدوية، كصناعة الموازين، والاسطرلابات، وحياكة الثياب، وكان في المدينة جالية كبيرة من المسيحيين، وعلى رأسهم البطريرك مارديو نيسيوس التلمجري (٨١٨ - ٨٤٥)، وازدهرت الحالة العلمية.

وعندما تولى الحكم الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)، أصدر أمراً لأهل الذمة في سامراء، وبغداد، والرقة. أن لايتعلم أبناء أهل الذمة في مدارس المسلمين»[١١].

فأنشأ ثابت مدرسة لتعليم الفلسفة، والطب، والرياضيات، والفلك. وانتسب إلى مدرسته كثير من أبناء الطوائف الحرانية، والمسيحية، واليهودوقد حفظ لنا التاريخ ذكر بعضهم.

من الحرانية: سنان بن ثابت، وإبراهيم بن ثابت، ولدي ثابت بن قرة. وابن أخته محمد بن جابر بن سنان البتاني، وأولاد الصباح الحرانية: محمد وإبراهيم والحسين كانوا من حذاق المنجمين، وعلماء الهندسة. وقرة بن قميطا، وأبو روح الصابيء، وإبراهيم بن زهرون قريب ثابت بن قرة.

ومن المسيحيين: أسيد بن عيسى النصراني، الذي لحق بثابت في بغداد، ليعاونه في الترجمة. وأيوب بن قاسم الرقي، وعثمان بن عنبسة، اللذين صارا مترجمين مشهورين.

ومن اليهود: يهوذا بن يوسف، المعروف بابن أبي الثناء، الذي قال عنه المسعودي: تلميذ ثابت بن قرة الصابيء في الفلسفة، والطب في الرقة، من ديار مضر»[١٢].

وعندما ذاع صيت ثابت، طلبه أولاد موسى بن شاكر، ولحق بهم في بغداد حوالي سنة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م). قال البيروني: «صار ثابت بن قرة الحراني، صنيعة لهم في الترجمة ونقل الكتب، ويصلح لهم أرصادهم، ويشرح لهم الغامض من علم الحيل والهندسة».

ثابت في بغداد:

جاء ثابت إلى بغداد في طلب أولاد، موسى بن شاكر، وصار لهم معلماً في علم الحيل، ومترجماً في الهندسة والفلك والحساب.

كيف توصل ثابت إلى أولاد موسى بن شاكر؟

اختلف المؤرخون في ذلك. قال ابن النديم: إن محمد بن موسى استصحبه معه إلى بغداد، لما انصرف من بلد الروم، لأنه رآه فصيحاً، وقيل أنه قرأ عليه فتعلم في داره، فوجب حقه عليه، فوصله بالمعتضد: وأدخله في جملة المنجمين[١٣]. هذه الرواية لاصحة لها لأن محمد بن موسى بن شاكر توفي سنة ٢٥٩هـ ٨٧٣ قبل تولي المعتضد للخلافة.

وفي رواية لثابت بن سنان (المتوفي ٣٦٤هـ / ٩٧٥م)، أن الموفق لما غضب على المعتضد وحبسه في دار الوزير اسماعيل بن بلبل صار ثابت يدخل عليه ثلاث مرات

كل يوم ولما خرج المعتضد من الحبس سأل علامة بدر عن ثابت بن قرة»[١٤]. وصار ثابت أصل مكانة الصابئة في هذه البلاد، وبحضرة الخلفاء ومن بعده ثبتت أحوالهم، وعلت مراتبهم، وبرعوا»[١٥].

وفي رواية المسعودي: «حين وافى ثابت المعتضد في طلب وصيف الخادم سنة ٢٧٩هـ، أتى إلى بيت انطاكية (بحران)، وقدَّم القرابين فيه تعبيراً عن شكره»[١٦].

وعلى كل حال، وصل ثابت إلى بلاط المعتضد، وكان عالماً موسوعياً، ذا فصاحة، وكان مترجماً بارعاً، ومصنفاً للكتب بالعربية، والسريانية، وكان بهما على أتم مايرام»[١٧].

كان ثابت أحد منجمي المعتضد، الذين سألهم ذات يوم، عن حال السنة المقبلة، عن (سنة ٢٨٤هـ - ٨٩٦م) فقالوا كلهم: إن الأمطار ستهطل مدراراً، وتفيض الينابيع وتغرق بغداد، ويهلك خلق كثير. إلا ثابتاً فإنه خالفهم. قال ابن العبري: «غير أنه من فاتحة السنة، وحتى خاتمتها، لم تسقط على الأرض نقطة مطر. حتى أن الينابيع جفت فاعترى المنجمين الخزي والخجل»[١٨]. فسأله المعتضد أن يضع له كتاباً، في الأنواء فكان ماطلبه[١٩] مودعاً فيه خبرة الحرانية، وتجد له ملخصاً في كتاب الآثار الباقية للبيروني.

كان المعتضد، يسأل ثابت بحضور معلمه الفيلسوف النابه، أحمد بن الطيب السرخسي، وكانت أجوبة ثابت، تنال إعجاب الخليفة، وجلسائه، ثم جمع ثابت تلك الأجوبة، وصنع منها كتاباً مؤلفاً من جزئين، في نحو مائتي ورقة[٢٠].

كتب الحرانية كتباً في فضائل، ومكانة ثابت، غلفوها بهالة، تضم مجدهم الغابر المفقود، وعزهم الزائل، وحاضرهم المنكود، طبقاً للمثل الفرنسي القائل: «جروح اليوم تصرخ وجروح الأمس تغني».

إذا كان المعتضد قد أقطع ثابتاً ضياعاً جليلة، وكان يجلسه بين يديه، بحضرة الخاص والعام، بينما بدر غلام الأمير قائماً، والوزير إسماعيل بن بلبل وثابت جالسان، بين يدي الخليفة.

تلك من روايات أبي إسحق الصابيء (٣١٣ - ٣٨٤هـ)، صاحب المقولة المشهورة عندما شرع في كتابة تاريخ آل بويه: «أكاذيب ألفِّقُها، وأباطيل انمِّقُها». فمما قاله «إن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في بستان الفردوس، في دار الخليفة ببغداد. وكان المعتضد، قد اتكأ على يد ثابت، وهما يتماشيان. ثم سحب المعتضد يده من يد ثابت،

ففزع ثابت. فقال المعتضد، ياأبا الحسن، سهوت، ووضعت يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون. فإن العلماء يعلون ولايعلون»[٢١]. أين رقة المعتضد وحلمه؟ عندما قتل معلمه ونديمه أحمد بن الطيب سنة (٢٨٦هـ - ٩٠١م)، وهو الرجل الذي وصفه المسعودي بقوله: «كان المعتضد قليل الرحمة سفاكاً للدماء، شديد الرغبة في تمثيل من يقتله. وكان إذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه من غلمانه، يأمر أن تحفر له حفيرة بحضرته، ثم يدلي رأسه فيها، ويطمر التراب عليه، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب، ويداس التراب، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره»[٢٢]. وله في التعذيب فنون أهونها «كان يقام الرجل في أعلى القصر مجرداً، موثقاً، ويرمى بالنشاب حتى يموت. سأكتفي بهذا القدر من ذكر أفعاله المخيفة وقد اخترت أبسطها، وكان المسعودي يقول عنه لم يكن له رغبة إلا في النساء والبناء»[٢٣].

ألّف الحرانية تلك القصص على آثر ما ألمّ بهم من المحن، والمصائب ففي سنة (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) أستفتى الخليفة القاهر أبا سعيد الاسطخري، محتسب بغداد، في الصابئة الحرانية فأفتاه بقتلهم، لأنهم يعبدون الكواكب. فغرمهم الخليفة حتى جمعوا من بينهم مالاً كثيراً فكفّ عنهم[٢٤]. وفي سنة (٣٥٠ هـ - ٩٦١م) استصدر لهم أبو اسحق الصابيء منشوراً للحرانية المقيمين بحران والرقة من ديار مضر يأمر بصيانتهم وحراستهم»[٢٥] وبعدها اختفت هذه الأمة من التاريخ بإعلانهم الإسلام.

من أقوال ثابت التي تدل على رجاحة عقله، وحسن خلقه، قوله: ما أحسد هذه الأمة الإسلامية إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن البصري والثالث أبو عثمان الجاحظ»[٢٦].

نشاط ثابت العلمي والاجتماعي:

صنف ثابت بالعربية زهاء (١٥٠) كتاباً في مجالات متنوعة في الفلسفة، والرياضيات والفلك، وألف بالسريانية (١٦) كتاباً في الديانات، والعقائد، والموسيقا وكانت تلك المؤلفات في إتقانها، وفصاحتها، على مايرام[٢٧].

عمل ثابت بصحبة أولاد موسى بن شاكر، أصلح لهم النقل فنال إعجابهم. وكانت تربطه صداقة متينة مع محمد بن موسى، أهداه رسالة تتضمن «إجابة في أمر الزمان»[٢٨]. كما أصلح له ترجمة حنين بن اسحق للمجسطي، إصلاحاً قضى فيه حق إسحق عليه في الصحبة[٢٩].

كما كانت تربطه بالعالم الفلكي سند بن علي اليهودي، الذي أسلم على يد الخليفة المأمون. أرسل إليه سند بعض الأسئلة الهندسية فكتب له أجوبتها[٣٠].

واعترافاً بفضل الوزير الشكور اسماعيل بن بلبل ذو الخلق الرضي، والعقل الرصين، أهداه ثابت كتاباً في الشكل الملقب بالقطاع، وهو مقالة واحدة في الهندسة.

ـ وقد ردّ ثابت في أواخر أيامه في بغداد بالسريانية على الكندي في السكون بين حركتي الشريان، أومأ فيه بتغليط الكندي. ثم نقل الكتاب إلى العربية عيسى بن أسيد النصراني، وأرسله إلى إسحق بن حنين فاستحسنه إستحسانا عظيماً وكتب إسحق في آخر الكتاب بخط يده يقرظ، أبا الحسن ثابت ويدعو له بطول العمر، ويصفه بالفضل [٣١] . ولكن تلميذ الكندي الغيّور على سمعة أستاذه أحمد بن كرنيب ردّ على ثابت بكتاب آخر بعد وفاة ثابت (٢٨٨ هـ ـ ٩٠٢م)

كان ثابت من أصدقاء الشاعر والنديم علي بن يحيي المنجم فألف له كتاباً ضمنه أبواباً من علم الموسيقى والغناء العربي. وكان يشرح الأصول لعلم الألحان طبقاً للعلم الرياضي اليوناني. ذكر الأصبهاني في كتاب الأغاني «أن عبيد الله بن طاهر، كان يراسل المعتضد بالله، إذا استراب جواريه على ألسنتهن، ومع ذوي الأنس عنده، كعلي بن يحيى المنجم وأحمد بن الطيب وثابت بن قرة الحراني يذكر النغم، وتفصيل مجاريها، ومعانيها. حتى فهم ذلك فصنع لحناً، فجمع النغم العشر على التوالي، فجعلها على الصوت الأخير على التقديم، والتأخير في قول دريد بن الصمة:

يـالـيـتني فـيـهـا جـذع   أخـب فـيـهـا وأقـع

وضع صفة جيدة، منها ماسمعنا من المحسنين والمحسنات وفيها ما لم نسمعه مبلغاً نحو خمسين صوتاً وقد ذكرتها لك فيما صلح في أغاني الخلفاء»[٣٢].

وبمساعدة وتوجيه ثابت جمع يحيى بن علي المنجم (ت ٣٠٠ هـ ـ ٩١٢م) غناء عريب البرمكية من صحفها ودفاترها، وقدمه للخليفة المعتمد، فكانت ألف صوت[٣٣] كما ألف رسالة في الموسيقا، وكتاباً في النغم، أشار فيه إلى من جمع العلم بالصناعة، والعمل، وبين أصحاب الموسيقى من الفلاسفة القدماء، في عدد النغم[٣٤]. وقد نوه فيه بفضل ثابت بن قرة. وعندما توفي ثابت رثاه يحيى بن علي المنجم بقصيدة طويلة، أورد منها هذه الأبيات[٣٥]:

ألا كل شيء ماخلا الله مائت   ومن يغترب يرجى ومن مات فائت

نعينا العلوم الفلسفيات كلها   وخبا نورها إذ قيل قد مات ثابت

وأصبح أهلوها حيارى لفقده	وزال به ركن من العلم ثابت
ولما أتاه الموت لم يغن طبه	ولا ناطق مما حواه وصامت
عجبت لأرض غيبتك ولم يكن	ليثبت فيها مثلك الدهر ثابت
تهذبت حتى لم يكن لك مبغض	ولا لك لما اغتالك الموت شامت

عاش ثابت بن قرة الحراني سبعاً وسبعين سنة قمرية (٢١١ - ٢٨٨هـ). ومن الصفات التي نسبها إليه قومه الحرانية، القدرة على إحياء الموتى:

«قصة القصاب الذي مات بالسكة، وأعاد إليه ثابت الحياة بعد يوم من وفاته». وقال عنه ابن أبي أصيبعة: إنه لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا غيره من جميع أجزاء الفلسفة[٣٦]. بينما يرى سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل: «أن الغالب عليه الفلسفة دون الطب»[٣٧].

أولاد ثابت بن قرة:

سنان بن ثابت (توفي ٣٣١ هـ - ٩٤٣م):

ولد في الرقة وانتقل مع والده إلى بغداد، وصار طبيب الخليفة القاهر، الذي دعاه إلى الإسلام فهرب إلى خراسان، ثم عاد بعد وفاة الخليفة إلى بغداد، وأصبح طبيب الخليفة الراضي الذي دعاه بدوره إلى الإسلام، فأسلم سنان على يدي الخليفة وكتب له كتاباً شرح فيه مذهب صابئة حران.

دعاه الوزير بجكم التركي إلى واسط لمعالجته فأشفاه. وعاد إلى بغداد وكلفه الخليفة بامتحان أطباء بغداد، وكانوا حوالي ٨٦٠ طبيباً، وفوضه لوزير علي بن عيسى الجراح (توفي ٣٣٤ هـ - ٩٤١م) بالإشراف على طبابة السجون، وأهل السواد من كل الملل، بل وحتى الحيوانات، كانت تنال الرعاية الطبية، وكان العلاج يعطى مجاناً.

كتب ثابت بن قرة كتاباً خصه لابنه سنان لوحده «في الحث على تعلم الطب والحكمة»[٣٨]. عاش سنان وعمر طويلاً حتى أربى على التسعين.

ابراهيم بن سنان (٢٣٩ - ٢٨٦هـ):

كان شاباً مقدماً في علم الهندسة، لم يُر في زمانه شاباً أذكى منه، توفي في الأربعين من عمرهأثناء حياة والده. كان فاضلاً نبيهاً، ألف عدة كتب في أغراض المجسطي لبطليموس، وفسّر المقالة الأولى، من كتاب المخروطات لأبولونيوس

النجار[٣٩]، كتب له والده كتاباً بالسريانية في علم النجوم والهندسة قال القفطي «رأيته بخطه وعليه عبارة ترجمتها: «ماعمله ثابت للفتيان أبقاهما الله»[٤٠].

غاية القول: إذا كان الحرانيون قد زالوا قبل مطلع القرن الخامس الهجري. فما العوامل التي أسهمت في إضمحلالهم؟. الإجابة على هذا السؤال الشائك والمعقد، متعددة المناحي والجوانب.

قال بعضهم: إن الإسلام كدين سماوي، قدّم منظومة من الأفكار، عن الله والعالم والإنسان أكثر عمقاً من الفكر الحراني الوثني.

وقال آخرون: بل إن كل جماعة ذات ديانة سريّة، ومغلقة، قد كوّنوا نسقاً من المفاهيم والرموز عبر تاريخهم الطويل ارتبطت بطقوس، وشعائر، كانت تمارس في معابد السريّة. مما كان يزيد في ترابطهم، وعندما إنتقل الحرانية إلى بيئة مغايرة، ووسط لم يسمح لهم بممارسة تلك الطقوس، والشعائر، ضعفت الروابط بينهم واشتد الخلاف، مما سهل قبولهم للدين الإسلامي دون إكراه.

ورأى البعض: لم يتخل الحرانية عن عقيدتهم طوعاً، بل تحت الشعور بالدونية أمام المسلمين، لاسيما وأن الحرانية كانوا يتقلدون المناصب العليا في الدولة وفي الوقت نفسه، يدفعون الجزية علامة الصغار والدونية. هذا الشعور دفعهم لقبول الإسلام.

وفي ظني أن الحرانية هفت، بعد طول احتكاكهم وإطلاعهم على ديانات الشعوب الأخرى ففقدت عبادة النجوم، والتقرب إلى الشياطين سحرهما أمام جاذبية تعاليم الإسلام السمحة، وأدركوا أن الكواكب والنجوم كائنات لاعقل لها ولا تدبير. فآثروا الإسلام بعد أن سربوا موروثهم الوثني القديم وكيفوه بما يتفق والإسلام وأودعوه رسائل إخوان الصفا.

المراجع:

١ ـ تاريخ الحكماء للفقطي ص ١١٥ اعادت نشره دار المثنى بغداد.
٢ ـ تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨.
٣ ـ المصدر السابق ص ٤٩.
٤ ـ في علم النفس الاجتماعي ص ٧٧.
٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٤١.
٦ ـ تاريخ حكماء الإسلام ص ٢٠ ظهير الدين البيهقي تحقيق محمد كرد علي مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٩.
٧ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٣١.
٨ ـ تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨.
٩ ـ تاريخ الحكماء ص ١٢٣.
١٠ ـ تاريخ الزمان ص ٣٤.
١١ ـ المصدر السابق ص ٣٧.
١٢ ـ التنبيه والإشراف ص ٩٩ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
١٣ ـ الفهرست ص ٣٣١.
١٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٩٥ لابن أبي اصيبعة تحقيق د. نزار رضا دار الحياة بيروت ١٩٦١.
١٥ ـ الفهرست ص ٣٣١.
١٦ ـ مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٥.
١٧ ـ تاريخ الزمان لابن العبري ص. ٤٩
١٨ ـ المصدر السابق ص ٤٧.
١٩ ـ الآثار الباقية ص ٢٤١ لأبي الريحان البيروني تحقيق أدوار سخاو لندن ١٨٧٨ اعادت نشره حيدر أباد الدين.
٢٠ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.

٢١ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
٢٢ - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٢.
٢٣ - المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٣.
٢٤ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٨٥ آدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده - بيروت ١٩٦٧.
٢٥ - المصدر السابق ج ١ ص ٨٦.
٢٦ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٢.
٢٧ - تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨ - ٤٩.
٢٨ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١١٧.
٢٩ - المصدر السابق ص ١١٩.
٣٠ - المصدر السابق ص ١١٧.
٣١ - المصدر السابق ص ١١٦.
٣١ - كتاب الأغاني ج ٩ ص ٥٩ - ٦٠ لابي الفرج الأصفهاني طبعة تونس ١٩٣٦.
٣٣ - المصدر السابق ج ١٨ ص ١٧٦.
٣٤ - رسالة ابن المنم في الموسيقى ص ١٩٠ تحقيق د. يوسف شوقي دار الكتب القاهرة ١٩٧٦.
٣٥ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
٣٦ - المصدر السابق ص ٢٩٥.
٣٧ - طبقات الأطباء والحكماء ص ٧٥ لابن جلجل (سليمان بن حسان) تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩١٦.
٣٨ - تاريخ الحكماء ص ١٢٠.
٣٩ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
٤٠ - تاريخ الحكماء للفقطي ص ١٢٠.

الفصل الثاني
الفكر الفلسفي عند الحرانية

أولاً ـ فلسفة ماوراء الطبيعة، أو العلم الإلهي:

مدخل البحث:

كل فكر فلسفي هو بالضرورة فكر حضاري، يعبر عن روح عصره. والحرانية كفلسفة هي وليدة بيئة، وحصيلة تاريخ معين، وعقيدة، زال بعضها مع زوال المجتمع الذي أفرزها، وبعضها، بقيت أثاره ماثلة في الفكر الإسلامين حتى وقتنا الحاضر.

كانت العقيدة الحرانية خليطة أفكار علمية وبقايا أساطير وثنية، قيض الله لها ثابت ابن قرة الذي نقّحها، وأخرج للناس أثمن مافيها من فكر جوهري وطرح منها ماعفى عليه الزمن. ولكن محاولته تلك هي في نظري كانت مغامرة خطيرة، أسهمت في تلاشي العقيدة الحرانية. لأن أي مذهب ديني أو فلسفي، هو جزء من صميم الفكر العام للبشرية، وأن حركة الجدل والمثاقفة بين المذاهب في مختلف العصور، هي جزء لايتجزأمن عملية التفلسف ذاتها، شريطة أن يحافظ المذهب على تماسكه الداخلي، وأن لايقطع صلته بالحياة.

إن من يكتب تاريخ الفلسفة، لديه أهداف معينة، وتصور كيف يخرج كتابته للناس. لذا طرحت على نفسي السؤالين التاليين:

أولاً ـ هل تاريخ الفلسفة هو تاريخ عقول متميزة؟.. أخشى أن يؤدي هذا التساؤل إلى كتابة تاريخ الفلسفة، بأنه تاريخ عبقريات فردية، منعزلة وموجهة لتاريخ مجتمعها، في حين تاريخ الفكر الفلسفي ـ في نظري ـ هو حلقة في مسار التاريخ الحضاري العام، حتى وإن اقتصر البحث على مشكلات خاصة، أو مواضيع ذات طبيعة ضيقة النطاق.

ثانياً ـ لِمَ لم تكن شهرة ثابت الفلسفية كشهرة الكندي؟ علماً أن مكانة ثابت الفكرية كانت أعلى من مكانة الكندي في عصرهما؟ إن ارتباط ثابت بالعقيدة الحرانية، وبالفلسفة الفيثاغورية اللذين هما إنعكاس لفلسفة وثنية، لم يستسغها

الفكر العربي المسلم، مما أخمل فكر ثابت في مجال الفلسفة، وأبقى ذكره عالياً في الرياضيات والطب.

كان ثابت بن قرة الحراني ذا عقلية ممتازة، تركت طابعها الواضح في رسائل إخوان الصفا، وفي حلقات فكر المعتزلة، وعلى مفكرين أمثال أبي بكر الرازي، وأبي نصر الفارابي، وأبي الريحان البيروني، وأبي علي بن سينا وغيرهم.

كانت علاقة ثابت بالحرانية علاقة حميمة، فهو المعبِّر عن تطلعاتها مما، حدا بالباحثين إلى اعتبار أي نص يُعزى إلىالحرانية، هو نص لثابت حصراً. فالحرانية وثابت هما سيّان، كالماركسية وماركس في عصرنا.

قال أبو سليمان السجستاني (المتوفي ٣٧٠ هـ - ٩٨١م): «كان ثابت بن قرة من الصابئة، وله سوى براعته في علوم الأوائل، رأسمال كثير ورياسة عظيمة في الصابئة. وقد رأيت له عدة كتب مصنفة في مذهبهم، هي عمدتهم الآن. وقد بلغ من جلالة قدره، وعظم محله في العلم، أن جعل كالمتوسط بين يحيى النحوي وبرقلس... وقد اجتمعنا ليلة عند الملك، أبي جعفر بن بابويه في سجستان، فجرى حديث فلاسفة الإسلام. فقال الملك: ما وجدنا فيهم - على كثرتهم - من يقوم في أنفسنا مقام سقراط، أو أفلاطون، أو أرسطو طاليس.

فقيل له: ولا الكندي؟. قال: ولا الكندي، على غزارة علمه، وجودة استنباطه. رديء اللفظ، قليل الحلاوة، متوسط السيرة، كثير الغارة على حكمة الفلاسفة. إلا ثابت بن قرة فهو ألزم لقطب الفلسفة، وأشد اعتناقاً لهذا الفن. ثم جميع الناس يتقاربون بعدهما»[1].

في هذا النص قدر كبير من الصواب. وتقييم لفلسفة ومكانة ثابت.

- فهو المقدم على فلاسفة الإسلام في عصره.
- وهو المعبِّر عن العقيدة الحرانية.

قال أبو الفرج ابن العبري (المتوفي ١٢٨٦): لثابت بن قرة مصنفات في التعليمات الرياضية والطب والمنطق، وله تصانيف في السريانية، فيما يتعلق بمذهب الصابئة، في الرسوم والفروض والسنن، وتكفين الموتى ودفنهم، وفي الطهارة والنجاسة، وتقديم القرابين، ومايصلح من الحيوان للضحايا، وما لايصلح، وفي أوقات العبادات، وترتيب القراءة في الصلاة. وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء الإلهيين، في التوحيد وهي على غاية التقانة»[2].

إذا كانت معظم كتابات ثابت الفلسفية قد ضاعت، فإنها قد حفظت في رسائل إخوان الصفا، وفي كتابات محمد بن زكريا الرازي (المتوفي ٣١٣هـ - ٩٢٥م)، الذي قال عنه المسعودي: «طريقة محمد بن زكريا الرازي، هي رأي الفيثاغوريين في الفلسفة الأولى، وقد صنف كثيراً على مذاهبهم والانتصار لهم، ومنها كتابه المسمى القول في القدماء الخمسة، على مذاهب الحرانيين بعد سنة ٣١٠ هـ»[٣].

وقد أكد ذلك أحمد بن صاعد الأندلسي (المتوفي ٤٦٢ هـ - ١٠٧١م). عندما قال: «وقد صنّف جماعة من المتأخرين، على مذهب فيثاغورس، وأشياعه، وانتصر فيها للفلسفة الطبيعية الأولى القديمة، وممن صنف في ذلك، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وكان شديد الإنحراف عن أرسطو، وعائباً له، في مفارقته لمعلمه أفلاطون، وغيره. وكان يزعم أنه أفسد الفلسفة، وغيّر كثيراً من أصولها. ويعلل سبب انتصاره لفيثاغورس، وأفلاطون، لاستحسانه إعتقاد عوام الصابئة في التناسخ»[٤].

درس أبو زكريا الرازي الفلسفة في بغداد، على ثابت بن قرة، ومما أعجبه فيه، قدرته في استخدام الألفاظ التي تعبر عن المعاني، دون أن تكتنف عباراته، ماهو غامض أو شاذ.

ذكر الفيلسوف النابه الذكر نصير الدين الطوسي (التوفي ١٢٧٤) الحرانية قائلاً: «وقد نسب إليهم، بعض السلف، القول في قدم الباري، والهيولي، والمكان والزمان إلى الصابئة الحرانيين، وظنوا أن محمد بن زكريا الرازي، قد اقتبس مذهبهم منهم، (أي من كتب ثابت) وعمل فيه كتاباً موسوماً بالقول بالقدماء الخمسة»[٥].

وفي دراسة حديثة لرسائل الرازي الفلسفية، قال المستشرق بول كراوس (١٩٠٠ - ١٩٤٤): «ليس هناك فرق بين مذهب الرازي، والحرانية، إن الألفاظ المنسوبة إلى الرازي وفي القول المنسوب إلى ثابت بن قرة، والحرانيين، تتفق إتفاقاً تاماً»[٦].

كان ثابت هو الممثل الوحيد للفكر الحراني، وماكتب عن الحرانية في زمانه كان هو الباعث على تلك الكتابة كالقصة الخيالية، التي جرت بين سقراط والحرانيين[٧] والتي نسبت إلى الكندي.

كان أحمد بن الطيب السرخسي، صديق ثابت، وزميله في بلاط المعتضد، قال عن الحرانية: «إنه نظر في كتاب يقربه هؤلاء القوم، وهو مقالات لهرمس في التوحيد كتبها لابنه، على غاية من التقانة، لايجد الفيلسوف، إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها»[٨].

قصارى القول: إمتاز ثابت بعقلية تحليلية ممتازة، كتب بها عدة كتب ورسائل جمعت بين الاعتقاد بالكهانة، والفكر المنطقي، بإسلوب جلي واضح لاغموض فيه ونسب كل ذلك لأمته، مما حفظ ذكرهم في التاريخ.

فلسفة ماوراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا، فلسفة نظرية، اقتصرت على دراسة المبادىء الأولى للكون، لا على أنه أجزاء متفرقة، بل على أنه كل شامل»[٩].

وانطلق الحرانية، من أولى مراقي تلك الفلسفة من المقولة التالية: «من عرف نفسه تأله». وسمّوا علم الميتافيزيقا بالعلم الإلهي، أو علم الوجود والماهية، وميّزوا بين موضوعه الوجود المطلق، الذي لايمكنه البحث في الجسم مثلاً، لأن ذلك البحث، من اختصاص الفلسفة الطبيعية، واقتصروا في العلم الإلهي، على مبادىء الوجود أو العلل الأولى.

وكانت أولى مواضيع هذا العلم الإلهي، هي معرفة الله، جوهر الوجود، ثم انطلقوا في البحث عن ماهية النفس. من أين هبطت، قبل تعلقها بالجسد؟ والفحص عن معادها، بعد فراقها الجسد؟ وعن عالم الأرواح وعن دار القرار؟.

أهم أبحاث العلم الإلهي:

الباري تعالى وصفاته:

كان صابئة حران يعتقدون، أن الصانع المعبود، واحد وكثير في آن واحد، أما أنه واحد، ففي الذات، والأصل والأزل. وأما أنه كثير فلأنه يتكثر بالأشخاص، في رأي اعين، وهي المدبرات السبع، والأشخاص الأرضية الخيرة، العالمة، الفاضلة، فإنه يظهر بها ويتشخص ولا تبطل وحدته في ذاته»[١٠].

أصل هذه الفكرة موجود في مؤلفات الفيلسوف الأفلاطوني المحدث برقلس (٤١٢ - ٤٨٥)، الذي حدد الباري بالجوهر الفرد، الذي يتكشف في الكثرة، وأن الكثرة تسعى لتحقيق الوحدة فيه»[١١]. وأن الباري سبحانه، اصل هذا العالم الماثل أمامنا.

قال نجم الدين الكاتبي (المتوفي ٦٩٣ هـ - ١٢٩٢م) قالت الحرانية: «إن الباري لاشك أنه حي فاعل لهذا العالم المحسوس»[١٢]. ولابد من انتهاء الممكنات، إلى مؤثر واجب الوجود ولايجوز أن يكون حادثاً، وإلا اقتصر إلى محدث، فيلزم التسلسل، وهذا الحال المطلوب»[١٣].

كان ثابت ينزه الله عن العلم بالموجودات، ظناً منه أن هذا العلم يضيف إلى الله

الكثرة. فالله لايعلم إلا ذاته أولاً ودائماً «إن الله عقل العقل» متبعاً خطى أفلاطون (٢٠٤ - ٢٧٠) وإن لم يذكره صراحة.

أما إجابته على السؤال التالي: إن كان الله، خالقاً لكائنات عاقلة، فكيف يكون لها علم، ولا يكون للباري خالقها علم؟. ترى الحرانية أن الباري هو المدبر لهذا العالم بوساطة الكواكب، الصادرة عن العقل الفعّال. والله هو التام الحكمة، الذي لايلحقه، سهو ولا غفلة، والذي منه تفيض الحياة كفيض النور عن قرص الشمس، وهو العقل التام المحض، الذي يعرف الأشياء معرفة تامة.

هذه الفكرة، وردت عند أفلوطين في كتابه التاسوعات، ومؤداها: أنه يصدر عن الواحد أو الخير، العقل (النوس) كصدور الإشعاع عن قرص الشمس، ولما كان العقل عاقلاً ومعقولاً، أي يعقل نفسه، صدرت عنه النفس الكلية، وهي مبدأ الوحدة في الكون. فالنفس الكلية هي الحلقة المتوسطة، بين عالم المعقولات، والعالم المحسوس، الذي صدر عنها. كحرارة النار التي تفيض منها على ماحولها من الأجسام من التسخين والحرارة، وهي جوهرية النار المقومة لذاتها. وهكذا فإن وجود العالم، مرتهن ببقاء الباري تعالى، فمادام الفيض والجود، والعطاء متواتراً، متصلاً استمر وجود العالم، وإن الله لا يجوز عليه خبر موجب»[١٤].

هل أخرج الباري العالم دفعة واحدة، أم أبدعه على تدرج؟. أجابت الحرانية وثابت جواباً فيه تردد، فهو:

- إما أنه أبدع العالم دفعة واحدة، وأخرجه من العدم إلى الوجودعلى ماهو عليه.
- أو أنه أبدعه على تدرج، فأخرج الأشياء على ترتيب، على مر العصور والدهور، وهذا الرأي يتطابق مع ماقاله إبراهيم بن النظام السيّار في نظرية «الكمون».

شاعت كتب الحرانية العرفانية، منذ منتصف القرن الثالث الهجري. مثل كتاب العلل أو سر الخليقة، وكتاب الخواص، الذي نسبوهما إلى (بلنياس)، ولكن أبو بكر الرازي شك في تلك الكتب، وأرجعهما إلى زمن المأمون وإلى ثابت بن قرة الحراني رغم اقتباساته الكثيرة منهما، ومن كتاب سر الأسرار المنسوب إلى أرسطو»[١٥].

قال الرازي حول خلق العالم: أول المخلوقات نور روحاني خالص بسيط، وهو الهيولى صدر عن الباري تعالى، أو الأصل الذي تتقوم منه النفوس، وهي جواهر روحانية، نورانية، بسيطة صادرة، عن العالم العلوي، بالعقل والنور الفائض، من الباري

تعالى، نشأت النفوس، وتتبع النور ظل خلقت منه، النفوس الحيوانية خادمة للنفوس الناطقة[١٦].

ومن الكتب التي أشاعها الحرانية في مطلع القرن الرابع الهجري، كتاب (جماعة الفلاسفة)، تضمن معتقداتهم، مع روايات إغريقية، عن أصل العالم، وفيه أن الكون حيوان حي كبير، حركته من نفسه، لأنه مكّون من مبدأين:

أحدهما: مبدأ سامٍ، عاقل، حكيم، هو الباري تعالى.

والثاني: هو الهيولي المضطربة، رغم أن الباري نظمها ولكنها تمردت عليه، فخرج العالم مضطرباً، ناقصاً، طافحاً بالشر، رغم أن الباري سبحانه منزّه، عن خلق الشرور والقبائح.

أظن أن هذا الكتاب (جماعة الفلاسفة) هو من وضع ثابت بن قرة، وفيه رأي أفلوطين، وهو أن هذا العالم منوط، بالقضاء المبرم، والقدر المحتوم، اللذين هما موجبات أحكام النجوم.

كانت دعوة الحرانية، دعوة الإنسان المظلوم، الخانع لقدره، فهي لاتدعو لتحطيم القيود، بل لضبط سلوك الناس، عن طريق الحكمة، لأن مشاكل الإنسان، يمكن أن تحل بالإيمان وبالتقرب إلى الكواكب مدبرات هذا العالم. قال أفلوطين: «إن العالم كائن حي واحد، لهذا كانت الضرورة اللازمة تحتم أن يكون في تعاطف مع ذاته[١٧]. وإن الكواكب تعرف صلواتنا، لأنها تتصل بنا مباشرة على نحو ما، ولأن لها اتجاهات، تبعاً لعلاقات معينة، في الواقع، و كل عملية من عمليات السحر، تهدف إلى إقامة صلة مباشرة بين أشياء، تسلك نتيجة لتأثرات صادرة عن الكواكب التي هي متعاطفة معها»[١٨].

وأما عن تأثير الشمس «فإنها تحدث كل ماتحدثه بنفس الطريقة، التي تدفيء بها الأرض، وذلك بأن تنقل قدراً من النفس، بفضل النفس الغاذية المتكثرة التي توجد فيها.. وأما عن تأثير النجوم، فإن تأثيرها بنوع، من الإشعاع دون أن تتعمد ذلك، مكونة شكلاً واحداً، اتجاهات تتغير بتغير ذلك الشكل»[١٩].

إشكالات النفوس الكلية والجزئية:

ظهرت فكرة النفس، عند شعوب الشرق القديم، إما نتيجة خبرة الموت، أي عندما ماتغادر النفس، جسد الإنسان، وبفقد روحه، وإحساسه. أو نتيجة للأحلام التي يراها

الإنسان أثناء نومه. تساءل الحراني قديماً ما النفس؟. فأجابه الكهنة: إن النفس شبيهة، بالنفس والهواء فهي جسم لطيف، على غرار الأشباح، التي نراها في أحلامنا.

وعندما دخل الفكر الفيثاغوري إلى حران، على أثر فتوحات الاسكندر المكدوني لبلاد الشرق، أصبحت الطبيعة، كلها زاخرة بنفوس شبيهة، بما هو داخل نفسه. فالعالم مغمور بنفوس، هي كذرات الغبار المتحركة، التي نراها في عمود الضوء الداخل إلى المنازل، ولكن أرسطو انتقد تصوراتهم قائلاً: «إنها مجرد خرافة فيثاغورية، ونفى أن تكون النفس إنسجاماً للبدن[٢٠]. كان الفيثاغوريون يشبهون النفس بالإنسجام في أوتار الآلة، مع بعض الإختلاف فيالمعنى، وتلك الخاصية هي الإنسجام، فالنفس توجد أولاً، وبعدها يتم الإنسجام، وهي التي تأمر الجسم وتسوده وغالباً ماتقمعه[٢١].

كيف وفقت الحرانية بين عقيدتها والفلسفة الفيثاغورية؟. عندما أخذت الحرانية بتعاليم أفلوطين، واعتبرت أن النفس جوهر روحاني مجرد عن المادة، وهي خالدة، بعد انفصالها عن الجسد، ثم انتقالها إلى جسد آخر. هذه الأفكار حصلت نتيجة تطور وارتقاء الفكر البشري عند شعوب البحر الأبيض المتوسط. فكل فيلسوف. جاء بتصورات، مطابقة لمعطيات عصره.

قال هرقليطس: «إن النفس تتكون من أبخرة حارة ويابسة، وكلما كانت النار صافية، كانت النفس كاملة. فالنفوس اليابسة جداً هي خير النفوس وأصفاها، وعندما تتوقف شعلة النفس في الموت، فإن شعلة العقل، تنطفيء إلى غير رجعة»[٢٢].

وتابعه ديمقراطيس: «معتبراً أن النفس ذرة دقيقة، مصقولة، ومستديرة، يعني من نار وتوجد الذرات النارية، في كل الكون، كما تنتشر في أجزاء البدن، وهي تدخل وتخرج في الزفير والشهيق.

وقف أفلوطين ضد هذه التصورات المادية، وترسم حظى أفلاطون. قال «النفس هي مانسميه جوهراً، لايطرأ عليه استحالة، ولا فساد، فهي بالضرورة لافانية، وهي جنس من الطبيعة الإلهية ذاتها[٢٣]. إن أفلوطين رجع إلى التراث الكهنوتي الذي تعرف عليه لدى كهنة حران، ومنبج (هيرابوليس)، مما دعاه إلى القول: «كم من نفس كانت من قبل في أناس، لاتكف عن أن تضفي الخير عن الناس، فتنفعنا بأن تعرفنا النبوءات، وتعلمنا كل الأشياء»[٢٤].

وقف ثابت بن قرة الحراني ضد التصورات المادية عن النفس، متبعاً تصور أفلوطين،

الذي اعتبر العالم كله حي يتنفس، له نفس واحدة، وجسد واحد. هذه النفس الكلية، خلقها الباري حسب/ نسب رياضية، وموسيقية، وهي تمثل همزة الوصل بين المعقول والمحسوس، وهي مبدأ كل معرفة، والرموز الرياضية هي الوسيط بين المعقول والمحسوس، بين المثل والممثول، لأنها أزلية ليست خاضعة للتغير، وهي تتميز عن المثل، بأن الرموز الرياضية كثيرة متشابهة.

قالت الحرانية: إن أجزاء النفس الكلية، التي توجد في الأجرام السماوية، والنفس الإنسانية، تحرك بدن الإنسان، على نحو مايدير الملاح دفة السفينة. وإذا مات الإنسان، انتقلت نفسه إلى جسد آخر، حتى تتطهر من أدرانها، بالمعرفة الإلهية. والنفس عندهم، لاتزول بزوال الجسد، ولاتفنى بفنائه، فهي ليست كمال الجسد كما قال أرسطو. بل هي كما قال برقلس «إنها داركة لاتبيد وإنها جوهر، وليست بجسم، ولاتلحقها لواحق الجسم»(٢٥).

كيف هبطت النفس إلى الجسم؟. قال أفلوطين في إحدى تجلياته الروحية النادرة: «كثيراً ماأتيقظ لذاتي، تاركاً جسمي جانباً. وإذ أغيب، عن كل ماعداي. أرى في أعماق ذاتي، جمالاً بلغ أقصى حدود البهاء. عندئذ أتيقن، أنني أنتمي إلى مجال أرفع، فيكون فعلي أعلى درجات الحياة. وأتحد بالموجود الإلهي. وحين أصل إلى هذا العقل. أثبت عليه من فوق، كل الموجودات العقلية. وحينما أعود من معاينة العقل إلى الفكر الواعي. أتساءل: كيف يتم هذا الهبوط الحالي؟ وكيف يمكن أن ترد النفس إلى الأجسام، مادامت طبيعتها كما بدت لي، وإن كانت في جسم»(٢٦). أعاد أفلوطين لنا تصور هرمس الحكيم، بصورة أكثر جاذبية، وتكثيف للمعاني الفلسفية.

ولكن لِمَ هبطت النفس من عالم البهاء؟. يرى هيرقليطس أن هناك طريقان للنفس، الصعود إلى أعلى والهبوط إلى أسفل. لأن الشيء مع تغيره، يظل في سكون، وإن تكرار مجهود مطرد واحد، أمر ممل. من هنا كانت الراحة في الفرار أو الهبوط» (٢٧). وهبوط النفوس عند أنبادقليس: «قانون محتم علىالنفوس الخاطئة». وقد علل أفلوطين ذلك بقوله: «إن الحرية في الهبوط لاتتناقض مع الضرورة فالمرء لايتوجه إلى الأسوأ إلا كُرهاً. ولكن لما كان توجهه، بحركته الخاصة، ففي وسعنا أن نقول إنه، يتحمل عقوبة مااقترفه. ومادام الهبوط من المحل الأعلى يلبي عند وصوله حاجات موجود آخر. فإن المرء لايكون متجنياً، على نفسه، أو على الحقيقة حين يقول: «إن الله هو الذي أرسله»(٢٨).

أورد المرزوقي الأصفهاني عبارة لثابت بن قرة الحراني تقول: «إن النفس تفيض منها الحياة فيض النور. مترجحة بين النور والعقل، كالرجل الذي يسهو تارة، ويصحو تارة. وذلك أنها إذا نظرت، نحو الباري الذي هو عقل محض، عقلت وإذا نظرت نحو الهيولى التي هي جهل محض، غفلت، وسهت»[٢٩].

بينما أورد الإمام فخر الدين الرازي قولاً لثابت، ونسبه إلى ملته الحرانية: «قالت الحرانية: وأما النفس فإنه يفيض عنها الحياة. فيض النور عن القرص، لكنها جاهلة لاتعلم الأشياء، مالم تمارسها»[٣٠]. هذه الأقوال، والأفكار، هي ترجمة حرفيةلما جاء في كتاب التاسوعات لأفلوطين. الذي ينكر أن تكون المعرفة تذكر، كما قال أفلاطون قال أفلوطين: «ليس لنا أن ننسب الذاكرة إلى الله، ولا إلى الموجود، والعقل الذي لاينطوي على زمان وإن على أزل»[٣١].

ولكن، لِمَ لاتتذكر تلك النفوس أنها رأت الله؟. يجيب أفلوطين:

أولاً: ليس من الضروري أن تحتفظ ذاكرة المرء بكل مايراه. لأنه حين توجه النفس انتباهها إلى أشياء أخرى، لاتحتفظ بذكرى الإنطباعات السابقة.

وثانياً: ليس من الضروري أن تكون للمرء صورة كل الظروف العرضية لإدراك ما. فخلال عبورنا مكاناً، فلن نحتفظ عما نمر به، بأدنى ذاكرة، لأننا لم نفكر به خلال سيرنا. لأن التذكر يحتفظ بالذكرى بتعاقب الأزمنة[٣٢].

وثالثاً: إن هذه النفس، طالما هي متأثرة بجاذبية، عالمنا الأرضي لاتروي سوى كل مافعله، أو انفعل به الإنسان. فإذا ماتقدم الزمن، عادت إليها في ساعة الموت ذكريات «الحيوات السابقة». فإذا مافارقت هذا العالم، ثم عادت إلى جسم جديد، أمكنها أن تروي حوادث الحياة، الخارجة عن البدن، وحوادث الحياة التي غادرتها، وإن كانت تنسى، بمضي الزمن كثيراً من الحوادث التي مرت بها[٣٣].

قالت الحرانية: إن النفس من جوهر الباري وهي من نوره، وإن الجري وراء اللذات، يحول دون معرفة الأشياء الشريفة، وإذا فارقت النفس البدن، التذت لذة كبيرة، لهذا لايخشى الإنسان الفاضل الموت، كما فعل سقراط عندما شرب السم طوعاً واختياراً. ولأن النفس تتحرك نحو جسم آخر، دون روية كما يندفع الإنسان نحو الزواج، وإلى إتيان أعمال مجيدة، في بعض الأحيان[٣٤].

هل النفس الإنسانية قديمة أم محدثة؟. قال فخر الدين الرازي: «ذهبت الحرانية إلى أن النفس قديمة»[٣٥]. وكان المصدر الذي استقى منه فخر الدين الرازي كتاب زاد

المسافر لناصر الدين خسرو (المتوفي ١٠٨٨). قال: وأما ثابت بن قرة الحراني المترجم كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية، فإنه أتى على أن الأفلاك والكواكب، أحياء ناطقة، وذلك أنه قال: إن الإنسان ذو حياة ونطق. وهذه النفس حية ناطقة. وهذه مقدمة صادقة.

ثم قال: إن أجساد الأفلاك والنجوم، بغاية الشرف، واللطافة وفي نهاية الطهارة. وهذه مقدمة صادقة ثانية.

والنتيجة من هاتين المقدمتين، أن الأفلاك، والنجوم، أنفساً ناطقة، وأنها أحياء ناطقة، فهذا البرهان على أن الملائكة هم الأفلاك، والكواكب، وأن هذه أحياء ناطقة»[٣٦] وعنها صدرت النفوس الإنسانية المستقرة، منذ البدء في الكواكب، والتي تهبط إليها بتدبير الكواكب لتتحد بالأجساد عندما تصبح النطفة مهيّأة لذلك.

قال ثابت: النفوس الصالحة تسعد بعد الموت برجوعها إلى الكواكب، أما النفوس الشريرة، فإنها تتقمص الجسد الإنساني ثانية، أو أنها تمسخ بجسد حيواني. وحينما تعاني وتتطهر تصعد إلى الكواكب ثانية. قال ابن العبري إن ثابتاً قال: وهذه المدة قد تستمر تسعة آلاف دور»[٣٧] وأظن أن تراث الحرانية، هو الذي أوحى إلى أفلوطين قوله: «بعد وقت معلوم، تعود النفس إلى الحالة المحددة. الحيوات الدورية، لأن كل أمر في هذا العالم، منظم سواء في ذلك هبوط النفس، وصعودها، تتفق مع الحركة الدائرية للعالم، وترتسم أحوالها وحيواتها، ومشيآتها في علامات تظهر في الأشكال، التي تكنها الكواكب، والنفس لاتهبط دائماً بنفس المقدار، بل يزيد هبوطها تارة، وينقص تارة أخرى. حتى بالنسبة للنوع الآخر من الكائنات الحية»[٣٨].

يوم المعاد وبعث الأجساد:

في عقيدة الحرانية، الموت معبر نحو حياة أفضل، من هذه الحياة الفانية. وعلى الرجل الحكيم، أن يكون مستعداً لاستقبال الموت، بالرضا والتسليم، والقيامة عندهم، هي قيامة النفس، من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة. وهذه هي القيامة الصغرى، أما القيامة الكبرى، هي التي تشمل الجنس البشري كله.

قال الشهرستاني: قالت الحرانية: إن طبيعة الكل والأجرام، والكواكب، تحدث في كل إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كل (٣٦٤٢٥) سنة. زوجين من كل أجناس الحيوان، ذكراً وأنثى، من الإنسان وغيره، فيبقى ذلك النوع كل تلك المدة. ثم

إذا انقضى الدور، بتمامه انقضت الأنواع، فيبدىء دور آخر كذلك أبد الدهر، هذه هي القيامة الموعودة. على لسان الأنبياء عليهم السلام، فلا دار سوى هذه الدار، والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى لاعمل فيها»[٣٩].

وقال إخوان الصفا معبرين عن عقيدة الحرانية: «المنتظرون لأمر القيامة، طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى (أصحاب الديانات السماوية):

الذين ينتظرون حدوثها في الزمان المستقبل، عند خراب السماوات والأرض. ولا يتصورون حقيقة القيامة، إلا إعادة هذه الأجساد برمتها، ثم يحشرون ويجازون بماعملوا من قبل، فإن عملوا خيراً دخلوا الجنة، التي يتصورونها أموراً محسوسة، بساتين وأشجار، وحور وغلمان، على مثال نعيم الدنيا. وإن عملوا شراً، دخلوا جهنم، التي يظنون أنها خندق عميق مملوء نيراناً مستعرة، يرمى فيها البشر، وكلما نضجت جلودهم، أعاد الباري إليها الرطوبة، ثم كبَّهم من جديد فيها.

الطائفة الثانية (الحرانية):

وهؤلاء ينتظرون القيامة كشفاً وبياناً، لإدراكهم الأمور العقلية، وحقيقة الموت، أنه ترك النفس لاستعمال الجسد. والقيامة عندهم، هي يقظة النفوس الجاهلة، وهم لاينتظرون بعث الأجساد، ولايأملون نشرها[٤٠].

قال الشهرستاني «إنما أصل التناسخ والحلول، نشأ من هؤلاء القوم، وإن التناسخ أن تتكر الأكوار والأدوار إلى مالانهاية، ويحدث في كل دور ماحدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى لاعمل فيها. وحياتنا الحاضرة، إنما هي أجزية على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، فالراحة، والسرور، هي جزاء أعمال البر، التي سلفت منافي الأدوار الماضية. وكذلك الضنك والحزن، التي نعاني منها اليوم هي جزاء أعمال الفجور، التي سبقت منا. أما الحلول فهو التشخيص، ربما يكون ذلك بحلول الإلهي في ذات الإنسان. وربما يكون بحلول جزء من الإلهي على قدر استعداد مزاج الشخص»[٤١]. هذه هي أصل فكرة حلول الله في بعض الأشخاص.

أما تفسير الحرانية للجنة، والنار، فهو تفسير رمزي. فالجنة هي سعادة النفوس الصالحة، عندما نتخرج بالآداب، والنظر في العلوم الإلهية، وكتب الحكماء القدماء، فتصعد نفس الرجل الصالح شيئاً فشيئاً إلى عالم المعقولات، وتتحد بالباري سبحانه عن طريق الوجد، وفي هذه الحالة، تضع النفس يدها على جزئها الحقيقي، الذي هو

الوحدة المطلقة، والخير المحض، وتسعد برؤية الله، وتأوي تلك النفوس إلى قناديل معلقة تحت العرش.

وأما جهنم فلا وجود لها إلا أن تظل النفس الشريرة تهيم، تحت فلك القمر تتخطفها الجن والشياطين، وتمنعها من معرفة الحقيقة، واستعمالها الخيرورة»(٤٢).

الأخلاق عند الحرانية:

غاية الأخلاق عندهم تطهير النفس الإنسانية، لكي يتوافق الفرد مع مجتمعه، ويعيش بسعادة في دنياه. وقد صنّف ثابت كتاباً بيّن فيه الطريق لاكتساب الفضيلة(٤٣). لأن الباري سبحانه هو مبدأ الحياة وغايتها، وإن سعادتنا لاتتم إلا برجوعنا إليه، وإن لكل فرد منا عقل يميز بين القبيح والجميل.

كانت الحرانية، تعتقد أن للكتب الإلهية تأويلات خفية باطنة هي المعاني المعقولة وأحكام ظاهرة جلية، فيها صلاح دنينا. فمن وفق لفهم الكتب الإلهية، وأرشد إلى معرفة أسرارها واجتهد بالعمل والسنة الحسنة، واتبع السيرة العادلة، وصلحت نفسه، إذا فارقت الجسد، ارتفعت إلى رتبة الملائكة.

كان الحرانية الذين هم إخوان الصفا، يطمحون من أجل خلاص أنفسهم، من محن الدنيا وشقاوتها بإتباع تعاليم فيثاغورس، الذي أعطى كل ذي حق حقه. قال إخوان الصفاإن الموجودات، بحسب طبيعة العدد، وهذا هو مذهب فيثاغورس، الذي كان رجلاً حكيماً موحداً من أهل حران، شديد العناية بالنظر في علم العدد، والبحث عن خواصه ومراتبه ونظامه(٤٤). والإطلاع على أسرار العدد، يؤدي إلى معرفة الحكمة الطبيعية والعيش فيها يؤدي إلى سعادة الإنسان.

لم تكن الحرانية مذهباً يدعو إلى اعتزال الحياة، إنهم كانوا يحثون الناس على الإجتهاد، وفي اتخاذ الصنائع، والتجارات، من أجل حياتهم المعيشية، والإلتزام بفضائل النفس الأربع، كل لايلحق المرء مضرة، كفساد العقل ورداءة الذهن، وأما الفقر والخمول وسائر الأشياء الخارجية، فليست عندهم بقادحة في السعادة(٤٥).

إن الزهد في الحياة والتمرس بالفضائل الأربع (كالحكمة والشجاعة والعدالة والعفة) كافية لكي تتمكن النفس اليقظة من غفلة الجهالة، والتحرر من أسر الطبيعة، والخروج من هاوية عالم الكون والفساد إلى فسحة عالم الأرواح، والمكث هناك فرحاً مسروراً مخلداً»(٤٦).

كيف يحصل المرء على الخلاص الإنساني؟

قسم الحرانية الأشياء الموجودة في عالمنا إلى قسمين:

١ ـ أشياء ليست موجودة باختيارنا وفعلنا، ونتوصل إليها بالتوسل الإلهي.

٢ ـ وأشياء موجودة باختيارنا وفعلنا، وهذه نتوصل إليها بالفصائل النفسية، وبالأخلاق الحميدة.

يعيش الإنسان ويمارس أفعاله، تبعاً لميوله الباطنة، ووفقاً للعدالة التي تسود الموجودات، وما من أحد يفلت من العقوبة، التي ينبغي عليه تحملها نتيجة لسلوكه الجائر، وقضاء الله لايرد. و قبل أن يتطهر الإنسان من إثمه، وينال عقوبته، عليه أن يظل مدفوعاً بحركة مضطربة، ويهيم في كل مكان، حتى يهبط في المكان الذي أعد له، ويستسلم لمصير لا سلطان عليه، قال أفلوطين: «ويحدد القانون الإلهي، مدى العقاب وزمنه، فإذا ماانتهى العقاب، أمكنه أن يترك مكان الجزاء، تبعاً لما يقضي به الإنسجام الذي يسود كل الأشياء»(٤٧). فإذا خلصت النفس من كل جسم، فإن موضعها يكون حيث يكون الجوهر والوجود والألوهية، فهي في الله، مع الجوهر والوجود(٤٨).

ما الفرق بين واضع الشريعة (النبي) والحكيم الإلهي؟.

الدين في لغة العرب، معناه الطاعة من جماعة لرئيس. ولما كانت الطاعة تقتضي الأوامر والنواهي، والأحكام والحدود سميت هذه كلها شريعة. وأحكامها على وجهين: ظاهر هو العمل بالجوارح. وباطن هو الإعتقاد بالضمائر. وهذا هو الأصل عند الحرانية، وإخوان الصفا معهم.

كانوا يعتقدون: أن جميع أديان الشعوب واحدة، لأن العقل يسود فيها، والخلاف بين الديانات هو فقط في تأويل النصوص، وإقامة الطقوس، مع قولهم بتناسخ الأرواح»(٤٩) وإن اختلاف الشرائع ليس بضار، لأن الدين هو طاعة وانقياد للباري سبحانه، وماشرائع الأنبياء وسننهم إلا بحسب أهل كل زمان، مثل شريعة نوح وابراهيم وموسى، وشريعة المسيح، وشريعة محمد في أخر الزمان، فهؤلاء كلهم دينهم واحد، وإم اختلفت شرائعهم، وإن الذين أنكروا نسخ الشرائع لم يعرفوا الفرق بين الدين والشريعة(٥٠).

ماسبب اختلاف الشرائع إذن؟ عللّوا ذلك الاختلاف في اختلاف الألفاظ، بين قرّاء النصوص، واختلاف المعاني، بين المفسرين والمترجمين، واختلاف أسرار الدين، وحقائق معانيه المختلفة، بين الأئمة والفقهاء، والكهنة الربانيون.

- من هو النبي عند الحرانية؟ النبوة أعلى رتبة ينتهي إليها البشر، ينالها الإنسان، بصفاء جوهر نفسه، في قبول الوحيىما يدرك من المعارف الحقيقية بالقوة الناطقة.

قالوا: إن نفوس الأنبياء مهيأة لصفاء جوهرها، على تقبل الوحي من النفس الكلية، بما في الكتب الإلهية، التي فيها عجائب العلوم الخفية، وما وضعت من الشرائع العلمية النافعة لكل الناس، فيستنقدوا بها نفوساً كثيرة، غريقة في بحر الهيولى، وأسر الطبيعة مثل نفوس المخصصين من الحكماء (الصديقين) الذين بنوا هياكل حكيمة، ونصبوا طلسمات عجيبة، مثل نفوس الكهنة المخبرة، بالكائنات قبل كونها بدلائل فلكية»(٥١).

ما الفرق بين النبي والحكيم الإلهي؟.

فرق إخوان الصفا بينهم بما يلي:

- النبي أو واضع الشريعة، لاينسب إلى نفسه شيئاً، مما يقول أو يفعل بل إلى الواسطة التي بينه وبين ربه، أي إلى الملائكة التي توحي إليه، والنبي عندهم بريء من المذمومات في النفس والآفات في الجسم، والكامل في كل محمود، وأن لايقصر عن الإجابة بصواب في كل مسألة، ويخبرنا بما في الأوهام، وهو مجاب في دعوته ومذهبه يصلح به العالم ويكثر به عامره(٥٢) ومن مهامه، معرفته كيف تساس النفوس الشريرة، وردها عن سلوكها، وإجراء السنة في الشريعة، وبيان الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام، في أمور الدنيا، والتزهيد منها، وذم الراغبين فيها، وتفصيل أحكام الخاص والعام بين سائر طبقات الناس»(٥٣).

- أما الحكيم الإلهي أو الصديق. فإنه إذا استخرج علماً من العلوم، أو ألّف كتاباً، أو استخرج صفة، أو دبّر سياسة، نسب ذلك إلى نفسه، واجتهاده وجودة رأيه.

التوسل بالأصنام والهياكل:

عرفت الأمم كافة، عبادة الأصنام والكواكب، وكانوا يتوسلون إليها، بتقديم القرابين والأضاحي والحرانية يدّعون أن الكعبة هي هيكل زحل(٥٤). وأما عن غايتهم من تقديم القرابين، أفصح عنه إخوان الصفا الذين قالوا بصراحة تامة: «إن مذهبنا واعتقادنا هو مذهب صابئة حران»(٥٥) وبينوا أن غايتهم بقولهم: «ياأخي إن غرض واضعي النواميس، في تحليل ذبح البهائم في الهياكل عند القرابين، إنما هو ليس لآكل لحومها فحسب، بل غرضهم تخليص نفوسها من درجات جهنم عالم الكون والفساد، ونقلها من حال النقص، إلى حال التمام والكمال في الصورة الإنسانية»(٥٦). فغايتهم إذن من

القربان، تحرير النفوس الإنسانية الحبيسة في الحيوان، وإعادتها إلى صورتها الإنسانية، وذلك طبقاً لمذهبهم في تناسخ الأرواح.

وأما عن الهياكل والأصنام قال إخوان الصفا بلسان الحرانية: «ولما مضى أولئك الحكماء والربانون العارفون بالله، وانقرضوا، خلفهم قوم آخرون لم يكونوا مثلهم في المعرفة، والعلم والفهم، فأرادوا الإقتداء بهم في سيرتهم، واتخذوا أصناماً على مثل صورتهم، وصوروا تماثيل على مثل مافعلت النصارى، في بيعهم من الصور والتماثيل»[٥٧].

وقدّموا لها القرابين التي قدمها الفلاسفة الحكماء القدماء للباري سبحانه، وكانوا يتقربون بالقربان مع الدعاء المستجاب، كماأوصى سقراط تلاميذه «اذبحوا لي ديكاً» في معبد دلفي[٥٨]، هذا القربان الفلسفي يجمع الخصال التي دلت عليها التنزيلات السماوية، وأفعال الأنبياء، وأفعال الفلاسفة القدماء الذين بنوا الهياكل في الأرض على مثل ماهي مبنية في السماء»[٥٩].

أما القربان الشرعي، أو الأضحية في الأعياد الإسلامية، التي كانوا يشاركون بها تقية، وقد عبّروا عن ذلك بما قاله إخوان الصفا: «متى كنت مقصراً في العبادة الشرعية فلا يجب أن تتعرض لشيء من العبادة الفلسفية، وإلا هلكت وأهلكت، وأما العمل بالعبادة الفلسفية الإلهية، فهو إيمان ولايكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً، والإسلام سابق على الإيمان»[٦٠].

هذا النص يمثل وضع الحرانية في آخر أيامهم عندما خرجوا من كهف السرية ولبسوا قميص التقية، وكانت أولى خطاهم نحو التلاشي والزوال. وكما كان ثابت أصل رئاستهم كانت تعاليمه الفلسفية سبب زوالهم.

كان المجتمع الحراني الكهنوتي مقسماً إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الصديقين: لتصديقهم صاحب الشريعة، ونصرتهم له، وهم أهل العرفان، وواضعوا العلم الإلهي.

٢ ـ طبقة الشهداء: سمّوا بذلك، لمشاهدتهم الأمور الروحانية المفارقة للهيولى، أي عرفوا الأسرار الإلهية والعلوم الروحانية.

٣ ـ طبقة المؤمنين: من قصر فهمهم عن معرفة الأسرار الإلهية، وتصور الأمور الروحانية، لكنهم أقروا بما أخبر به صاحب الشريعة، وقاموا بنصرته صابرين.

٤ ـ طبقة المسلمين: أقروا بلسانهم، وشكّوا بقلوبهم، وهؤلاء كالأعراب الذين

ذمهم القرآن: قالت الأعراب آمنا. قل لم تؤمنوا، لكن قولوا أسلمنا»[٦١].
هؤلاء هم عوام الصابئة، في آخر أيامهم الذين تحولوا فيما بعد إلى الإسلام، والله أعلم بسرائرهم.

كانت كل الطبقات الأربع السابقة، تعمل بمبدأالتقية، وتدعوا وتتوسل، بالدعاء الأفلاطوني، والمناجاة الأرسطوطالية، والتوسل الإدريسي (الهرمسي)، المذكورة في كتاب ثابت بن قرة الحراني المسمى (أوقات العبادات، وترتيب القراءة في الصلاة».

المراجع:

١ ـ صوان الحكمة ص ١٩٩ لأبي سليمان السجستاني تحقيق. د. عبد الرحمن بدوي طهران ١٩٧٤.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول ص ١٥٣ ابن العبري دار المسيرة بيروت.

٣ ـ التنبيه والإشراف ص ١٦٢ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاري القاهرة ١٩٣٨.

٤ ـ طبقات الأمم ص ٣٣ صاعد بن أحمد الأندلسي مطبعة السعادة بمصر.

٥ ـ كتاب تلخيص المحصل ص ٥٧ نصير الدين الطوسي طباعة حيدر آباد ١٣٥٨.

٦ ـ الرسائل الفلسفية للرازي ص ١٩١ بول كراوي القاهرة ١٩٣٩.

٧ ـ الفهرست ص ٣٨٤ ابن النديم تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٣١.

٨ ـ المصدر السابق ص ٣٨٥.

٩ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٥٦ إشراف على الترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٦٣.

١٠ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ١١٢ الشهرستاني في تحقيق عبد العزيز الوكيل القاهرة ١٩٦٧.

١١ ـ الموسوعة الفلسفية ص ٨٢ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠.

١٢ ـ كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٣٥ نجم الدين الكاتبي حيدر أباد الدكن ١٣٥٤.

١٣ ـ المصدر السابق ص ١٣٦.

١٤ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٥١ دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده القاهرة ١٩٥٧.

١٥ ـ تراث الإسلام ج ٣ ص ١١٥ كتاب عالم المعرفة الكويتي (١٢) ١٩٧٨.

١٦ ـ دي بور ص ١٥١.

١٧ ـ التساعية الرابعة لأفلوطين في النفس ص ٢٦٤ د. فؤاد زكريا وزارة الثقافة المصرية ١٩٧٠.

١٨ ـ المصدر السابق ص ١٩٣.

١٩ ـ المصدر السابق ص ٢٦٦.

٢٠ ـ مشكلات مابعد الطبيعة ص ١١٥ بول جانيه ترجمة يحيى هويدي مكتبة الانجلو مصرية ١٩٦١.

٢١ ـ التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٣٢٢.

٢٢ ـ مشكلات مابعد الطبيعة ص ١١٥.

٢٣ ـ التساعية الرابعة ص ٣١٦.

٢٤ ـ التساعية الرابعة ص ٣٢٢.

٢٥ ـ تراث الإسلام ج ٣ ص ١١٥.

٢٦ ـ التساعية الرابعة ص ٣٢٣.

٢٧ ـ المصدر السابق ص ٣٢٢.

٢٨ ـ المصدر السابق ص ٣٣٠.

٢٩ ـ كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٥.

٣٠ ـ التساعية الرابعة ص ٢٣٢.

٣١ ـ التساعية الرابعة ص ٢٠٨.

٣٢ ـ المصدر السابق ص ٢٢٧.

٣٣ ـ المصدر السابق ص ٢١٣.

٣٤ ـ كتاب الأزمنة والأمكنة ص ١٤٤ المرزوقي حيدر آباد الدكن ١٩٥٤.

٣٥ ـ رسائل الرازي الفلسفية ص ١٧٨.

٣٦ ـ دي بور ص ١٥٢.

٣٧ ـ مختصر تاريخ الدول ص ١٥٢.

٣٨ ـ التساعية الرابعة ص ١٩٤.

٣٩ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ١١٣.

٤٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧١.

٤١ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ١١٤.

٤٢ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٧.
٤٣ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.
٤٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٠.
٤٥ ـ تهذيب الأخلاق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ ابن مسكويه تحقيق سهيل عثمان دمشق ١٩٨٦.
٤٦ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٦.
٤٧ ـ التساعية الرابعة ص ٢٠٧.
٤٨ ـ المصدر السابق ص ٢٠٨.
٤٩ ـ ملحق موسوعة الفلسفة ص ٢١٢ عبد الرحمن بدوي بيروت ١٩٩٦.
٥٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٧.
٥١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٠.
٥٢ ـ الفهرست ص ٣٨٤.
٥٣ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٩٥.
٥٤ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٢.
٥٥ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠.
٥٦ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢.
٥٧ ـ الفهرست ص ٣٨٥.
٥٨ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٢.
٥٩ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧١.
٦٠ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٢.
٦١ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٢.

ثانياً ـ الفلسفة الطبيعية عند الحرانية أو (علم ظواهر الطبيعة):

مدخل البحث:

عاش الإنسان محاطاً، بعدد لايحصى من الظواهر الطبيعية، والأجسام المتنوعة. وكان هم الإنسان الدائم فهم العالم المحيط به. إلا أنه كان يواجه دائماً، بمهمة صعبة الحل.

- ما أصل هذا العالم؟.
- من أين جاء؟.
- وإلى أين يمضي؟.

شكلت الإجابة عن هذه الأسئلة، علم العلل الأولى، والمبادىء التي لاسابق عليها، أو علم الظواهر الطبيعية. وهو العلم الذي يحاول تعليل الوحدة والكثرة في الكون. وكان لفلاسفة المدرسة الأيونية الذين يسميهم العرب «قدماء الفلاسفة» قصب السبق في تحديد أولى مبادىء الموجودات.

قال طاليس «الماء هو جوهر الأشياء» ولكن هذا العنصر عنده ليس مادياً خالصاً، لأن له نفساً جعلته أصل الحياة.

وقال أنكسيمانس، معللاً جوهر الأشياء هو الهواء، إنه إله فسيح، لامتناه دائم الحركة[1].

وتابعهم إمبادوقليس: «إن وجود الأشياء، وفناءها، ليس إلا مجرد ظواهر، ومايظهر لنا على أنه وجود ليس إلا اجتماعاً للعناصر الأربعة، ومايظهر لنا فناء، ليس إلا انفصال للعناصر الأولى للأشياء. وإن علة الحركة في المادة هي المحبة والكراهية».

كان فلاسفة المدرسة الأيونية مجمعين، على أن المادة قديمة أزلية لافناء لها. ولكن فيثاغورس الساموسي، عارضهم بقوله: «إن العالم خلقه الإله طبقاً للعدد، وإن العدد هو جوهر الأشياء، وإن هذا العالم قديم، وإن الله قد سبقه في المرتبة والوجود.

ثم جاء بارمنيدس، وأنكر الصيرورة والكثرة في الوجود، لأن الوجود ثابت لاخلاء فيه وهو هو دائماً، وليست المادة والفكر مختلفين، وهما يلتقيان في التصور العام للوجود»[٣].

هذه الآراء، التي نعرضها بهدوء وروية، كانت تعرض في المدارس والمعابد، والساحات اليونانية، بصخب وأحياناً بقتال. إلى أن جاء الفيلسوف العظيم انكساجوراس، الذي قال عنه أرسطو: «إنه أول رجل استخدم عقله، وسط أناس كانوا يقولون مايقولونه اتفاقاً».

ـ فما الذي قاله أنكساجوراس؟. قال: من الضروري الإلتجاء إلى علة محركة قائمة بذاتها هي العقل. وإن كون الأشياء وفسادها، عائد إلى الإتحاد والانفصال، وإن عدد الجواهر الأولى «البذور» غير متناهية وهي مختلفة في الكيف، ولكنها محدودة العدد[٣].

كان الفلاسفة كلهم، قد عالجوا المبادىء الأولى للوجود، من وجهة نظر مثالية، إلى أن جاء ديمقريطس وقال: إن الذرة هي مبدأ الوجود، وهي الجزء الذي لايتجزأ، وهي غير محدودة من ناحية الكيف، لامتناهية العدد. يفصل بينها العدم والخلاء، ويجب أن لايبحث عن الحركة والتغير خارج الذرات، لأن كل حركة هي علة للحركة التي تليها إلى مالانهاية. وهكذا عزاء ديمقريطس الحقيقة كلها إلى المادة. ولكن أفلاطون نفاها، عندما قال عنها: «هي شيء غير معين، كالعجين قابلة لكل شيء وباتحادها بالصورة يتكون العالم»[٤].

ولكن أرسطو قد خطى خطوة إلى الأمام، أفضل مما كان عند معلمه أفلاطون، عندما اعتبر أن المادة هي القوة اللامتعينة، وهي موضوع كل تغير، وشرط كل استحالة، وهي سرمدية، لم تخلق ولن تفنى، ولايمكن فصل الصورة عن المادة، إلا عن طريق التجريد العقلي، والهيولى الأخيرة، التي هي في حالة تهيؤ لقبول، أية صورة كالرخام أو النحاس أو الخشب بالنسبة لتمثال فينوس.

والمادة هي كمال ممكن لن يتحقق إلا عن طريق الحركة، وقد أثنى فريدريك انجلز على فكرة أرسطو بقوله: «لن توجد مادة، دون حركة، بل ولايمكن أن توجد»[٥].

هل كانت فلسفة أرسطو خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراءبالنسبة إلى فلسفة ديمقريطس؟ يعلق لانج في كتابه تاريخ المادية: «هذه الفلسفة، التي أبعدت الله عن نظام العالم، ولم يعترف إلا بالحتمية وبالضرورة، في تفسير علل الأشياء الجزئية، دون أن

تلجأ إلى لعلل الغائية، هذه الفلسفة (أي فلسفة ديمقريطس) أكثر صلاحية من فلسفتي أفلاطون وأرسطو لأنها نفذت إلى أسرار الطبيعة أكثر منهما»[٦].

ظهرت الفلسفة الحرانية في مجتمع إسلامي صاعد، محتاج إلى كثير من المعارف العلمية مما دفع ثابت بن قرة إلى إخراج علوم الحرانية، مغلّفة بالمعرفة العرفانية، (الغنوستية) السرية، مبتعداً عن الجانب المادي قدر الإمكان.

نقل أحمد بن الطيب السرخسي عن الكندي قوله: «إن الحرانية يقولون في الهيولى والصورة، والعدم والزمان والمكان والحركة، كما قال أرسطو في سمع الكيان»[٧]. والمعروف أن ثابتاً هو الذي شرح سمع الكيان. وترجم شروح يحيى النحوي وتعليقاته عليه مبيناً مبادىء الموجودات الطبيعية. وكان الكندي يستخدم رسائل ثابت وكتبه المترجمة في رسائله ومقالاته، وقد اقتدى به ابن سينا في المدخل من شفائه قال: «ولايوجد في كتب القدماء شيء يعتد به إلا وقد ضمناه هذا الكتاب»[٨].

وقد علق الدكتور محمد عاطف العراقي على قول ابن سينا: «لانجد ذكراً دقيقاً للمصادر التي استند إليها ابن سينا، ومختلف الآراء التي أدلى بها غيره، من الفلاسفة والعلماء كما يتطلب ذلك الأسلوب العلمي في البحث والدراسة، وعلى سبيل المثال أهم مصادره أرسطو، وثابت بن قرة، ويحيى النحوي، وأفلوطين، والكندي والفارابي»[٩].

أما كَتَبَةُ رسائل إخوان الصفا، الذين أغاروا على كتب ورسائل ثابت بن قرة الحراني، وضمنوها رسائلهم، فلهم العذر لإعتقادهم، أن ثابتاً هو أحد الحكماء الإلهيين والعلماء الأجلاء، وكقدماء فلاسفة الحرانية، الذين يتكتمون عن ذكر أسمائهم حين يستشهدون بكتاباتهم. وسأضرب مثالاً على ذلك:

ذكر أبو الريحان البيروني، في كتابه عن الجبال المصدر الذي استقى منه. قال: لِمَ صارت مياه العيون في الشتاء أغزر؟ فلأن الغرض من إحداث الجبال. ماذكره ثابت بن قرة في كتابه «السبب الذي له خلقت الجبال». وهذا السبب هو الذي يتمم الغرض في تصيير مياه البحور مالحة... ومن البيّن أن وقوع الأنداء، في الشتاء أكثر منه في الصيف، وفي الجبال أكثر منه في السهل، فإذا أوقعت فيها وسال ماسال بالسيول، غاص الباقي في المجاري، التي هي تجاويف الجبال، وخزن هناك ثم يأخذ في الخروج عن المنافذ التي تسمى العيون، ولذلك صارت في الشتاء أغزر لأن مادتها أكثر، فإن كانت تلك التجاويف نقية طيبة خرجت المياه كما هي عذبة[١٠].

أما إخوان الصفا، فإنهم نقلوا كامل كتاب ثابت، وقد حافظوا على أسلوبة البليغ، والفصيح، دون أن يشيروا إليه من قريب أو بعيد. لأنهم كانوا يتقصدون ذلك.

قالوا: واعلم ياأخي أن الأودية والأنهار كلها تبتدىء من الجبال والتلال في مسيلها وجريانها، نحو البحور والآجام والغدران[١١]. وأما الأمطار التي تكون على رؤوس الجبال فإنها تفيض في شقوق تلك الجبال، وتنصب إلى مغارات وكهوف وأودية هناك، وتمتلىء، وتكون كالمخزون، ويكون في أسفل تلك الجبال منافذ طبيعية، وتمر في جريانها راجعة نحو البحار ثم تكون منها، البخارات والرياح والغيوم والأمطار، كما هي في العام الأول[١٢].

العلل الأولى للكون:

العلل الأولى هي المبادىء الخمسة، التي قال عنها نصير الدين الطوسي: «وقد نسب إليهم بعض السلف، القول في قدم البارىء، والهيولى، والمكان، والزمان. إلى الصابئة الحرانيين، وظنوا أن محمد بن زكريا الرازي، قد اقتبس مذهبهم منهم، وعمل فيه كتاباً موسوماً، بالقول بالقدماء الخمسة.

سأتعرض لهذه المبادىء في دراستي للفلسفة الطبيعية عند الحرانية، مفترضاً من جانبي، أن صابئة حران هم إخوان الصفا.

الهيولى والصورة:

قال ثابت أو الحرانية: الجسم القابل للصورة نسميه «هيولى». وهي جوهر بسيط لايتم وجوده بالفعل دون وجود ماحل فيه (الصورة) وقد شبه الأوائل طينة العالم به.

شرح هذا القول نجم الدين الكاشي في شرحه للمحصل. «وأما الهيولى، وهي منفعلة لأنها تقبل الصور من واهب الصور، ولامعنى لانفعالها سوى ذلك. وقد أثبتها أفلاطون خالية عن الصور منذ الأزل. بينما قال أرسطو: إنها لاتخلو عن الصورة. وكان الحرانية يرون أن الهيولى أزلية قدم الباري، ولو كانت الهيولى حادثة للزم التسلسل وإن كانت قديمة فهو المطلوب»[١٣].

وقد عرفها ثابت بن قرة الحراني في شرحه لسمع الكيان: «الهيولى كل جوهر قابل للصورة، والصورة كل شكل أو نفس، واختلاف الموجودات بالصور لا بالهيولى، وذلك أننا نجد أشياء كثيرة، جوهرها واحد وصورها مختلفة، كالتمثال الذي يصنع من الحديد أو الخشب أو الحجر. والأجسام كلها جنس واحد، من جوهر واحد، وهيولى

واحدة، وإنما اختلافها بحسب اختلاف صورها. وبعض أشرف من بعض، كالأفلاك أشرف من عالم الأركان، هذا قول ثابت في كتاب السماء وهو قول الحرانية(١٤).

إذن الصورة النوعية واحدة والصورة الجسمية هي علة الكثرة في الموجودات.

هل يمكن تجريد الصورة عن الهيولى عند الحرانية؟. نعم. فالباري سبحانه دائم الوجود، الكامل الصورة دون هيولى. بينما لايمكن للهيولى أن تتجرد عن الصورة بأي حال من الأحوال.

المكان والخلاء:

المكان لغة الحاوي للشيء المستقر، كمقعد الإنسان من الأرض. وهو أزلي قديم لامتناهي، ولايصح عليه الفناء، كما قالت الحرانية:

والخلاء مكان لاجسم فيه.

والخلاف بين الهيولى والمكان، هوأن المكان تكون فيه الحركة، أما الهيولى فلا تكون فيها حركة، ولو كان المكان صورة، لفسد بانتقال الماء إلى بخار، واستحالته (أي تحوله) يوجب فساد صورة الماء. ولكن المكان ليس له كون، وبذلك لايكون له فساد. والإتفاق بين الهيولى والمكان إنهما يقبلان تعاقب الصور والأجسام.

كان ديمقريطس وأبيقور يقران وجود الخلاء، إذ لابد من وجود فراغ بين الذرات حتى تتمكن من الحركة فيه، بينما ينفي بارمنيديس وجود الخلاء يملأ جميع المكان.

أما الفراغ فهو عدم يستحيل أن يوجد.

أيد أرسطو قول بارمنيديس، وأنه لايوجد مكان خال عن كائن يشغله، لاخارج الكون ولا داخله، بل هناك تحولات من مكان إلى آخر، دون أن يكون هناك مبرر للتسليم بوجود الخلاء.

ولكن الحرانية قالوا: كيف توجد الحركة دون وجود شيء تتحرك فيه؟ وأكدّوا وجود الخلاء في الطبيعة. وأيدهم أبو البركات البغدادي بقوله: «إذا كان المفكرون لوجود الخلاء، يقولون بتخلخل الهواء وتكاثفه، وإن الأشياء تتخلخل بالهواء، وضرب مثلاً ملموساً: «إن القارورة التي تمص ثم تكب على الماء، فإن الهواء يدخلها ولو كانت مملوءة لما وسعت شيئاً آخر يدخل فيها»(١٥). فالخلاء كما أكده ثابت بن قرة هو سبب الحركة وليس الملاء كما قال أرسطو: «إن الطبيعة تفر من الخلاء».

دارت معركة في الأسكندرية في القرن السادس الميلادي بين يحيى النحوي

وسنبلقيوس حول الخلاء والملاء داخل العالم وخارجه نفى سنبلقيوس، وجود الخلاء بينما أكده يحيى النحوي، «فيلوبونوس». نقل ذلك الخبر ثابت بن قرة في شرحه على السماع الطبيعي لأرسطو. قال: ولو كانت الأجسام كلها صلبة متماسكة الأجزاء، كالحجر والحديد، لكان الملء يمنع من النقلة والحركة، ولكن لما كان بعض الأجسام رخواً لطيفاً سيّالاً كالماء والهواءلم يمتنع أن تتحرك بعض الأجسام بين أجزائه، كما يتحرك السمك في الماء، والطير في الهواء، وسائر الحيوانات على وجه الأرض.

أما بالنسبة للخلاء خارج العالم: قال يحيى النحوي والعبارة لثابت بن قرة «العقلاء كلهم لم يتفقوا أن خارج العالم جسم آخر، لأن الحس لم يدركه، والعقل لم يقضِ به لأن الجسم ذو نهاية، وأنه ليس في الخلاء قوة جاذبة، ولا دافعة، لأنه خلاء محض ونفي صرف، يشبه الوهم ولايتطابق مع الواقع، نقد أحمد بن الحسن المرزوقي أبا بكر الرازي ورماه بالزندقة لاتباعه الحرانية في معتقداتهم. قال: ومن زعم من الأولى أكثر من واحد محمد بن زكريا المتطيب قال بالقدماء الخمسة (الباري والهيول والنفس والخلاء والمدة). إثنان حيّان الباري والنفس وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى الذي منه كونت الأشياء الموجودة. وإثنان لاحيان ولا فاعلان وهما الخلاء والمدة (الزمان). وأما الباري تام الحكمة، لايلحقه. سهو ولا غفلة وتفيض منه الحياة كفيض النور عن قرص الشمس والعقل التام المحض[١٦].

وذكر ذلك الإمام فخر الدين الرازي «قالت الحرانية في إثباتهم للقدماء الخمسة، إثنان حيّان فاعلان وهما الباري والنفس، وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى وإثنان لاحيان ولا فاعلان ولامنفعللان وهم الدهر والفضاء»[١٧].

وحول ماهية المكان. هل هو جوهر أم عرض؟. قدّم ثابت بن قرة ثلاث تصورات للمكان:

١ ـ من قال إن المكان جوهر ـ وهو الفضاء الذي يكون فيه الجسم ذاهباً طولاً وعرضاً وعمقاً، حتى قيل إن المكان مكيال الجسم، والجوهر المحسوس له مكان.

٢ ـ ومن قال إن المكان عرض. أي إن المكان هو الفصل المشترك بين سطح الجسم المادي وسطح المحوي. قال أرسطو «إنه لافرق بين النقطة وموضع النقطة). وإن سطح الجرة، هو مكان الماء، وسطح الماء هو مكان الجرة. ثم ضرب ثابت مثالاً من الفلك الأعلى «إذا كان الفلك الأعلى متحركاً، وكل متحرك له مكان.

فللفلك الأعلى مكان. ولكن ليس له نهاية حاوية من محيط، وعلى ذلك فالمكان هو السطح الظاهر من الفلك الذي تحته.

٣ ـ ومن قال إن المكان هو الفضاء. إنما نظروا إلى صورة الجسم، ثم انتزعها من الهيولى بالقوة الفكرية وسماها الفضاء. ومن نظر إلى الهيولى سماها المكان فإن ذلك يعود إلى أخطاء النفس وتوهمها.

ثم توصل ثابت إلى النتيجة القائلة: «إن مكان كل متمكن، هو الجسم المحيط به، وهذا هو رأي أفلاطون الذي قال: «مكان كل شيء هو الوعاء الذي هو فيه». وقد أيده ثابت.

الزمان والحركة:

عالج ثابت فكرة الزمان في عدة رسائل وكتب منها:

كتابه عن الزمان الذي أهداه لمحمد بن موسى بن شاكر، فرّق فيه بين الزمان المؤلف من أنات صغيرة، غير قابلة للتجزئة. ولهذه الأنات عوارض كثيرة، ولكن لاعارض منها يدوم أكثر من (آن) واحد يخلقه الباري باستمرار، وإذا توقف خلق الزمن إنحل العالم ومات[١٨]. وهذا هو رأي أفلوطين في الزمان الذي ربط فيه بين الزمان والإله الموجود منذ الأزل وإلى الأبد، فالزمان أزلي ولكنه بدرجة أقل، من أزلية الباري[١٩]. وقد استعارها أفلوطين من ارختياس الفيثاغوري الذي جعل الزمان، قوة فاعلة مرتبطة، بالنفس الكلية للكون وقد فصلها فرفوريوس الصوري بقوله إن الزمان لاينفصل عن النفس الكلية، لأن السرمدية لاتنفصل عن العقل، وهذا الزمان يمكن أن ينظر إليه على أنه ذو دورات كدورات الفلك، والكواكب المختلفة وكل دورة من دورات النفس الكلية التي تكون السنة الكبرى[٢٠] التي قدرها ثابت بـ ٣٦٤٢٥ سنة شمسية.

قال فخر الدين الرازي: قالت الحرانية، وأما الدهر فهو الزمان، وهو غير قابل للعدم، لأن كل قابل للعدم كان عدمه بعد وجوده، فيكون الزمان موجوداً حال مافرض معدوماً، وهذا خلف فإذا مالزم فرض عدم الزمان محال لذاته. وأما الفضاء فهو أيضاً، واجب لذاته، لأن الواجب لذاته يشهد له صريح الفطرة بامتناع ارتفاعه»[٢١].

وكان برقلس يذهب إلى القول: بأن الزمان هو بقاء العالم المتغير، والدهر هو مدة بقاء العالم الفعلي والأبدي الذي لايوجد له تغير، متمثلاً قول أفلوطين «إن الله فوق الأزمنة، لأنه دائم الوجود، فهو فوق الدهر والعقل مع الدهر، والنفس الكلية تحت

الدهر، وقد فسّر دي بور قوله: إن ماقصده بالزمان العلوي، هو الوقت الذي ظهر فيه العقل والزمان السفلي الذي، هو حركات الفلك[٢٢].

أما تفسير ثابت بن قرة لقول برقلس: «إن العالم لم يخلق في زمان ولا في مكان». لأن العالم قديم كان مع الباري سبحانه، وأنه لازمان ولامكان، فلما أبدع الباري الفلك وأداره، وأوجد الزمان والمكان معاً، جعل الزمان جملة السنين والشهور والأيام والساعات والدقائق والثواني، التي تحصل صورها في النفس من جملة الأشياء الخمسة المحتوية على كل جسم.

ما علاقة الزمان بالنفس؟

جعل ثابت مقولتي الزمان والمكان فطريتين في العقل. قال أحمد بن الحسن المرزوقي: إن أبا بكر الرازي، كان يقول كالحرانية إن الدهر والخلاء قائمان في فطر العقول، بلا استدلال وذلك أنه ليس من عاقل إلا وهو يتصور في عقله، وجود شيء للأجسام، بمنزلة الوعاء والقراب، ووجود شيء يعلم التقدم والتأخر، وإن وقتنا ليس هو وقتنا الذي مضى والذي يكون من بعد بل هو شيء بينهما، وإن هذا الشيء ذو بعد وامتداد دائم الجريان لاقرار له»[٢٣]. وعنه أخذ أبو العباس الإيرانشهري قوله المحيّر «إن الزمان دليل علم الله، وإن المكان دليل قدرته، والحركة دليل فعله، والجسم دليل قوته، وكل هذه الأشياء جواهر قديمة لانهاية لها[٢٤].

وعن الحرانية أخذ الفيلسوف ناصر خسروا رأيه الغريب عن التراث الإسلامي، وهو أن المكان مظهر قدرة الله. قال: بما أن قدرة الله، تشمل مقدوراته، وإن هذه المقدورات أجسام مصورة لايمكن أن توجد إلا في مكان، فالمكان مظهر قدرة الله».

لقد أكد أرسطو وجود العلاقة بين النفس والزمان «لأن بداية النفس هي بداية الزمان، والعالم قديم ليس من جهة الزمان بل من جهة النفس. ثم تلاه أفلوطين الذي اعتبر الزمان مدة حياة النفس، وأنه لايقع تحت العدد كما يضاف إلى الزمان، بتوسط حركة الأفلاك التي لاتوجد الزمان وإنما تظهره، لأن الزمان دائم الوجود على سبيل الانقضاء والتجدد، وهو بحاجة إلى حافظة فلكية بها تقدر الحركات. فالزمان موجود خارج النفس كما أنه من جهة أخرى فعل النفس. «إن النفس الكونية التي تولد الزمان، ليست هي ذاتها في الزمان؟ وكل النفوس أزلية، وهي سابقة على الزمان. ففي الفعل الأزل وفي النفس الزمان، إذ ليس للزمان وجود إلا في فاعلية النفس، وهو ناتج عن هذه الفاعلية[٢٥]. وهكذا يربط ثابت الزمان بالعنصر الذاتي

في النفس، مخالفاً بذلك تعريف أرسطو: «إنه مقدار الحركة بحسبان المتقدم والمتأخر».

ويبدو أن القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠) أخذ بفكرة أفلوطين عندما ربط الزمان بالعقل الإنساني قال: «الأزمنة الثلاثة موجودة في عقلنا، ولا أرى لها وجوداً إلآ فيه فالماضي هو تذكر، والحاضر هو رؤية مباشرة، والمستقبل هو الترقب والإنتظار»(٢٦).

اعتبر ثابت وإخوان الصفا أن من شرف جوهر النفس، ومن شدة قوتها الوهمية أنها تنظر إلى العالم، وكأنها خارجة منه، وتنظر إليه، وكأنها داخلة فيه، وربما ترفع العالم من الوجود أصلاً وربما تقدمت الزمان الماضي، ونظرت إلى بدء الكون والعالم، وربما سبقت زمان المستقبل، ونظرت إلى فناء العالم قبل حينه، وتصورت كيف يكون ذلك اليوم (يوم القيامة)(٢٧).

ذكر البيروني تعريفاً للزمان يقرب من تعريف الحرانية، وهو قولهم «إن الزمان مدة لما له أول وآخر، والدهر مدة مالا أول له وآخر»(٢٨).

الحركة والسكون:

لاشعور بالزمان، إلا بشعورنا بالحركة والتغير. فالزمان هو مقياس الحركة، والسكون هو عدم الحركة، ولكل نوع من أنواع الحركةسكون يقابله، والحركة والسكون بمعنى التغير وعدم التغير. ففي الحيوان والنبات جميع ضروب التغير (كالنقلة والنمو والإستحالة والكون والفساد). فالحركة إذن هي أسلوب لوجودها. لأن الحركة هي خروج الشيء عن القوة إلى العقل في الزمان. فالحركة إذن كمال فعل الشيء.

ـ ما الصلة بين الحركة والتحرك؟. بيّن (ثابت): أن الحركة إما أن تكون للمتحرك عن ذاته، من حيث أنه جسم طبيعي (حيوان). أو أن تكون صادرة عن سبب ما. ولو كانت ذات المتحرك سبباً للحركة، بحيث يكون محركاً ومتحركاً، لأدى هذا بالضرورة إلى القول. بأن الحركة تصدر عن ذاته وهذا محال.

قد تكون الحركة بالعرض، كحركة الساكن في المركب بحركة المركب، وللحركة ستة أشكال:

١ ـ الكون ـ هو خروج الشيء من العدم إلى الوجود أو من القوة إلى الفعل.

٢ ـ الفساد ـ هو عكس الكون أي خروج الشيء من الفعل إلى القوة أو العدم.

٣ ـ الزيادة والنقصان ـ والزيادة تعني تباعد نهايات الجسم عن مركزه. والنقصان على عكسه. إنكماش نهايات الجسم.

٤ ـ التغير ـ هو تبدل الصفات على الموصوف من الألوان والطعوم والروائح وغيرها من الصفات.

٥ ـ النقلة ـ هذه الحركة هي الخروج من مكان إلى مكان. وقد يقال عنها هي الكون في محاذاة ناحية أخرى في زمان ثانٍ. وكلا القولين يصح على الحركة، التي هي على سبيل الإستقامة.

٦ ـ الحركة على الاستدارة ـ لايصح فيها أن المتحرك ينتقل من مكان إلى مكان، ولايصير في محاذاة أخرى في زمان ثانٍ. فإن قيل إن المتحرك علىالإستدارة أجزاؤه كلها تتحرك في أماكنها، وتصير هو ساكن في المركز، فإنه ساكن فيه لايتحرك. مثال ذلك حركة لعبة الأطفال المسماة البلبل تدور في مكانها.

حاول ثابت تفسير الحركة على الإستدارة تفسيراً رياضياً. قال: إن المركز هو نقطة متوهمة وهو رأس الخط. ورأس الخط لايكون مكان الجزء من الجسم المتحرك، وهو لاينتقل من مكان إلى مكان.

وقال أيضاً: «ظن بعض أهل العلم أن المتحرك على الإستقامة يتحرك حركات كثيرة، لأنه في حال حركته، يحاذي أماكن عديدة، ولاينبغي أن نعتبر كثرة الحركات لكثرة المحاذيات. كالسهم الذي لاتكون له إلا حركة واحدة، وإن مرّ بمحاذاة كثيرة، ولاتنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما، وهذا يعرفه أهل صناعة الموسيقى، لأن الأصوات لاتحدث إلا بالحركات التي لاينفصل بعضها عن بعض، إلا بسكونات تكون بينها. وإن الحركة حكمها كحكم الضوء، وذلك لو أن خشبة طولها من المشرق إلى المغرب، ثم جذبت إلى المشرق والمغرب عقداً واحداً لتحركت جميع أجزائها دفعة واحدة لأن (الآن السيال) أمر بسيط لاتركيب فيه.

الحركة والخلاء:

نفى بارمنيديس فكرة الخلاء، لأن الوجود يملأ جميع المكان، أما الفراغ فهو عدم يستحيل وجوده. ثم تلاه أرسطو مؤيداً رأيه قائلاً: «لايمكن أن توجد الحركة إلا إذا كان العالم ملاء».

أيد ابن سيناء والمشاؤون العرب رأي أرسطو قائلين: «لو رمينا حجراً إلى أعلى فإنه لولا مقاومة الملاء لذلك الحجر عن الحركة لوصل الحجر إلى السماء».

ولكن ثابت بن قرة خالفهم في ذلك. قال فخر الدين الرازي في كتابه المباحث الشرقية: «إن ثابت خالف رأي المشائين بوجه عام، وهو إنكاره أن يكون للعناصر مكان طبيعي. وأنه ليس لشيء من الأماكن حال يختص بها دون غيره، حتى يتصور أن جسماً معيناً يطله بطبعه دون ماعداه. مثال ذلك أننا لو رمينا مدرة (أي حجرة) إلى فوق فإنها تعود إلى الأرض، ولايرجع ذلك إلى أن الطبيعة الأرضية تطلبها، أو أن الملاء يقاومها، بل لأن الجزء يميل إلى الكل»[٢٩].

هذه الفكرة التي تكاد تكون إرهاصاً لاكتشاف الجاذبية الأرضية، أخذها ثابت عن يحيى النحوي الذي قال أيضاً: «إن كل جسم معزول عن المؤثرات الخارجية يظل ساكناً. كما يتضمن التأكيد على عامل المقاومة، باعتباره العامل العكسي الذي يعارض حركة الأجسام، ضد العامل الطردي، الذي تمثله القوة الدافعة، أي سرعة الأجسام تتناسب مع القوة المؤثرة في حركتها سواء كانت دافعة أو ساحبة. تتناسب عكساً مع مقاومة المادة التي تتحرك فيها. إذ الواقع يشهد أن مقاومة الهواء تؤدي إلى نقص سرعة الجسم المقذوف لا إلى زيادة حركته. كما لاحظ ذلك أرسطو فقال: «إن المتحرك يستفيد ميلاً من المحرك أي أن الجسم في حالة إنطلاقة من القاذف يظل متحركاً بفعل الهواء المحيط به. ولكن يحيى النحوي ذهب إلى أن القوة المسيّرة للجسم بفعل عملية القذف ذاتها، لأن القدرة المحركة الداخلية، تضغط في الجسم في أثناء الإنطلاق. ثم تعمل بعد ذلك دافعة له. وقد مثّل ذلك ثابت بن قرة بالسهم الذي ينطلق في الهواء. فإن القوس يعطيه قوة دافعة، بمقتضاها يستمر السهم في حركته بعد ترك القوس القاذف له[٣٠].

الكون والفساد:

قسم فلاسفة اليونان الكون إلى عالمين، عالم مافوق فلك القمر، وعالم ماتحت فلك القمر. وقد تابعهم فلاسفة العرب.

عالم الأفلاك (مافوق فلك القمر):

تصوروا عالم الأفلاك كروي الشكل، لأن الكرة هي الشكل الكامل، وهي تدور في دائرة لأن الحركة الدائرية، هي فقط التي لابداية لها ولا نهاية.

هذا العالم كائن حي واحد، وهو يحاكي النموذج الواحد الأبدي (الباري سبحانه).

ومادة هذا العالم من طبيعة خاصة (الأثير) لايعتريها الكون والفساد، وهو صادر عن النفس الكلية التي تصدر أفعالها بالإرادة.

قال أفلوطين «إن الكائن الحي الواحد، ليست له سوى إرادة واحدة، بينما له قوى كثيرة لكل منها موضوع مختلف، وإن حوادث العالم الأرضي، تتم متعاطفة مع الأشياء السماوية، فالنجوم ذاتها، عندما تغير مواقعها، تختلف الأثار الناتجة عنها، وكذلك الحال في النجم الواحد إذا تغير موضعه»[٣١].

عالم ماتحت فلك القمر (عالمنا الأرضي):

الأرض ساكنة في مركز العالم، وهي المكان الطبيعي له. وهي مكونة من التراب أثقل العناصر. وهي غير متحركة، رغم أنها كروية الشكل.

لقد استدل يحيى النحوي على الصلة بين كتابي أرسطو كتاب السماء، وكتاب الكون والفساد من خلال عبارة أرسطو في آخر كتاب السماء «والآن انتهينا من بحثنا في الثقيل والخفيف والظواهر التي ترتبط بهما». وقوله في أول الكون والفساد «إن بحثنا التالي دراسة الأشياء التي تكون وتفسد. ولذلك يلزمنا التمييز بين عللها والنسب التي توجد عليها [٣٢] ، هذه هي ملاحظة ثابت بن قرة أثناء شرحه لكتابي أرسطو المذكورين.

المذاهب الفلسفية التي فسرت الكون والفساد:

انقسم الفلاسفة والشراح إلى خمسة مذاهب:

١ ـ الذين أنكروا الكون والفساد:

وحجتهم أن العناصر الأربعة، لاتفسد جواهرها. ولايوجد شيء منها، من حيث طبيعته بل إنه مركب من الطبيعة التي تنتسب إليها، ومن طبائع أخرى، وغلبة بعض العناصر وسيادته، يفسره الحس بأنه قد استحال. ومثالهم على ذلك:

النار لاتكون من شيء، إذ أن الكامن منها يبرز، ويبدو للحس أنه ظهور لاحدوث. وقد فصل ذلك ثابت في رسالته في تولد النار بين حجرين. قال:

إن النار ذات طرفين، طرف منها متصل بالهواء، وطرف منها متصل بالنور والضياء، وذلك أن النار إذا قدحت، خرجت من احتكاك الأجسام، بحدوث ذلك القرع في الهواء. واتصلت بالأجسام، وأكلتها وأحرقتها وزالت بزوالها. والأجسام

كلها نيران بالقوة جامدة، فإذا أصابتها نار بالفعل، صارت نيراناً بالفعل، والدليل على ذلك أنها كلها يمكن أن تحرق بالنار. هكذا حكم كل المأكولات والملبوسات نيران جامدة، كونت من العناصر الأربعة، وإليها تستحيل، بعد مفارقة النفوس لنا»(٣٣).

ومن العناصر المتممة للنار اللطافة التي تولدها الحرارة ثم تتلوها سرعة النفوذ في الأجسام الشفافة ثم اليبوسة. وهكذا اجتمعت في جرم النار عدة صور متممة (الحركة والحرارة واليبوسة واللطافة والنور). والحركة جوهرية في النار، فإن سكنت حركتها طفئت وبطل وجودها(٣٤).

٢ ـ الذين أقروا وجود الإستحالة ونفوا كون الأشياء:

هؤلاء قالوا: بعنصر واحد، إما نار وإما هواء وإما ماء وإما تراب.

فإذا كان العنصر ناراً، فإنه يمكن تكوين الأشياء عنه بما يسمونه التخلخل والتكاثف. بمعنى أن المادة الواحدة، تغير كيفي بهذه المادة، وإذا قيل: ما العلة في أن الياقوت لايذوب ولايحترق في النار؟ يجيب ثابت: فلأن أجزاء الياقوت، مائية غلظت وصفت بطول الوقت بين الصخور، وأنضجت واتحدت أجزاؤها ويبست فصارت لاتذوب في النار، لأنه ليس فيها رطوبة دهنية. وأما علة صفاء الياقوت فمن أجل أنه ليس فيه أجزاء ترابية مظلمة، بل كلها أجزاء مائية، قد غلظت وصفت ونضجت وجمدت ويبست، فلا تقدر النار على تفريق أجزائها لشدة اتحادها ويبسها.

٣ ـ الذين أنكروا وجود الكون وأثبتوا الإستحالة:

وهؤلاء افترضوا أكثر من عنصر واحد في الكون. وأكثر من عنصر واحد عملت في الإستحالة، ومن ذلك فعل الأجرام العلوية، في المركبات الموجودة، في عالم الكون والفساد.

قالت الحرانية: إن للأجرام السماوية، دوراً كبيراً، إذا كانت أموراً متبدلة لزمتها الحركة المكانية. فالشمس، تميل بحركتها إلى الشمال، فتبقى مدة على تلك الجهة، لادائمة على سمت واحد بل متكررة إتباعاً للحركة. ولو أنها بقيت دائمة، كما لو دام هجيرها وتأثيرها على جميع الأقاليم الأخرى. فلما كان للشمس ذلك النظام حركت العناصر إلى غذاء للنبات والحيوان. لانبعاث الحرارة والبرودة في الأجسام السفلية بقوى فاضت عن الأجسام العلوية.

٤ ـ مذهب الجوهر الفرد:

هؤلاء يضعون مبادىء الأجسام كلها أجراماً غير متجزئة، سواء من قال عنهم: بأن أشكالها متناهية، أو من قال منهم: بأن أشكالها غير متناهية، فأبيقور يقول بعدم تناهي الذرات في العدد، وهي متناهية في الأشكال.

ويعتقد الحرانية: أن الذرات ليس كون وفساد في طبيعتها، ولكن للمركبات منها كون وفساد بل يكون الكون في اجتماعها، والفساد باقترافها واستحالتها بافتراق الوضع و الترتيب لتلك الأجزاء في المجتمع فيها. وهكذا نراهم أقرب إلى التفسير المادي للطبيعة. وإلى الأخذ بفلسفة أبيقور.

٥ ـ مذهب الكمون:

المبدع الأول لهذا المذهب هو (أنكساغوراس) القائل: «بأنه لايمكن إرجاع الأشياء المركبة إلى عناصر بسيطة، إذ مهما بالغ المرء في تقسيم الأجسام. فإن التقسيم ينتهي دائماً إلى أجسام متجانسة، في الكل فالعظم في العظم واللحم في اللحم. ولكن أفلوطين نفى أن تكون حوادث الكون تعتمد على مبادىء بذرية، بل على مبادىء أشمل تنتمي إلى موجودات سابقة على المبادىء البذرية، وإن الاستحالة حين تكون علة للفساد، تقضي على الصورة، ولكن تترك المادة، وهذا لايحدث إلا لموجود مركب»(٣٥) وفي هذا الرأي تابعه ثابت بن قرة الحراني.

وفي الإسلام نسب مذهب الكمون إلى الفيلسوف المعتزلي إبراهيم بن نظام السيّار (المتوفي سنة ٢٣١ هـ). الذي جعل مذهب الكمون حجر الزاوية في مباحثه الطبيعية. قال: «بكمون بعض الأشياء في بعض، وأن العالم يتألف من أشياء متضادة، وأن أجزاء العالم تتألف من أركان مختلفة بطبعها، وبعضها كامن في بعض، وعلى ذلك يكون الجوهر مؤتلفاً من أعراض اجتمعت.

أما العالم فقد خلق دفعة واحدة، على ماهو عليه من معادن ونبات وحيوان، وكل ماهنالك هو أن المتأخر منه في الزمان كامن في المتقدم، فالتقدم والتأخر يقعان في ظهورها من كمون دون خلقها واختراعها، وعلى ذلك يكون كل شيء في كل شيء، دون الحاجة إلى فاعل الكون لإخراج بعضها من بعض، وتتميز بعضها من بعض»(٣٦). ومثاله على ذلك خروج أسنان الوليد بعد سنتين، وظهور علامات الرجولة في المراهقة.

ولكن ابن سينا عارض مذهب الكمون. وقد فسر الكون والفساد على أساس فكرة التداخل بدلاً من التمسك بالقول بأنه بروز عن الكمون. قال ابن سينا: «إنهم يقولون لااستحالة في الكيف وفي الصورة أيضاً، وأن الماء لايسخن في جوهره، بل فشت فيه أجزاء نارية، داخلية، ومايظن أنه برد فشت فيه أجزاء جمدية. ومن المستحيل أن يتكون الشيء عن اللاشيء، لأن الشيء كان موجوداً قبل تكونه والمتكوّن إنما هو البروز عن الكمون(٣٧). وكان ثابت يميل إلى مذهب الكمون.

علم حوادث الجو:

يبحث هذا العلم في معرفة كيفية، تغيرات الهواء، بتأثير الكواكب، وبحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان، وانفعالاتها، وخاصة الهواء، فإنه كثير التلون، والتغير من النور والظلمة، والحر والبرد، وتصاريف الرياح، والضباب والغيوم والأمطار والثلوج، والبروق والرعود، والشهب والصواعق، والمذنبات، وقوس قزح والهالات، وماشاكلها، مما يحدث فوق رؤوسنا من التغيرات والحوادث.

ذكر ابن النديم في الفهرست أثناء ترجمته (ابافروطيطوس) أن له من الكتب، كتاباً قرأه بخط يحيى بن عدي، كتاب تفسير كلام أرسطوطاليس في الهالة، وقوس قزح نقله ثابت بن قرة الحراني(٣٨).

كما ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء، كتاباً تعليمياً آخر لثابت بن قرة الحراني، وضح فيه كيفي نبغي أن يسلك إلى نيل المطلوب من المعاني الهندسية. ذكر فيه الآثار التي تظهر في الجو، وأحوال أخرى كانت تظهر في الهواء، مما رصده ثابت لبني موسى بن شاكر(٣٩). درس في ذلك الكتاب عدة ظواهر منها الهالة، وكرة النسيم، وقوس قزح، والشهب والمذنبات، وكيفية حدوث الرؤية البصرية. وسأعرض لها مفصلاً عند ذكرها.

الهالة HALO:

الهالة حلقة خافتة من الضوء، تُشاهد حول الشمس، أو القمر وتشبه قوس قزح. وهي ظاهرة ضوئية، تتسبب عن الإنعكاس والإنكسار في بلورات الثلج الدقيقة السابحة في الطبقات العليا. وهذه البلورات سداسية الشكل وتعمل بمثابة موشورات تكسر الضوء الأبيض، وتفرقه إلى طيف(٤٠). جاء هذا الوصف في موسوعة علمية حديثة.

بينما قال ثابت: الهالة دائرة تحدث فوق سطح الغيم، من إنعكاس شعاع الشمس

أو القمر والكواكب. وعندما تكون حول الشمس أو القمر، فإنها تدل على المطر ورطوبة الهواء، وذلك أنها تحدث في أعلى سطح كرة النسيم، وقت مايرتفع البخار إلى هناك ويتألف منه الغيم.

وعلة الهالة أن النيرين إذا أشرقا على ذلك السطح انعكس شعاعهما من هناك إلى فوق، وحدث من ذلك الإنعكاس، دائرة كما يحدث من إشراقهما على سطح الماء. ويشف رسم تلك الدائرة من تحت ذلك الغيم الرقيق، كما يشف من وراء البلور والزجاج، ويكون مركز تلك الدائرة مسامتاً للبقعة التي يمر به المسقط الخارج من مركز النيرين إلى مركز الأرض(٤١).

كرة النسيم (الغلاف الجوي) Stratosphere:

تقع فوق منطقة الرياح. توجد طبقاتها السفلية على إرتفاع (١١) كم تقريباً. ومكوناتها الرئيسية هي الآزوت، والأكسجين، وثاني أكسيد الفحم، وبخار الماء، وبعض الغازات النادرة، بنسب ضئيلة، وتتناقص كثافتها حتى تصل إلى الصفر عند محيط الغلاف الخارجي، كما تتناقص درجة حرارتها حتى إرتفاع (١١) كم وبعدها تظل درجة الحرارة ثابتة.

أما قول ثابت عن كرة النسيم «أما سطح كرة النسيم، مما يلي الأرض. فتبين أنه متداخل الأجزاء إلى عمق الأرض، بحسب تخلخل الأجزاء الأرضية، إلى نهاية ما. ثم يقف ولايدخل أكثر من ذلك، والدليل على ذلك مايعرض لحافري المعادن إلى أسفل، حتى أنهم ربما يحتاجون لترويح النسيم هناك بالمنافيح والأنابيب من المعادن لتضيء سرجهم هناك. فمتى انقطع النسيم العارض، اختنق من كان في المعادن (المناجم) فمات. ولايمكن أن يكون في المواضع التي لا يخترقها النسيم حيوانات. وإن أكثر مايكون سمك النسيم (١٦) ألف ذراع ارتفاعاً في الهواء، وأقله مايطابق سطح الأرض. وإن أعلى جبل يوجد في الأرض لايجاوز ارتفاعه في الهواء هذا المقدار. (من كتاب سبب خلق الجبال).

قوس قزح Rain Bow:

هو عبارة عن تأثير لوني، يشاهد عندما ينعكس ضوء الشمس، من قطرات المطر، فينكسر ضوء الشمس عند مروره خلال تلك القطرات، وتتشتت ألوانه. قد يظهر قوس آخر معكوساً إلى جانبه. وقد يرى قوس قزح عند ظهور القمر بدراً في السماء،

وسقوط الأمطار في جزء آخر، وعندها لايرى من الألوان إلا الأحمر والأصفر.

أما عند ثابت وفي رسائل إخوان الصفا: إن قوس القزح، هو نصف محيط دائرة، ترى في الجو المعتدل، مما يلي وجه الأرض، ولايكون وضعه إلا منتصباً قائماً، وحده الأعلى مما يلي سطح الزمهرير وحدية السفليان، مما يلي وجه الأرض، ولايكاد يحدث إلا في طرفي النهار في الجهة المقابلة لموضع الشمس، مشرقاً أو مغرباً. ولايرى منها إلا أقل من نصف الدائرة، إلا أن تكون الشمس في الأفق سواء، فإنها عند ذلك ترى في نصف محيط الدائرة سواء لأن الخط الخارج، من مركز جرم الشمس يمر مماساً يلي وجه الأرض، ومركز هذه الدائرة، فيرى القوس قائماً منتصباً مستوياً. وإذا كانت الشمس مرتفعة فإنها ترى، أقل من نصف محيط الدائرة، وكلما كان الإرتفاع أكثر، كان القوس أقل وأصغر، لأن القوس يكون مائلاً منحطاً إلى الجهة المقابلة لموضع الشمس، وإن بين وتر هذا القوس، وبين قطره دائرة الهالة نسبة متساوية.

ماعلة حدوث هذا القوس؟. علته أنه عند إشراق الشمس على أجزاء ذلك البخار الرطب الواقف في الهواء، وإنعكاس شعاعها منه إلى ناحية الشمس.

وما علة أصباغ هذا القوس؟. الأصباغ التي ترى في القوس أربعة مطابقة لكيفيات الأركان الأربعة. وكلما كانت الألوان مشبعة دلت على ترطيب الهواء وكثرة العشب والكلأ. وظهورها منذرة بريف الزمان وخصبه. وأما ترتيب ألوانها، فإن الحمرة تكون فوق الصفرة، والصفرة دونها والزرقة دون الخضرة، فإن وجدت قوساً آخر دونها، فإن ترتيب الألوان فيه عكس ألوان القوس السابق. وأكثر مايرى قوس القزح، في يوم الضباب وفي البلدان القريبة من سواحل البحار(٤٢).

المذنبات Comets:

المذنب جرم سماوي خفيف، مكوّن من نواة كروية ثلجية عملاقة، مؤلفة من الجليد، ومواد صلبة، وجزئيات عضوية، ولها ذيل شفاف، يختلف طوله من ميل إلى ملايين الأميال.

كان أرسطو يعتقد أن المذنبات التي تراها، لاتتحرك ضمن جو الأرض، فهي أبعد من القمر ودون كوكب زحل. وقد وصفها بطليموس حسب أشكال ذيلها الشفاف فقال عنها: «إنها حزم أشعة، وأبواقاً، وجراراً»(٤٣) وكان البابليون يظنونها أن لها (لحى سماوية) وتصورها الإغريق شعراً جارياً، وهي تأتي مقرونة بالحروب والطقس الحار، والأحوال المضطربة»(٤٤).

لقد رصد مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) ظهور علامات مخيفة في الشرق، تحمل أشعة مضيئة، تبعث منها شبه جداول بيضاء كأضواء ساطعة، بعضها شكل المكاسح، وللبعض الآخر شبه الرماح، أو شبه ديدان طويلة، كما يوجد في مؤخرة البعض، مايشبه الكواكب، ويظهر غيرها تحتها أو إلى جانبها، وكأن لها شعراً، لهذا دعاها اليونان «مذنبات». وهي تقف وترى وتتحرك في جميع أجزاء الفلك خلال أيام معروفة معلومة[٤٥] ثم قال: «قد يكون حدوثها من قبل الله لتخويف الناس أو علامة حدوث أمر ما في المستقبل، وقد كان رصده هذا المذنب عام (٦٨٤) وهذا يتطابق وموعد ظهور مذنب هالي.

اعتمد ثابت في وصفه للمذنبات على تفسير أرسطو لها. قال: الكواكب ذوات الأذناب التي تظهر في بعض الأحايين، قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها، فإنها لاتحدث إلا في كرة الأثير قريباً من فلك القمر، والدليل على ذلك دورانها مع فلك القمر تارة، بالتقدم على التوالي في دائرة البروج. وأما مادتها التي تتكون منها، فهي دخان وبخار لطيفان يصعدان إلى هناك فينفدان بقوة زحل وعطارد. وتكون شفافة كشفيف البلور، إذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر، فلا تزال تدور مع الفلك وتطلع وتغيب حتى تضمحل وتتلاشى. كل هذه الحوادث ترى في الهواء. وهي - إما بشارات من الله بالرخص والخصب والسلامة للناس والحيوان. - وإما إنذارات وتخويفات من الحدثان بالجدب والقحط. وذلك أن الله ليجعل العباد والمكلفين يعتبرونها ويرتدون عن معصية الله.

ذكر العالم الأمريكي كارل ساغان أن هذا الإعتقاد نجده عند إسحق نيوتن الذي قال عنها: «أظن أن الأرواح تأتي بصورة رئيسية من المذنبات، التي هي الجزء الأصغر والأكثر فائدة في الجو المحيط بنا، من أجل الحاجة الماسة أن تستمر حياة كل الأشياء لدينا»[٤٦]. هذا الإعتقاد هو نفس إعتقاد صابئة حران.

الشهب والنيازك Shooting star:

الشهاب قطعة صغيرة من مادة صلبة، تدخل في الغلاف الجوي للأرض مندفعة مبدعة هالة، تجعلها تتوهج، نتيجة للإحتكاك الشديد، إذ تتراوح سرعتها مابين (٨ - ٤٥) ميلاً في الثانية، ولايرى الشهاب إلا للحظة.

قال تعالى: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح، وجعلناها رجوماً للشياطين» (سورة الملك: ٥). ولايرى الشهاب إلا للحظة في السماء، وقد يصطدم بالأرض كما حدث

في ٣٠ حزيران ١٩٠٨ في منطقة (تونغوسكا) في سيبيريا، عندما شوهدت كرة نارية كبيرة في السماء، أضاءت شوارع لندن، وأحدثت حريقاً هائلاً في الغابات قدرت مساحته بحوالي (٢٠٠٠) كم٢، وهذه هي النيازك التي لم يعرفها القدماء.

كانت هذه الشهب تخيف الناس، وقال مار يعقوب الرهاوي: «وفي الليالي تظهر في الجو شهب نارية، مضيئة، تتطاير في مختلف الجهات، كسهام طائرة يحسبها كثير من السذج، كواكب سيارة. وهي تكون عندما يريد الله المدبر، أن يجري تغييرات في سلطات الشعوب، وتكون بمثابة تأديب، وتخويف للكثير من الذين يخشون مثل هذه المناظر»[٤٧].

وهي عند الحرانية: تحدث الشهب قريبة من الأرض، بعيدة عن فلك القمر، وهذا سبب سرعة حركتها فإنها في لحظة تمر من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق، فلو كانت هذه قريبة من فلك القمر، لما رأيت حركتها بهذه السرعة. وإذا حدث فمرت قريبة مقبلة على الناظرين، وجازت على سمت رؤوسهم إلى الجانب الآخر ذاهبةإلى الأفق بسيرها على الرؤية، يخيل للناظرين أنها وقعت إلى الأرض، وليس الأمر كذلك لأنها مادة خفيفة تطلب العلو، ولايزدها إشتعالها إلا خفة. فأما التي تقع منها إلى الأرض فهي التي تحدث في كرة النسيم، فيضغطها السحاب ويردها إلى أسفل كنار البرق التي يضغطها السحاب من فوق إلى أسفل»[٤٨].

نلاحظ من النصوص السابقة التي أوردتها عن القدماء أنهم كانوا يجهلون المادة التي تتكون منها الشهب «فهي عندهم مادة خفيفة». أو هي «كنار البرق». غايتها إما أن تكون رجوماً للشاطين أو لتخويف الناس. ما عدا الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس الملطي (٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق. م) فإنه لاحظ سقوط كتلة كبيرة من الشهب في نهر إيجوس مما دعاه إلى القول: إن النجوم تتكون من صخور ساخنة متوقدة، وإن كنا لانحس حرارتها، لبعدها عنا، ثم علل سبب هذه الحرارة سرعتها الكبيرة، فاعتبر رأيه هذا تجديفاً نحو الآلهة، لأن السماء والنجوم مكوّنة من مادة أثيرية لطيفة. وسجن لرأيه هذا في أثينا ثم هرب من السجن بمساعدة صديقه الحاكم بركليس.

كيفية حدوث الرؤية أو الإبصار:

عالجت الفلسفة اليونانية، هذا الموضوع، فمن أبحاث النفس، باعتبار البصر أحد الحواس الخمس. وخصه أفلوطين بالمقال الخامس من التساعية الرابعة. بعنوان «في الإشكالات المتعلقة بالنفس في الإبصار». واستمر هذا الإشكال دون حل في الشروح

الفلسفية في مدارس الاسكندرية والرها حتى القرن التاسع الميلادي على أيدي العلماء العرب.

قال أفلوطين: إن الإبصار، ككل حاسة، يتم بتوسط جسم، عندما تتحد النفس عن طريق تبادل التأثير الذي يقوم بينها وبين الأشياء الخارجية. وذكر ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول - لأفلاطون وأتباعه:

قالوا: قوام الإبصار، هو ضم الضوء المنبعث من العين، إلى الضوء الذي يقوم بينها وبين الشيء المحسوس، فلا بد من وسط هو الضوء.

وتساءلوا: ما علاقة الضوء الملامس للعين، بالضوء الذي فيها، وبالضوء الذي يمتد من العين إلى الشيء المحسوس؟ فتبيّن لهم: أن العين لاتحتاج إلى ضوء خارجي معترض لترى بوجه عام، بل لترى عن بعد، لأن الحياة تدب في ضوء العين إذا امتدت النفس إليه، مثلما تدب الحياة في النور الكائنة خارج العين، إذ تدركه ملكة الإبصار(٤٩).

المذهب الثاني - لأرسطو والمشائين:

قالوا: إن النظرة هي شعاع مضيء، يخرج عن العين في خط مستقيم. وبنوا رأيهم على ملاحظاتهم للأحياء.

وقالوا: ما يمكننا أن نلمسه من الحيوانات، ذات العيون اللامعة، كعيون الأسود والأفاعي في الظلام، فالضوء يخرج من عينيها، كما نرى حشرات لها نار مركزيّة في باطنها، فإذا انفتحت الأجنحة لمعت في الظلام، وإذا طويت لم يظهر النور(٥٠).

المذهب الثالث - لأفلوطين وأتباعه (أصحاب فكرة الصور أو الأشباح):

قالوا: إن الصور تعبر الخلاء شريطة أن لايوجد تحت وسط، وعقبات فيه حتى لاتتوقف الصور.

وقالوا: إن المرء لايرى الشيء، وهو قريب من العين، أكثر مما ينبغي، لأن الشيء يجلب معه، ظل الهواء وظله هو. كما أن الضوء الصادر عن الجسم هو فعل للجسم المنير الذي يتبدى في الخارج. والضوء لايحدث اللون، بل ينير سطح الأشياء التي يضيئها فحسب. والنفس تظل في ذاتها تستخدم الضوء كأنه عصا تساعدها على السير نحن الشيء المنظور. وإن الإدراك فعل عميق يرجع إلى مقاومة الشيء وإلى تواتر الضوء. ومن الأدلة الناصعة عندهم على ذلك. أن صور الأشياء لاتنتقل إلى البصر

بواسطة الهواء الذي تنتقل إنطباعاته تدريجياً. لأننا نرى النار والنجوم بصورها في الليل وظلمته. ولن يقال إنها وردت على العين ولمستها من خلال الظلمة، وإنما تم الإبصار بسبب تعاطف الكل الحي مع ذاته، وتعاطف أجزائه معه هذا هو شرط وحدة الإبصار[٥١].

أعاد تأريخ هذه المسألة ابن سينا في كتابه العظيم الشفاء، وخصصها بالمقالة الثالثة من الفن السادس من الطبيعيات. وذكر المذاهب الثلاثة السابقة:

المذهب الأول: يرى أن شعاعات خطية، تخرج من البصر على هيئة مخروط يلي رأس العين، قاعدته الشيء المُبصر، وإن إبصار الشيء هو نقل السهم فيه. مستندين إلى الحجة التالية: إنما جاز في سائر الحواس، أن تأتيها المحسوسات، ولايمكن أن يكون هذا في البصر، لأن الأعراض لاتنتقل. فإذا كان الضوء على هذا، فبالحري أن تكون القوة الحاسة ترتحل إلى موضوع المحسوس لتلاقيه، ومحال أن تنتقل القوة إلا بتوسط جسم يحملها، ولا يكون هذا الجسم إلا لطيفاً من جنس الشعاع أو الروح، وهذا موجود في العين[٥٢].

المذهب الثاني: يرى أصحابه أن الشعاع قد يخرج من البصر على هيئة مخروط إلا أنه لاتبلغ قاعدته أن تلاقي نصف كرة السماء إلا بالانتشار، وهذا يوجب انتشار الرؤية، لكنه إذا خرج واتصل بالهواء المضيء صار ذلك آلة له وأدرك بها.

وهؤلاء استنكروا أن يكون جسم مثل العين، يسع من الشعاع مايتصل خطاً واحداً، بين البصر والكواكب الثابتة. كما استنكروا أن يتحرك هذا الشعاع الخارج في زمان غير محسوس حركة من العين إلى الثوابت، بنسبة زمان حركة شيء بينه وبينك ذراعان، فلا بد أن يكون بين الزمانين اختلاف.

قال ابن سينا. (فنعم ماقاله المعلم الأول (يعني أرسطو) حين قال: لأن يمتد المُبصر من سعة إلى ضيق فيجتمع فيه ليكون ذلك أعون فيه على تحقيق صورته من أن يخرج الرائي من العين منتشراً في السعة[٥٣].

المذهب الثالث: (وهؤلاء يرون أن المحسوسات، لايكون إدراكها بأن يرد عليها شيء من الحواس، متصلاً بها أو مرسلاً إليها. كذلك الإبصار، ليس يكون بأن يخرج شعاع البتة، فيلقى المُبصر بل أن تنتهي صورة المُبصر إلى البصر، ولايمكن أن يعرض، زمان غير محسوس، قصراً، أو أكثر، فيكون الزمانان اللذان بينهما البعد كلاهما غير محسوسين.

ويقولون: إن الشبح (الصورة) يقع على القطع الواقع على المخروط الموهوم عند

سطح الجليدية الذي رأسه في داخل العين، فإن كانت الزاوية أكبر لأن الشيء أقرب كان القطع أعظم، والشيء الذي فيه أعظم، وإن كانت الزاوية أصغر لأن الشيء أبعد كان القطع أصغر والشيء فيه أصغر.

ولكن أصحاب المفاهيم السابقة يردون عليهم: إن المرايا تشهد بوجود هذه الشعاعات وانعكاساتها[٥٤].

جرت بعض التعديلات على هذه التصورات عند يحيى النحوي (المتوفي ٥٣١ م) في مدرسة الاسكندرية.

وعند السريان عند سرجيوس الراسعيني المتوفي (٥٣٦) م. قربت مفهوم كيفية حدوث الرؤية إلى الصورة التي أخذها عنهما حنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني وأبي بكر الرازي الذين جعلوا هذا الموضوع جزءاً من الطب (علم الفيزيولوجيا) وخصوه بالعين. بينما أخرجه ابن الهيثم من حيز الطب إلى علم البصريات وكتب عنه بدقة علمية متناهية.

وسأعرض الصورة التي استعارها إخوان الصفا عن ثابت بن قرة «في كيفية إدراك الباصرة لمحسوساتها». قالوا: إن النور والظلمة، يسريان في الأجسام المشفّة كسريان الروح بالجسد، وينسلان منها يلازمان، ولكن الضوء إذا سرى في الأجسام المشفّة حمل معه ألوان الأجسام حتى يبلغها أقصى غايتها عند القوة الباصرة، المستبطنة في الرطوبة الجليدية، التي في الحدقتين اللتين هما أحد الأجسام المشفة، وهما مرآتا الجسد وهما رطوبتان مغطاتان بغشائين شفافين، هما غشاء القرنية. فإذا سرى الضوء في الأجسام، وحمل معه ألوان الأجسام الحاضرة، واتصل بحدقتي العين الحاضرة هناك وسرى فيهما، كُسِرَ كما في سائر الأجسام المشفّة. إنطبعت الجليديّة بتلك الألوان، كما ينطبع الهواء بالضياء، فعند ذلك تحس القوة الباصرة بذلك التغير فيؤدي خبره إلى القوة المتخيلة، كما تؤدي سائر القوى الحساسة أخبار محسوساتها.

وقالوا: وقد ظن أكثر أهل العلم أن إدراك البصر للمبصرات، إنما يكن بشعاعين يخرجان من العينين، وينفذان في الهواء، وفي الأجسام المشفّة، ويدركان هذه المبصرات. وهذا ظن من لارياضة له بالأمور الطبيعية ولو ارتاض فيها لبان له صحة، ماقلنا وماوصفنا»[٥٥].

وهكذا نجد العرب أول من وصف عملية الرؤية، وصفاً علمياً دقيقاً.

المراجع:

١ ـ مشكلات مابعد الطبيعة. ص ٧٦.

٢ ـ المصدر السابق ص ١٥.

٣ ـ المصدر السابق ص ٧٦.

٤ ـ المصدر السابق ص ٨٠.

٥ ـ أسس المعارف الفلسفية ص ٤٣ أفاناسييف دار التقدم موسكو ١٩٧٩.

٦ ـ مشكلات مابعد الطبيعة.

٧ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٨٤.

٨ ـ المدخل من الشفاء ص ١٠ لابن سينا.

٩ ـ الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص ٢٥. د. محمد عاطف العراقي دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

١٠ ـ الآثار الباقية ص ٢٦٢ لأبي الريحان البيروني.

١١ ـ رسائل إخوان الصف ج ٢ ص ٩٣.

١٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢.

١٣ ـ شرح كتاب المحصل ص ١٣٦.

١٤ ـ تاريخ الحكماء ص ١١٧ نشر ليبرت ليبزيغ ١٩٢٣.

١٥ ـ المعتبر في الحكمة ج ١ ص ٥٩ أبو البركات البغدادي ـ حيدر آباد الدكن ١٣٥٨هـ.

١٦ ـ الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٤٤ المرزوقي الأصفهاني حيدر آباد الدكن ١٩٤٥م.

١٧ ـ كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٦.

١٨ ـ تاريخ الحكماء ص ١١٧.

١٩ ـ موسوعة الفلسفة ج ١ ص ٥٥٦ د. عبد الرحمن بدوي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥.

٢٠ ـ رسائل الرازي الفلسفية ص ٦٩ تحقيق بول كراوس القاهرة ١٩٣٩.

٢١ ـ كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٧.
٢٢ ـ الموسوعة الإسلامية ج ١٠ ص ٣٨٤.
٢٣ ـ الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٤٨.
٢٤ ـ الموسوعة الإسلامية ج ١٠ ص ٣٩٣.
٢٥ ـ التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٣٥ تحقيق د. فؤاد زكريا وزارة الثقافة القاهرة ١٩٧٠.
٢٦ ـ اعترافات القديس أوغسطين ص ٢٥٧ ترجمة يوحنا الحلو المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٢.
٢٧ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١٢.
٢٨ ـ تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٩٥ البيروني حيدر آباد الدكن ١٩٥٥.
٢٩ ـ المباحث الشرقية ج ١ ص ٦٦ ـ ٦٧ فخر الدين الرازي، حيدر آباد الدكن ١٩٢٤.
٣٠ ـ آراء الفلاسفة المسلمين في الحركة ص ٤٦ مصطفى نظيف مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم القاهرة ١٩٤٢.
٣١ ـ التساعية الرابعة لافلوطين ص ٢٦٣.
٣٢ ـ كتاب الكمون والفساد لأرسطو ص ١٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن بدوي القاهرة.
٣٣ ـ عيون الأنباء ص ٣٠٠ لابن أبي أصيبعة د. نزار رضا بيروت ١٩٦٢.
٣٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٦٠.
٣٥ ـ التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٦٩.
٣٦ ـ تفسير مابعد الطبيعة لأرسطو ج ٣ ص ١٤٩٧ لابن رشد تحقيق الأب بويج المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٢.
٣٧ ـ الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص ٣٧٩.
٣٨ ـ كتاب الفهرست لابن النديم ص ٣١٤.
٣٩ ـ عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٩.
٤٠ ـ موسوعة الثقافة العلمية ص ٣٩٧ دار الكتاب الجديد القاهرة ١٩٦٤.

٤١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٧٦ ـ ٧٧.
٤٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٧٧ ـ ٧٨.
٤٣ ـ الكون ص ٦٩ كارل ساغان ترجمة نافع أيوب لبس كتاب عالم المعرفة (١٦٧) ١٩٩٣.
٤٤ ـ المصدر السابق ص ٦٩.
٤٥ ـ الأيام الستة (الهكساميرون) ص ٥٧ يعقوب الرهاوي ترجمة المطران صليبا شمعون دار الرها حلب ١٩٩٠,
٤٦ ـ الكون ص ٧١.
٤٧ ـ الأيام الستة ص ٥٦.
٤٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٣.
٤٩ ـ التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٨٥.
٥٠ ـ المصدر السابق ص ٢٩٠.
٥١ ـ المصدر السابق ص ٢٨٤.
٥٢ ـ كتاب الشفاء لابن سينا ص ١١٤ نشر مكتب الدراسات الجامعية بيروت ١٩٨٥.
٥٣ ـ المصدر السابق ص ١٤٤.
٥٤ ـ المصدر السابق ص ١١٥.
٥٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

الباب الثالث

إخوان الصفا هم صابئة حران

الفصل الأول ـ إخوان الصفا (التاريخ والعقيدة).

الفصل الثاني ـ هل الرسائل من إنتاج الفكر الإسماعيلي أم الحراني؟

الفصل الثالث ـ الفارابي وصابئة حران وإخوان الصفا.

الفصل الرابع ـ أهم المرتكزات النظرية والمواضيع الفكرية في الرسائل.

الفصل الأول
إخوان الصفا (التاريخ والعقيدة)

إخوان الصفا... من هم؟ وما حقيقة دعوتهم؟:

إخوان الصفا، دعوة فلسفية ظهرت في القرن الرابع الهجري في بغداد في سوق الوراقين، بباب الطاق تجاه باب البصرة. وقد أغفلت هذه الرسائل من أسماء مؤلفيها، مما جعلها عرضة لكثرة الظنون.

والسؤال الملح في هذا البحث. كيف ومتى ظهرت هذه الرسائل؟. للإجابة على هذا السؤال لابد من ذكر الظروف التاريخية والإجتماعية التي ارتبطت بها.

إن أقدم النصوص التاريخية التي أرخت لرسائل إخوان الصفا، ما ذكره أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) في مجلس الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة البويهي (٣٧٣هـ - ٩٨٤ م) وكان ذلك الوزير رجلاً مثقفاً، كان مجلسه يضم علماء من مختلف العقائد والملل والإختصاصات، فيهم الفيلسوف والطبيب والمهندس والفلكي والأديب والمؤرخ والشاعر، وفيهم المسلم والمسيحي والمجوسي والصابيء والزنديق. وكانوا كلهم يتراشقون سهام الجدل فيما بينهم. بينما كانت العراق في حالة فتن واضطراب. قال الرحالة المقدسي البشاري عنه: «إنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى الوراء، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء»[1].

ومن الشخصيات العلمية البارزة في ذلك المجلس، الفيلسوف أحمد بن يعقوب مسكويه (ت ٤٢١هـ).

ووهب بن يعيش الرقي، وأبي الخطاب الصابيء الكاتب، وأبو إسحاق الصابيء الحراني (ت ٣٨٤ هـ).

وأبو الوفاء البوزجاني (٣٩٠ هـ) المهندس الفلكي العظيم، والفيلسوف المترجم نظيف بن يمن الرومي، وغيرهم آخرون.

قال الوزير صمصام الدولة لأبي حيان: حدثني عن شيء هام خطر على بالي، إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً ومذهباً لا عهد لي به، وكناية عمالاً أحقه،

وإشارة إلى ما لا يتوضح منه شيء. يذكر الحروف ويذكر النقط، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا بسبب، والتاء لم تنقط من فوق إثنين إلا لعلة، والألف لم تعرَّ إلا لغرض وأشباه هذا. فما حديثه؟. وما شأنه.؟. ومادخلتّه.؟ وماخبره.؟. فقد بلغني أنك تغشاه، وتجلس إليه، وتكثر عنده، وتورّق له، ولك معه نوادر مضحكة، وبوادر معجبة. ومن طالت عشرته لإنسان، صدقت خبرته به وانكشف أمره له، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه، وخافي مذهبه وعويص طريقته؟.

قال أبو حيان: أيها الوزير.. أنت الذي تعرفه قبلي، قديماً وحديثاً بالتربية، والإختبار والاستخدام وله منك الآصرة القديمة والنسبة المعروفة.!

قال الوزير: دع هذا وصفه لي؟.

قال أبو حيان: هناك ذكاء، غالب وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، ومتسع في فنون النظم النثر مع الكتابة البارعة، في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات.!

قال الوزير: فعلى هذا. مامذهبه؟.

أجاب أبو حيان: لاينسب إلى شيء، ولايعرف برهط لجيشانه، بكل شيء وغليانه مع كل باب، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادق بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي. صحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت العشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة، والنصيحة. فوضعوا بينهم مذهباً، زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، والمصير إلى جنته. وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك أنها حاوية للحكمة الإعتقادية، والمصلحة الإجتهادية. !وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة العربية، فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في أجزاء الفلسفة (علميّها وعمليّها) وأفردوا لها فهرستاً وسموها (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء)، وكتموا أسماءهم وبثوها في الوراقين، ولقنوها الناس، وادعوا أنهم مافعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله، عز وجل، ليخلّصوا الناس من الآراء الفاسدة، التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة، التي تضر أصحابها والأفعال المذمومة، التي يشقى بها أهلها. وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة، والطرق الموهمة.

قال الوزير: هل رأيت هذه الرسائل؟.

أجاب أبو حيان: رأيت جملة منها مبثوثة من كل فن نتفاً، بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات، وقد غرق الصواب فيها، لغلبة الخطأ عليها. وقد حملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام ت ٣٧٠ هـ) وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً واختبرها طويلاً، ثم ردها إليّ قائلاً: تعبوا وأفنوا وغنوا وما أطربوا، ونسجوا ففلفلوا، ومشطوا فغلغلوا. ظنوا مالايكون ممكن ولايستطاع. ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطي، والمقادير والآثار الطبيعية، والموسيقى التي هي معرفة النغم، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات، والكميات والكيفيات في الشريعة، وأن يضمّوا الشريعة للفلسفة. وهذا مراد دونه حدد، وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد نياباً، فلم يتم لهم ما أرادوا، وحصلوا على لوثات قبيحة، وألقاب موحشة، وعواقب مخربّة وأوزار مثقلة[٢].

قال أبو حيان: فسأله أبو العباس البخاري: ولِمَ ذلك ياشيخ؟. فأجابه أبو سليمان:

لأن الشريعة مأخوذة عن الله، من طريق الوحي وظهور المعجزات، وليس في حديث الشريعة، حديث المنجم في تأثير الكواكب، ولا حديث صاحب الطبيعة وآثارها، ولا فيها حديث المهندس الباحث عن مقادير الأشياء، ولا حديث المنطقي الباحث عن مراتب الأقوال. فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصّبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة، في طريق الشريعة؟ على أن وراء هذه الطوائف جماعة لهم مآخذ هذه الأغراض، كصاحب العزيمة، وصاحب الطلسم وعابر الرؤيا، ومدعي السحر وصاحب الكيمياء، ومستعمل الوهم. والرسول الكريم قال: «من أتى عرافاً، أو طارقاً، أو حازياً أو كاهناً أو منجماً، يطلب غيب الله منه، فقد حارب الله»[٣].

قال أبو حيان: الشريعة مأخوذة بالوحي، والفلسفة من العقل الذي هو موهبة من الله، والعقل لايدرك مايعلوه وليس كذلك الوحي. فالنبي فوق الفيلسوف، لأن النبي مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه»[٤].

ولكن الوزير. استنكر قول أبي حيان، ماسمعت شيئاً من هذا من المقدسي؟.

أجاب أبو حيان: بلى!. قد سمعت منه هذا، وما أشبهه في أوقات كثيرة بحضرة (حمزة الوراق) وقد سألته. فسكت ومارآني أهلاً للجواب. ولكن الحريري غلام ابن أبي طرّادة هيجّه يوماً في الوراقين بمثل هذا الكلام!

فقال المقدسي: الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء. وغاية مدبر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حفظ فقد أفاده كسب الفضائل، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وصار مستحقاً للحياة الإلهية، من الخلود والديمومة السرمديّة(٥). والشريعة عامة، والفلسفة خاصة، وهما متطابقتان.

قال الحريري: لِمَ جمعتم رسائل إخوان الصفا ودعوتم النار إلى الشريعة؟؟ وهي لاتلزم إلا للعامة! ولِمَ تقولوا للناس؟ من أحب أن يكون من العامة فليتحلَ بالشريعة؟؟. وحشوتم رسائلكم بآيات من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلول عليها بالشريعة. ثم أن الشريعة مدلول عليها بالمعرفة. حدثني أيها الشيخ على أي شريعة دلت الفلسفة؟ أعلى اليهودية أم على النصرانية أم على المجوسيّة أم على الإسلام أم ما عليه الصابئون؟.

أفتقول: إن الفلسفة أباحت لكل طائفة، من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين، الذي نشأت عليه؟ إنك من أهل الإسلام. أين كان الصدر الأول من الفلسفة؟ أعني الصحابة والتابعين وماعندي، أن الأئمة، الذين يأخذ عنهم، ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس وأفلاطون وسقراط، رهط الكفر ذكروا في كتبهم، حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القدّاحين في الإسلام، الساترين على أنفسهم ماهم فيه، من التهم وهذا بعينه دبّره (الهجريّون) بالأمس، وبهذا دندن الناجمون (بقزوين)، وبثوا الدعاة في أطراف الأرض(٦).

قال المقدسي: الناس أعداء ماجهلوا، ونشر الحكمة في غير أهلها، يورث العداوة، ويطرح الشحناء، ويقدح زند الفتنة(٧).

قال الوزير: ماعجبني من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان (المنطقي) في هذا الاستحقار والتعصب، وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عدي النصراني (ت ٣٦٤هـ). ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير كتبهم بغاية الإتقان».

قال أبو حيان: إن شيخنا أبو سليمان، غزير البحر لايغلق عليه في الأمور الروحانية، والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية. وقد رأيت صاحباً لأبي بكر محمد بن زكريا المتطيب (ت ٣١٣هـ). في هذه الأيام، ورد من الري. يقال له أبو غانم الطبيب، يُشادّه في هذا الموضع، ويضايقه، ويلزمه القول بما يلزم به على الخصم. وإذا أذنت، رسمت كلامهما في ورقات.

قال الوزير: قد بان الغرض، الذي رمى إليه، والوقوف عليه كافٍ(٨).

نجد مما مرّأن رسائل إخوان الصفا قد ظهرت في القرن الرابع الهجري، في مجتمع متعدد الثقافات، متباين الأجناس والعقائد، في مجتمع بغداد. كان فيه من الحريَّة الفكرية الشيء الكثير، فيه فلسفة أبي بكر الرازي وأبي زيد البلخي، اللذين قالا بتحكيم العقل في كل الأمور، مما قادهماإلى القول بعدم ضرورة النبوة طالما أن العقل يوصلنا إلى مظان الوحي، وفيه فلسفة أبي الخطاب الصابيء، وأبي إسحق الصابيء، وهما من المتعصبين للمذهب الحراني، وأصحاب الديانة النجومية يقولان ماتقوله رسائل إخوان الصفا، ويجعلان الفلسفة هي المخلّصة للإنسان من ظلام الجهالة، وهي التي ترتفع بالعقل إلى مقام الألوهية.

بالإضافة إلى الفلسفة الإسلامية، التي تحاول جاهدة، أن توافق بين العقل والنقل أو بين الشريعة والفلسفة، كمذهب الفارابي في التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وبين الفلسفة والدين، ومدرسة أبي سليمان السجستاني. قال دي بور «نجد نزعة الفارابي المنطقية تستحيل إلى فلسفة لفظية، وترى الجدل، يدور حول تحديد المعاني، والتدقيق في التمييز بينها، وكانت تبحث إلى جانب هذا مسائل متفرقة في كلام الفلاسفة المتقدمين، ومن فروع العلم من غير نظام يؤلف بينها ولايكاد يبدو لهذه المباحث شأن يستحق التنويه، ونرى مسألة النفس الإنسانية تستأثر بالمكان الأول، كما كان الحال عند إخوان الصفا غير أن هؤلاء إنما عالجوا عجائب أفعال النفس، على حين أن أهل المنطق، كانوا ينظرون في جوهرها العقلي، وفي العروج بها إلى العالم الأسمى.. وكانت جماعة السجستاني (يعني أبي سليمان) تتلاعب بالألفاظ والمعاني، بينما كان إخوان الصفا يتلاعبون بالأعداد والحروف، وكانت الصوفية نهاية لكلا الطرفين»[٩].

إن أول من ذكر الرسائل في تاريخ الأدب العربي أبو حيان التوحيدي، بل إنه قد أعطانا فكرة وافية عنها، وصوّر الجو الثقافي الذي أحاط بها، وأوحى لنا أن مؤلفيها، هم زيد بن رفاعة وجماعته، ولكن الوزير صمصام الدولة نفى ذلك.

لِمَ لم يذكر هذه الرسائل أحد قبل أبي حيان؟ لِمَ لم يذكرها شيخ الوراقين ابن النديم؟. هل كان أبو حيان أميناً في نسبته الرسائل إلى زيد بن رفاعة وجماعته؟. انقسم الباحثون حول أمانة أبي حيان التوحيدي. فالبعض يشك في صحة مايرويه، لأن له سابقة في الوضع كما ثبت في رسالة السقيفة، وأعتقد آخرون بصحة أمانته وتجرده في كل ما أودعه كتبه»[١٠]. وهو حين يذكر عدد الرسائل يقارب الحقيقة، وكذلك حين يصف مضمون الرسائل، ولكن نسبته الرسائل إلى زيد بن رفاعة وجماعته، ربما قال بهذا ليخفي أسماء مؤلفيها الذين كانوا معه في بلاط صمصام الدولة، إن فلسفة

الرسائل هي عين فلسفة الحرانية أصحابه أمثال وهب بن يعيش الرقي وأبي الخطاب الصابيء وأبي اسحق الصابيء (إبراهيم بن هلال ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م). وكان إمام الكتابة الرسل في زمنه، قال عنه آدم متز «مفخرة النثر العربي»[١١].

إن أسلوب رسائل إخوان الصفا، تشبه كتابته في سلاستها، وعذوبة لفظها، وكان متعصباً لدينه وقد عرضت عليه الوزارة إن أسلم فأبى[١٢]، وظل طول حياته يعتنق دين الصابئة، ولكن كان رضي الخلق يحبه الجميع. فلما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة من عيون الشعر العربي، وكان مما يؤلمه أن يرى ديانته تتلاشى في الذوبان أمام عينيه. ولا أستبعد أن يكون وجماعة له من الصابئة قد دسوّا تلك الرسائل في الوراقين بعد أن كيّفوها مع الفكر الإسلامي، وبقية الديانات السماوية الأخرى، وقد ضمنوها موروث الصابئة الفكري، ومعظمها اعتمدت كتابات ثابت بن قرة الحراني.

كان أبو حيان التوحيدي، يميل إلى الفكر الفلسفي الأفلوطوني الحديث، وكان ينسب أقواله وحكمه لأناس قد ماتوا من قبل. لكي يفلت من رقابة الدولة، ورجال الدين، مما دعا ابن الجوزي للقول عنه «إنه أحد الزنادقة الأربعة في الإسلام».

وحول مدرسة أبي سليمان السجستاني الفلسفية، قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون:

«إنهم أرادوا أن يوفقوا بين العلم والدين على بساط التصوف، فمزجوا بين آراء الفلاسفة ورموز الحلاج، وأن الغموض في كتاباتهم مقصودة، لأن من عادة الفلاسفة حماية أفكارهم بالرموز، والإصطلاحات على شاكلة الفرق الباطنية»[١٤]. وهذه الطريقة تعود إلى أيام فيثاغورس. الذي حاول تفسير العالم ومافيه برموز العدد، وكان يقول إن للمعاني قشوراً ولباً. وتابعهم أفلاطون الذي كان أحد أفراد نحلتهم السرية، ولكنه عندما خشي على فلسفته من الزوال والتلاشي كتبها، في أسلوب رمزي، صيانة لها من العامة والاندثار معاً. وقد وضع ثابت بن قرة كتاباً بيَّن فيه لِمَ يلغز الناس في كلامهم؟ بيَّن فيه أن لكل فلسفته باطن وظاهر، وللخاصة المعنى الباطن، وللعامة المعنى الظاهر، وفي الديانة للعامة المعنى الظاهر، وكان الحرانية، يموهون بإظهارهم للدين الإسلامي، وإظهار الشهادة.

قال ابن الجوزي: «إنهم كانوا يقولون: (لا إله إلا الله) وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول (لا إله إلا الله). قال ابن زيد»[١٥]. ثم قال وهؤلاء لاينكرون البعث». وقد اتبع أبو نصر الفارابي طريقتهم عندما اتبع المذهب الأفلاطوني الحديث، ومزج بين

رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وهذا مانراه مبثوثاً في رسائل إخوان الصفا. قال عنه دي بور «وهنا نرى مدرسة الفارابي، تزول زوالاً واضحاً، وكما أن الفلسفة الطبيعية، تحولت إلى علوم، تجري وراء الأسرار، وكما أن مدرسة الكندي، رغبت عن الفلسفة إلى فروع الرياضيات، والعلم الطبيعي كذلك. وجرت حول الأسرار الباطنية.

وهذا هو المنهج الذي أتبعه إخوان الصفا في رسائلهم، فما هي حقيقة فلسفتهم، وما علاقتها بالإسلام، أو بالديانات الأخرى. قال إميل برهيه (١٨٧٨ - ١٩٥٣): لايكفي البتة حقيقة أي فلسفة، ذكر المذاهب التي تقول بها وحسب، بل الأمر الأكثر أهمية، هو فحص الروح الحقيقية، التي تدعم بها هذه الفلسفة مذاهبها الخاصة، وذلك بدراسة النظام الفكري الذي تنتمي إليه تلك الفلسفة»[١٦].

خص الدكتور عادل العوا كتاباً عن (حقيقة إخوان الصفا) قال فيه إن النظام الذي تنتمي إليه هذه الرسائل هو الدين الإسلامي. وذكر أخطاء الباحثين الجسيمة التي اقترفت بحق إخوان الصفا، وكان الأجدى بهم أن يستلخصوا من نقص المعلومات التاريخية، عن هؤلاء الإخوان التعمق بدراسة نصوص رسائلهم التي وضعوها لتحمل نداءهم العاجل الملح إلى الشباب، من جميع الأوساط ومختلف الفرق في كل الديانات، للأنضواء تحت رايتهم لبلوغ هدفهم الأسمى»[١٧].

سأعرض هذه الرسائل على كل الديانات والنحل، التي تعرضوا لها في رسائلهم.

ماعلاقة إخوان الصفا بالديانات المعاصرة لهم؟:

مع أن إخوان الصفا، كانوا أناساً لاتعصب لديهم، إلا أن الدارس لرسائلهم، يجدهم يفضلون بعض الديانات على بعض. وقبل أن أذكر ماهي الديانة المفضلة لديهم سوف أذكر الديانات التي يعتبرون أهلها من أصحاب الآراء الفاسدة، ومن هذه الديانات مايلي:

الديانة اليهودية:

قال الإخوان عنها: «إن الله وإن اصطفى من خلقه آدم أبا البشر وأولاده ومن ذريته نوحاً وإبراهيم خليل الله، ومن ذريته إسرائيل، ومن ذريته، موسى بن عمران، كلمه وناجاه وأعطاه، آية اليد البيضاء، والعصا والتوراة، وفلق له البحر وأغرق فرعون عدوه، وجنوده وأنزل على آل إسرائيل في التيه المن والسلوى، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم مالم يؤت أحد من العالمين.

ولكن صاحب العزيمة (في مأدبة الحيوان والإنسان)، ردّ على الرجل اليهودي الذي عدد فضائل بني إسرائيل قائلاً: نسيت ولم تقل، منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، وضربت عليكم الذلة والمسكنة والخزي لكم في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم»[١٨].

من هذا النص نستدل مدى إحتقار إخوان الصفا، لهذه الديانة، فهم ليسوا منها، ولا إليها يميلون، وهي ليست من الديانات الناجية، وأصحابها من أصحاب الآراء الفاسدة.

الديانة المسيحية:

في المأدبة التي أقامها صاحب العزيمة، قام رجل سرياني من آل المسيح وقال: الحمد لله الذي اتخذ من العذراء البتول جسد الناسوت، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيده بروح القدس وأظهر على يديه العجائب.. وجعل في قلوبنا رحمة ورأفة، ورهبانية فله الحمد والشكر والثناء. ولكن أصحاب الرسائل قالوا عن أتباع السيد المسيح «ومن أصحاب الآراء الفاسدة، من يرى أن بارئه وإلهه الروح القدس، الذي قتله اليهودوصلبت ناسوته، وذهب لاهوته فتركه مخذولاً»[١٩]. نستدل من ذلك أن إخوان الصفا لا علاقة لهم بالديانة المسيحية، وأصحابها من أصحاب الآراء الفاسدة.

المجوسية والمانوية:

المجوسية هم أتباع زرادشت، وهؤلاء يعتقدون أن للعالم صانعين، أحدهما خير فاضل (أهورا مزدا) والآخر شرير رذل، وهو إله الشر (أهرمان) وهذان الإلهان متجاوران، مختلطان، متنازعان، وكل واحد مخالف للآخر في شيء، أو أشياء، حول الدهر أو الزمان[٢٠].

وكان مما سنّه زرادشت، عبادة النار والصلاة إلى الشمس، يتأولون فيها أنها ملكة العالم، تحيي النبات والحيوانات، وترد الحرارات إلى أجسادها، وأن السماء جلد من جلود الشياطين، وأن الأرض لانهاية لها من أسفلها[٢١]. ومما نصَّ عليه زرادشت، أن للعالم قوة إلهية، هي المدبرة لجميع ما في العالم المنتهية، مبادئها إلى كمالاتها، وهي القوة التي تسمى (مشاسبند)، وهي على لسان الصابئة: المدبر الأقرب، وعلى لسان الفلاسفة العقل الفعّال، ومنه الفيض الإلهي، والعناية الربانية. وعلى لسان المانوية (الأرواح الطيبة) وعلى لسان العرب، الملائكة، وعلى لسان الشرع (الروح)[٢٢]. ولكن أصحاب الرسائل اعتبروهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

أما المانوية فهم أتباع ماني (٢١٥ ـ ٢٧٦). وهؤلاء يعتقدون، أن العالم محدث مصنوع، وأن له علتين قديمتين أزليتين مختلطتين، وأن الشرور، تجري في عالم الكون والفساد، وأن هناك فاعلين، أحدهما نور (خير)، والآخر ظلمة (شر)، ويعتقدون أن إحدى العلتين، فاعل وهو النور، والآخر منفعل به وهو الهيولى.

وقال ماني إن الله واحد، يعرف بثلاثة أقانيم، (أقنوم الله ويسمى برقليطوس)، وأقنوم الخير ومعدن النور والصلاح، وهو ذاهب علواً بلا نهاية، والأقنوم الآخر، هو الهيولى معدن الجهل والظلمة، والفساد، وعليه فإن الكون شرير. وقالوا: بتناسخ الأرواح، وأنكروا قيامة الموتى[٢٣]. وحكى عنهم أبو عيسى الوراق (محمد بن هارون) وكان عارفاً بمذاهب القوم: إن الحكيم ماني زعم، أن العالم مصنوع، مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان، لم يزالا، ولن يزالا وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وهما متضادان وفي الحيز متحاذيان، تحاذي الشخص والظل[٢٤].

وزعم زعيمهم أبو سعيد المانوي (أن الذي مضى من المزاج إلى الوقت الذي هو فيه وهو سنة (٢٧١ هـ) أحد عشر ألفاً وسبعمائة سنة، وأن الذي بقي إلى وقت الخلاص (٣٠٠سنة) وعندها يتم الخلاص الكلي وانحلال التراكيب وذلك في سنة ٥٧١هـ[٢٥]. ولم يتحقق قولهم.

كان إخوان الصفا يعتبرون أصحاب الديانتين السابقين، من أصحاب الآراء الفاسدة.

أصحاب الدهر:

وهؤلاء يعتقدون أن العالم قديم لاصانع له ولا مدبر، وهؤلاء لايرجون بعد الموت خيراً. وهؤلاء طائفتان:

- أهل الآراء الفاسدة الظاهرة التي ألفوها وأنسوا بها.
- وأهل الآراء الفاسدة الباطنة، التي أسروها وأستجنوا بها، وإخوانهم وأتباعهم وتلامذتهم وشيعتهم، الذين يَقْفُون آراءهم ويسلكون مذاهبهم.

قال إخوان الصفا: ومن هؤلاء من لايرون العالم محدث مصنوع له صانع واحد حكم ولكنهم لايرون البعث والنشور ولا القيامة والحشر ولا لقاء ربهم وشعارهم حياتنا الدنيا نموت ونحيا[٢٦]. وهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

ما علاقة أخوان الصفا بالمذهب السني الإسلامي؟:

كان إخوان الصفا يحقدون على الدولة، لأنها دولة أهل الزمان، ويتنبؤون بانهيارها، طبقاً لعلم النجوم، وماذلك إلا لأن الدولة والدين توأمان، والأيدلوجية التي تتبناها الدولة العباسية هي المذهب السني. قالوا: ونرى أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنه قد تناهت دولة أهل الشر، وظهرت قوتهم وكثرت أفعالهم، في هذا الزمان، وليس بعد هذا التناهي إلا الإنحطاط والنقصان: وأعلم أن الدولة والملك، ينتقلان في دهر وزمان ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن بلد إلى بلد»[٢٧].

قال الدكتور جبور عبد النور: «إن إخوان الصفاكانوا بانتظار القران الأوسط، الذي يتم عندما ينتقل هذان الكوكبان (زحل والمشتري) من مثل إلى آخر ويتم هذا الأمر بعد (٢٤٠) سنة وعند ذلك يحدث التبديل، وإذا فرضنا أنهم يعنون بذلك حكم العباسيين الذي بدأ عام ١٣٢هـ واضفنا إليه مدة (٢٤٠) عاماً يعتبرونها ضرورية لاكتمال القران الأوسط. تبيَّن لنا أنهم عينوا تاريخاً لحدوث هذه الثورة الإنقلابية حول (٣٧٢هـ). وهو تاريخ، يتأخر قليلاً عن ابتداء الدعوة (الإسماعيلية)، ويتفق مع ماتتطلبه من زمن لنشرها، وتصميمها في مختلف البلدان»[٢٨].

وإذا بلغ الدور العقرب، ومدة ذلك (٣٣٠) سنة وأربعة أشهر، يحل بالعالم مصائب لاتحصى، وتسقط هيبة السلطان، الذي في يده زمام الشريعة، ويطمع سائر الملوك به، ويصير الحكم عند ذلك لدولة إخوان الصفا، وتكون مدة تسلطهم (١٥٩) سنة[٢٩]. وهذا التاريخ يصادف حوالي عام (٤٩٠هـ - ١٠٨٧م). وعند ذلك تقوم دولة أهل الخير، أو دولة إخوان الصفا.

أولها من قوم علماء، حكماء، وأخيار فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ويعقدون بينهم عقداً وميثاقاً، أن لايتجادلون، ولايتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً. ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصرة الدين، وطلب الآخرة، لايبتغون سوى وجه الله ورضوانه»[٣٠].

ولكن نبؤتهم لم تتحقق.

تحمل الرسائل في ثناياها عداء تاماً للإسلام، بكل مذاهبه، وتفرعاته وفرقه، وقد قالوا عنهم «وما مثلهم في ذلك إلا مثل الكلب، ينام في المعلف، فلا هو يأكل، ولا

يدع الخيل تأكل، حتى يموت هو وهي هزالاً. وقد روي عن الحسن عليه السلام قوله: «ياعلماء السوء، جلستم على باب الجنة، فلا أنتم تعلمون، فتستوجبون الجنة، ولا تركتم غيركم، يجوز، فيدخل الجنة»(٣١).

وقالوا: واعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة، وأن أهلها جم غفير، لايؤمن من غلوائهم، وهم جنود إبليس أجمعين. وأشدهم عداوة للحكماء، الطائفة الظالمة المجادلة المخاصمة، الذين يخوصون في المعقولات، وهم لايعلمون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات، ولايحسنون الرياضيات، ويتكلمون في الالهيات، ويجهلون في الطبيعيات، ويتصدرون في المجالس، ويتجادلون في أشياء لاتفيد علماً، ولاتتيح في الحكمة فائدة، مثل كلامهم في التعديل والتجويز والجزء الذي لايتجزأ، وماشاكلها من المسائل المموهة، المزخرفة التي لاحقيقة لها، ولا وجود إلا في الأوهام الكاذبة. وإذا سئلوا عن أشياء موجودة، مقدرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند الحكماء، وإذا استعصى عليهم السؤال والبحث أنكروها، وجحدوها، ولايأنفون أن يقولوا: لاندري. أو يقولوا: الله ورسوله أعلم. ويخوضون في طغيانهم وجهالاتهم، ويدعون فيها المحالات، ويعارضون بها العلماء والحكماء، ويشنعون عليهم مثل قولهم «إن علم الطب والنجوم باطل، وإن الكواكب جمادات، وإن الأفلاك لا وجود لتدبيرها، وإن علم الطب لامنفعة فيه، وإن علم الهندسة لاحقيقة له، وإن المنطق والطبيعيات كفر وزندقة، وإن أهلها ملحدون، ويدعون عليها المحالات، ويحكون عنها الخرافات ويقولون: هذا كلامهم ومذهبهم ورأيهم واعتقادهم. وإلى يومنا هذا ماروي، أن يهودياً، تاب على يد واحد منهم، ولانصرانياً أسلم ولا مجوسياً آمن بآرائهم»(٣٢) أظنهم جملوا كل المذاهب الإسلامية بما فيهم المعتزلة.

وفي الرسائل حوار بين الرجل الناجي، وهو من إخوان الصفا، والرجل الهالك، ويمثلون به الرجل المسلم الحنبلي ولطرافة الحوار سأورده:

قال الناجي للهالك: كيف أصبحت يافلان..؟.

قال الهالك: أصبحت في نعمة الله. طالباً للزيادة راغباً فيها حريصاً على جمعها، ناظراً لدين الله، معادياً لأعداء الله محارباً لهم.

قال الناجي: ومن هم أعداء الله؟.

قال الهالك: كل من خالفني في مذهبي واعتقادي.

قال الناجي: وإن كان من أهل لا إله إلا الله.؟.

قال الهالك: نعم.!

قال الناجي: إن ظفرت بهم، ماذا تفعل بهم؟.

قال الهالك: أدعوهم إلى مذهبي واعتقادي ورأيي.

قال الناجي: فإن لم يقبلوا منك؟.

قال الهالك: أقاتلهم، وأستحل دماءهم وأموالهم، وأسبي ذراريهم..

قال الناجي: فإن لم تقدر عليهم، ماذا تفعل؟.

قال الهالك: أدعوا عليهم ليلاً ونهاراً، وألعنهم في الصلاة تقرباً لله!.

قال الناجي: فهل تعلم، أنك إذا دعوت عليهم ولعنتهم، يصيبهم شيء؟.

قال الهالك: لا أدري. ولكن إذا فعلت ماوصفت لك، وجدت لقلبي راحة ولنفسي لذة، ولصدري شفاء.

قال الناجي: أتدري لِمَ ذلك؟.

قال الهالك: لا... ولكن قل أنت؟.

قال الناجي: لأنك مريض النفس، معذب القلب، معاقب الروح، لأن اللذة إنما هي خروج النفس من الآلام. ثم اعلم أنك محبوس في طبقة من طبقات جهنم.

قال الهالك: أخبرني أنت عن رأيك، ومذهبك، وحالك كيف هي؟.

قال الناجي: نعم ـ أما أنا، فإني أرى قد اصبحت من نعمة الله وإحسانه، لا أحصي عددها، ولا أودي شكرها، والخلق من جهتي في أمان، أسلمت لربي مذهبي وديني دين إبراهيم عليه السلام، وأقول كما قال: فمن اتبعني فإنه من الناجين ومن عصاني فإنك غفور رحيم»[٣٣].

من هذا النص، ندرك مدى حقد إخوان الصفا على المسلمين المتعصبين.

إخوان الصفا والمذاهب الشيعيّة والمعتزلة:

استخدم إخوان الصفا أسلوب التمويه باستشهادهم بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، مما جعلها مستساغة من كل المذاهب الإسلامية، إلا أن حيلهم تلك لم تخفَ على حجة الإسلام الغزالي، الذي أدرك خطر دعوتهم

باستدراجهم «قلوب الحمقى» بجملة من آيات القرآن وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الصوفية(٣٤). قال الغزالي محذراً من قراءة هذه الرسائل «إن من نظر في كتبهم فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها، وحسن إعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم. ولأجل هذه الآفة، يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر والخطر، كما يجب صون من لايحسن السباحة عن مزالق الشطوط(٣٥).

وقد أعطى الغزالي حكماً صائباً عن مصدر هذه الرسائل قال: وحاصل علمهم شيء من ركيك فلسفة فيثاغورس المحكي، في كتاب إخوان الصفا، وهو على التحقيق «حشو الفلسفة»(٣٦).

الشيعة إحدى الفرق الإسلامية التي تأخذ تعاليمها من كتاب الله وسنة نبيه الصادقة المروية عن أهل البيت وتعاليمهم. وفي الشيعة مذاهب معتدلة، كالمذهب الإمامي الإثني عشري، والمذهب الزيدي، وهؤلاء لايختلفون عن المذاهب السنية إلا ببعض الفروع دون الأصول. وهناك مذاهب مغالية حكمت العقل في أمورها العقائدية، وأخذت بالفكر الفلسفي، والتراث الإنساني في طقوسها وعقائدها مما جعلها تبدو ـ أحياناً ـ مخالفة للإسلام في نظر المذاهب السنية والشيعية معاً.

ومن أهل الآراء الفاسدة في نظر إخوان الصفا المذاهب الشيعية التالية:

الكيالية:

أتباع أحمد بن كيال، كان شيعي المذهب، ولكنه أبدع مقالة، عاند بها الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فتبرأمنه، ولعنه، وترك مخالطته، فأدعى أحمد بن كيال الإمامة لنفسه، ثم ادعىأنه القائم بأمر الله.

وكان يدعي: أن كل من قدر الآفاق على الأنفس، وأمكنه أن يبيّن مناهج العالمين، ـ أعني عالم الآفاق (العلوم العلوي). وعالم الأنفس (العالم السفلي). كان هو الإمام. وكل من قرر الكل في ذاته، وأمكنه، أن يبيّن كل كلي في شخصه المعين الجزئي، كان هو القائم. وأن الأنبياء، هم قادة أهل التقاليد، وأهل التقليد عميان، والقائم قائد أهل البصيرة، وهم أولو الألباب(٣٧). وحملة الميزان. وكان يطلق الصراط على نفسه والجنة هي الوصول إلى علمه.

فما رأي إخوان الصفا بهم؟

قالوا عنهم: «والكيتالية في متسعاتهم، وليس هذا مذهب إخواننا الكرام أيدهم الله وإيانا بروح منه، حيث كانوا في البلاد، بل نظرهم كلي، وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع، ومعرفتهم شاملة، وهم من أهل الآراء الفاسدة»(٣٨).

المعتزلة:

ذكر القفطي «أن رسائل إخوان الصفا هي من تضيف بعض متكلمي المعتزلة»، ربما دعاه ذلك ماجاء في رسائل إخوان الصفا، من وصف إخوانهم «أهل العدل وأبناء الحمد»، وهذه سمة يتصف بها المعتزلة دون غيرهم ولكن القفطي، عدل عن ذلك الرأي. قال: «ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها، حتى وقفت على كلام لأبي حيان التوحيدي»(٣٩). وفيه نسبهم إلى جماعة بصرية، وهذا مادعا الأستاذ أحمد أمين إلى القول إن دعوتهم انطلقت من البصرة، بفضل ماسبقها من فكر فلسفي كان للمعتزلة في ترقية العقل، ورفع مستواه في المملكة الإسلامية، وإنهم كانوا السباقين الأوائل، الذين شقوا الطريق، لمن أتى بعدهم من أمثال إخوان الصفا، وفلاسفة المسلمين»(٤٠) وإلى مايشبه ذلك الرأي قال المستشرق الإسباني (أسين بلا سيوس): إن الفكر الحر لدى المعتزلة ممتزجاً بالتلفيقية الشيعية، قد أنجبت بالبصرة في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة سياسية فلسفية، أطلق أتباعها على أنفسهم إخوان الصفا، وخلان الوفا، وقد أيده المستشرق الإنكليزي نيكلسون حينما اعتبر أن الإخوان فرعاً معتزلياً ليبرالياً(٤١).

ولكن التدقيق في نصوص الرسائل يدعونا إلى رفض تلك الآراء، فهم يهاجمون المعتزلة وشخصيتهم الفلسفية البارزة إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٦م) الذي ناقش فيها الهيولى والصورة والكمون والنقلة والطفرة، والجزء الذي لايتجزأ. قال الإخوان: «واعلم أن في الناموس أقواماً يتشبهون بأهل العلم، ويتدلسون بأهل الدين لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يحققونها، ويدعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء، ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم، التي هي أقرب الأشياء إليهم، ولايميزون الأمور الجليلة ولايتفكرون الموجودات الظاهرة المدركة بالحواس المشهورة في العقول، ثم ينظرون في الطفرة والنقلة والجزء الذي لايتجزأ، وماشاكلها من المسائل في الأمور المتوهمة، التي لا حقيقة لها في الهيولى وهم شاكون في الأشياء الظاهرة الجلية، ويدعون فيها المحالات بالمكابرة، في الكلام والحجاج في الجدل، مثل دعواهم أن قطر المربع مساوٍ لأحد أضلاعه، وإن النار لاتحرق، وإن شعاع

البصر جسم، يبلغ في طرفه العين إلى فلك الكواكب، وإن علم النجوم باطل، وماشاكل ذلك من الزور والبهتان. فاحذروهم يأخي فإنهم الدّجالون الذلقون الألسن، العميان القلوب، الشاكون في الحقائق، الضالون عن الصواب، ويدعون مالايعرفون، ويتكلمون فيما لايحسنون»[42]. إن نقد إخوان الصفا للمعتزلة، مستمد من نقد أبي بكر الرازي لهم. وهم عند إخوان الصفا من أصحاب الآراء الفاسدة.

المذهب الإثنا عشري وإخوان الصفا:

قال القفطي: «ولما كتم مصنفوها أسماءهم، اختلف الناس في الذي وضعها، وكل قول قالوا: بطريق الحدس والتخمين، الواضع لها اختلافاً لايثبت لها حقيقة»[43]. وقد نفى ذلك محمد بن عثمان الذهبي (المتوفي ٧٤٥هـ) قال: إن قوماً زعموا رسائل إخوان الصفا مأخوذة عن جعفر بن محمد (الصادق) (ع) وهي معمولة بعده بنحو مائتي سنة، عند ظهور دولة الباطنية الذين ملكو مصر، فأظهروا إتباع الشريعة، وأن لها باطناً مخالفاً. وباطن أمرهم الفلسفة، وعلى هذا وضعت الرسائل، وضعها جماعة قد ذكروا فيها مااستولى عليه النصارى من الشام»[44].

ربما دعاهم إلى ذلك قول الإخوان: «ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام، وأهل بيته الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين»[45]. ويقولون: «وما يجمعنا وإياك حرفة الأدب، والخروج من جملة العوام، وهو العماد لما نحن بسبيله ونشير إليه، وهو دين النبيين، ومذهب الربانيين والأحبار، الذين استحفظوا في كتاب الله من الأسرار المكنونة، التي لايمسها إلا المطهرون، وهم أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»[46].

إن الإخوان يقولون بهذا القول لأنهم أظهروا رسائلهم في وسط شيعي أيام الدولة البويهية، وكانوا يلمّحون دائماً بنصف الحقيقة، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، وكانوا دائماً يلغزون بكلامهم إتباعاً لمبدأ التقية.

قالوا: إن من خواص إخواننا الفضلاء، أنهم العلماء بأمور الديانات، العارفون بأسرار النبوات، المتأدبون بالرياضات الفلسفية، فإذا لقيت أحداً منهم، وأنست منه رشداً، فبشره مما يسره، وذكره باستئناف دور الكشف، والإنتباه، وانجلاء الغمة عن العباد، وذكّر من وثقت بهم من إخواننا، بما ألقينا إليك من علمنا، وأخرج إليهم من رسائلنا، ماترغب نفوسهم فيه وترتاح إليه، على ذلك النظام، والترتيب كما بينا لك»[47].

وقد فصلوا في مذاهب الشيعة التي كانت معاصرة لهم، وقد جعلوا التشيع مكسباً لهم مثل النائحة والقصاص، لايعرفون من التشيع إلا التبري والشتم، والطعن واللعنة والبكاء مع النائحة، وحب المتدينين بالتشيع، وترك طلب العلم، وتعلم القرآن والتفقه بالدين، وجعلوا شعارهم لزوم المساجد، وزيارة القبور كالنساء الثواكل، يبكون على فقدان أجسادنا، وهم بالبكاء على نفوسهم أولى»[٤٨] وهؤلاء لايدرون حقيقة مايقرون به وصحة مايعتقدونه.

ومنهم من يقول: «إن الإمام المنتظر مختفي من خوف المخالفين، وهؤلاء من أهل الآراء الفاسدة، والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقد بها، وهذا الرأي والاعتقاد يكسب صاحبه غيظاً على القاتل، وحنقاً على المقتول، حُزناً وغماً، ثم يبقى طول العمر متألماً منتظراً الهادي المختفي من خوف المخالفين. قال الإخوان: اعلم أن صاحب هذا الرأي يبقى طول عمره منتظراً خروج إمامه، متمنياً لمجيئه، ثم يُفني عمره، ويموت بحسرة وغصة، لايرى إمامه، ولايعرف شخصه، كقول دعبل الخزاعي:

ألمْ ترَ أني مذ ثلاثين حجةً أروح وأغدو دائم الحسراتِ[٤٩]

كانت فرق الشيعة في أيام ظهور الرسائل عديدة، وهي متصارعة فيما بينها، رغم أنهم كلهم يقرون، أن الأنبياء خزان علم الله، وأن خلفاءهم الأئمة المهديون وارثون علم النبوات، لكنهم لايدرون حقيقة مايقرون، ولا تصديق مايعتقدون. قال الإخوان: «أعيذك أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه أن تكون منهم بل كن هادياً مهدياً رشيداً طيباً رقيقاً لإخوانك وأصدقائك وجيرانك، ترشد الضال، وتبرىء الأكمه والأبرص وتحيي الموتى بإذن الله»[٥٠]. هذه العبارات ذات معان دالة في المذهب الحراني فإحياء الموتى تنبيه الغافلين من رقدة الجهالة وتبصيرهم بأمور المذهب كما سنرى فيما بعد.

وكل المذاهب الشيعية بلا استثناء عندهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

المراجع:

١ ـ أحسن التقاسيم ص ١١٥ المقدسي تحقيق غازي طليمات دمشق ١٩٨٠.
٢ ـ من كتاب الامتاع والمؤانسة ص ٢٥٤ ـ ٢٥٩ أبو حيان التوحيدي تحقيق إبراهيم الكيلاني دمشق.
٣ ـ المصدر السابق ص ٢٦٢.
٤ ـ المصدر السابق ص ٢٦٤.
٥ ـ المصدر السابق ص ٢٦٦.
٦ ـ المصدر السابق ص ٢٧٣.
٧ ـ المصدر السابق ص ٢٧٤.
٨ ـ المصدر السابق ص ٢٨٤.
٩ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٢٧ دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة القاهرة ١٩٥٧.
١٠ ـ المقابسات ص ٤١ لأبي حيان التوحيدي تحقيق إبراهيم الكيلاني دمشق.
١١ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ١٨٣ آدم متز نقله محمد عبد الهادي أبو ريدة دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.
١٢ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٨.
١٣ ـ تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٣٨ طه حسين.
١٤ ـ المقابسات ص ٢٩ ـ ٣٠.
١٥ ـ تلبيس إبليس ص ٨٤ ابن الجوزي تحقيق خير الدين علي دار الوعي بيروت لبنان.
١٦ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٦ عادل العوا، دار الأهالي دمشق ١٩٩٣.
١٧ ـ حقيقة أخوان الصفا ص ٤١.
١٨ ـ رسالة الحيوان والإنسان ص ٨٣ ـ ٨٤.
١٩ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٣٥.
٢٠ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦١.

٢١ ـ تلبيس إبليس ص ٨٥.
٢٢ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ٤٨ الشهرستاني تحقيق عبد العزيز الوكيل القاهرة ١٩٦٧.
٢٣ ـ كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة ص ٢٧٣ اغابيوس بن قسطنطين المنبجي تحقيق لويس شيخو الأباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٧.
٢٤ ـ الملل والنحل ج ٢ ص ٤٩.
٢٥ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩.
٢٦ ـ رسائل إخوان الصف ج ٣ ص ٥٢٤.
٢٧ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨١.
٢٨ ـ إخوان الصفا ص ٢٣ د. جبور عبد النور دار المعارف القاهرة ١٩٧١.
٢٩ ـ الرسالة الجامعية ج ٢ ص ١٢٦.
٣٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢.
٣١ ـ المصدر السابق ص ٥٣٦.
٣٢ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٣٥.
٣٣ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٢ ـ ٣١٣.
٣٤ ـ المنقذ من الضلال ص ٣١ الغزالي تحقيق محمد محمد جابر القاهرة.
٣٥ ـ المصدر السابق ص ٣٢.
٣٦ ـ المصدر السابق ص ٤٢.
٣٧ ـ الملل والنحل ج ١ ص ١٨٣.
٣٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢١٧.
٣٩ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ٨٢.
٤٠ ـ ضحى الإسلام ج ١ ص ٧٥ أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٦.
٤١ ـ مقدمة رسائل إخوان الصفا المطبوعة في القاهرة ص ٥ سنة ١٩٢٨.
٤٢ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٥٠ ـ ٥١.
٤٣ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ٨٢.

٤٤ ـ كتاب المنتقى ص ١٨٣ للذهبي نشر محب الدين الخطيب دمشق.
٤٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٩٥.
٤٦ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٧.
٤٧ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٦.
٤٨ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٨.
٤٩ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٣.
٥٠ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٣.

الفصل الثاني

هل الرسائل من إنتاج الفكر الإسماعيلي أم الحراني؟

منذ ظهور الرسائل في القرن التاسع عشر في بعض البلدان الأوروبية، وعلى أثر نشر المستشرق الفرنسي ستانسيلاس غويار S. Guyard (١٨٤٦ - ١٨٨٤) مقتطفات منها تتعلق بعقائد الإسماعيلية في باريس ١٨٧٤، قال: إن هذه الرسائل تعود إلى أوائل الملحدين في الإسلام، وهي ذات طابع إسماعيلي، وربما استخدموها في أدبهم الديني والسياسي.

ترسخ هذا الرأي لدى الباحثين عرباً وأجانباً، قال المستشرق المجري أغناطيوس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١) «إن بدء الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية، هي نفسها التي بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية، في موسوعتها المصنفة واستنبطت من هذه الفلسفة أعمق نتائجها»[1]. وأكد ذلك المستشرق الفلسطيني بتدلي جوزي. قال: «إن الأفكار التي بثها دعاة الإسماعيلية، بين طبقات المسلمين، وغير المسلمين، كان من شأنها أن قلبت حياتهم رأساً على عقب، وأحدثت بينهم من التغيرماتزال آثاره باقية إلى هذا اليوم، فالفلسفة مديونة لهم برسائل إخوان الصفا، وهي أول دائرة للعلوم والمعارف، ظهرت في العالم»[2].

وجد هذا الرأي صدى طيباً لدى مفكري الإسماعيلية، قال الدكتور عارف تامر: «لقد سبق لي أن بينّت في أكثر من دراسة كتبتها عن الموضوع الذي نحن بصدده، أنه لايمكن للباحث في رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء مهما أوتي من علم وذكاء وفهم، أن يفي الموضوع حقه، وأن يسلك السبيل المؤدي إلى الهدف الأسمى، والغاية المثلى، مالم يضع نصب عينيه المصادر الإسماعيلية، التي تؤلف عنصر الموضوع، والتي هي متممة له، وذات ارتباط بفصوله وأبوابه وموضوعاته. هذه المصادر كانت مفقودة وبعيدة عن تناول أيدي العلماء، وإن ظهورها من كهف تقيتها، لم يتعد سنين عديدة، وهذا هو عذر الباحثين الذين لم يقدر لهم الإطلاع عليها، والتعمق في دراستها، ومقابلة نصوصها الفلسفية»[3]. كأن الرسائل طلسم مغلق، لامجال للكشف عن

معانيه وأسراره، إلا بعد إلمام الباحث بالفلسفة الإسماعيلية، التي صدرت عنها الرسائل. وللتدليل على صحة رأيه اتبع الباحث الكريم منهجين:

أولاً ـ دراسة البنية الداخلية:

قال الدكتور عارف تامر: «إن الإسماعيلية عرفت بالفرقة السبعيّة» لاعتمادها على العدد سبعة في تفسير مبادىء الكون. ويضرب لنا مثلاً على ذلك، أن عدد الرسائل من أجل حكمة دينية، هي عدد ركعات الأوقات الخمس (٥١) ركعة وأضافوا إليها «النية» التي لايجوز أن يقدم الإنسان على عمل شرعي دونها، والنيّة المتممة للصلاة ممثول الرسالة الجامعية)، التي هي زبدة رسائل إخوان الصفا والمتممة لها[٤].

سمّى إخوان الصفا إحدى الفرق العلويّة المغالية باسم (المسبعّة) لأنهم ذهبوا إلى أن النطقاء بالشريعة سبعة، وبين كل إثنين من النطقاء سبعة أئمة، ولابد في كل شريعة من سبعة يقتدى بهم في الكشف عن الأشياء السباعية، فظهر لهم منها أشياء عجيبة شغفوا بها، وأطنبوا في ذكرها، وأغفلوا ما سوى ذلك من المعدودات. فماذا قال عنهم إخوان الصفا في بحثهم عن الموجودات على رأي الفيثاغرويين. قالوا: وأما المسبعّات من الأمور الموجودة، تركنا ذكرها إذ كان قوم من أهل العلم، قد شغفوا بها وأطنبوا في ذكرها، وهي معروفة في أيدي أهل العلم»[٥]. ثم قالوا عنهم في موضع آخر «ولتعلم أن «المُسَبِعَّة» شغفوا بذكر المسبّعات على غيرها، إنما كان نظرهم جزئياً، وكلامهم غير كلي، وكذلك «الكيالية» في متسعاتهم. وليس هذا مذهب إخواننا الكرام أيدهم الله وإيانا بروح منه، حيث كانوا في البلاد إذ نظرهم كلي وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع ومعرفتهم شاملة»[٦]. نرى من هذا النص، أن إخوان الصفا يتبرأون من فرقة المسبعّة (أي الإسماعيلية).

وهناك فرق آخر بين أصحاب الرسائل والإسماعيلية، هو مسألة «الإمامة» فالإمام كما قال الدكتور عارف تامر في كتابه «الإمامة في الإسلام». أول حد من حدود الموجودات فهو المنبعث الأول والواحد بترتيب العدد (الواحد في المذهب الأفلاطوني هو الله)، وأول خلق الله، وأول خلق ظهر تعالى، وسمي العقل، لأنه المبدع، حصر في جوهره صور المبدعات كلها، كي لايذهب شيء منها. والعقل هو الأول في الوجود، والسابق في الوجود، كما وأنه أداة باطنة في الإنسان، فيه يبصر مايبطن»[٧]. وهو الصراط المستقيم. كما قال عنه الدكتور مصطفى غالب: «الإسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر، أن الأئمة من البشر، ولكنهم في التأويلات

الباطنية، يسبغون عليهم وجه الله، ويد الله، وجنب الله، وهو الذي يحاسب الناس يوم القيامة»[٨].

إذا كان الإمام في المذهب الإسماعيلي، هو العقل الكلي، بالنسبة للموجودات، فهو ليس كذلك عند إخوان الصفا بل هو لالزوم له، فسنة صاحب الشريعة تكفي لإرشاد البشر. قالوا: واعلم أن العقلاء الأخيار إذا انضاف إلى عقولهم القوة بواضع الشريعة (النبي أو الحكيم) فليس يحتاجون إلى رئيس يرأسهم، ويأمرهم، ويزجرهم، ويحكم عليهم، لأن العقل والقدوة لواضع الناموس، يقومان مقام الرئيس (الإمام)، فهلم بنا أيها الأخ نقتدي بسنة الشريعة، ونجعلها إماماً لنا، فيما عزمنا عليه»[٩]. فهل يعقل أن تكون الرسائل من وضع الإسماعيلية وفيها ينفون دور الإمام، لأن العقل وحده وبهديه وبسنة صاحب الشريعة لا حاجة للإمام.

قال الدكتور إحسان الهي ظهير: «لا ندري كيف يقول الإسماعيلية، أن كاتب رسائل إخوان الصفا هو الإمام الإسماعيلي أحمد بن عبد الله التقي، فكيف يخالفون رأيه إذا كان الإمام معصوم لايخطىء عندهم؟ (وهو ينفي دور الإمام) وهذا من الأدلة على أن الإمام المذكور لم يكتب هذه الرسائل[١٠].

إن البناء الداخلي لرسائل إخوان الصفا. لم يُسعف الدكتور عارف تامر بما يذهب إليه، فهذه الرسائل لا علاقة لها بالمذهب الإسماعيلي بتاتاً، بل المذهب الإسماعيلي اعتمدها لنصرة دعوته، بعد ظهورها وشيوعها بين أيدي الناس، وفي دكاكين الوراقين.

ثانياً ـ المنهج التاريخي في تحديد هوية الرسائل:

بعد ظهور الكتب الإسماعيلية من كهف تقيتها، استطاع الدكتور عارف تامرأن يحدد هوية الرسائل. قال: إن رسائل إخوان الصفا وضعت بمعرفة أحد الأئمة الإسماعيليين المستورين، أو بعض دعاته، أو حدوده الأربعة «الحرم» في عهد الخليفة المأمون (١٩٧ ـ ٢١٨هـ). مستنداً إلى ماذكره الداعية القرمطي عبدان، من أن الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ٢١٢هـ ـ ٨٤٨م) (عليه السلام)، هو مؤلف رسائل إخوان الصفا»[١١]. وعن هذا الداعية نقل الفقيه اليمني شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (ت ٨٣٤ هـ ـ ١٤٣١م) في رسالته الموسوعة (الموقظة). قال: «وَهَمَ المتسمي بالمأمون (يقصد الخليفة المأمون)، أن يَرُدَّ الأمة إلى دين القول بالنجوم، حتى ظهر ولي الله، وابن رسول الله، برسائل إخوان الصفا، وفيها ماتحير به جميع العالم من العلوم في كل فن، والاستشهاد على شريعة الرسول

وهو في كهف التقية مستتر، ودعاته الباقون مفرقون لتلك الرسائل في كل شهر (مدينة) وقطر[١٢]. يذكر النص أن غاية الإمام، كان إبعاد النجوم عن معتقدات الناس، ولكنه في الرسائل يدعو إلى ديانة نجومية، مما يقول به صابئة حران، الذين كانوا يؤلهون الكواكب، وبها يبررون عبادة الأصنام قالوا: إن بدء عبادة الأصنام عند الأمم، أولاً كان عبادة الكواكب، وبدء عبادة الكواكب كان عبادة الملائكة، وسبب عبادة الملائكة، كان التوسل بها إلى الله تعالى، وطلب القربة إليه... ولما علموا، أن ملائكته هم صفوته من خلقه، وخالص عباده، تقربوا إلى الله بهم وتوسلوا إليه بهم»[١٣]. هذا النص التاريخي غير صالح لإثبات هوية الرسائل للإمام التقي.

وأما النص الثالث فهو للمؤرخ اليمني إدريس عماد الدين (ت ٨٧٢ هـ ١٤٦٦م): في كتابه عيون الأخبار (ص ٢٢٩). قال: وقام الإمام التقي أحمد بن عبد الله بأمر الإمامة وبث دعاته في الآفاق من سلمية، وحين ظهر المأمون العباسي ووهم وسعى في تبديل شريعة محمد وتغييرها، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم اليونانيين، فخشي الإمام أن يميل الناس إلى مازخرف المأمون عن شريعة جده «ألف رسائل إخوان الصفا». لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة». إذا كانت غاية الإمام هي إبعاد الناس عن الفلسفة اليونانية جزاه الله خيراً وألف الرسائل كما ذكر لتلك الغاية، فالإخوان يقولون: وأما أولئك الحكماء، الذين كانوا يتكلمون في علم النفس قبل نزول القرآن الكريم، والإنجيل، والتوراة، فإنهم لما بحثوا عن علم النفس، بقرائح قلوبهم، واستخرجوا معرفة جوهرها بنتائج عقولهم، ودعاهم ذلك إلى تصنيف الكتب الفلسفية، التي تقدم ذكرها في أول هذه الرسالة (فيثاغورس، ونيقوماخوس) ونقلها من لغةإلى أخرى، من لم يكن فهم معانيها، ولاعرف أغراض مؤلفيها، انغلق على الناظرين في تلك الكتب، فهم معانيها، وأقصى أغراض واضعيها وأردنا بأوجز ما يمكن من الاختصار في (٥٢) رسالة، أولاها هذه الرسالة (رسالة العدد)، ثم يتلوها أخواتها على الولاء، كترتيب العدد، تجدها إن شاء الله»[١٤]. إذن كانت غاية واضعي الرسائل هي تقريب الفلسفة اليونانية إلى أذهان الناس بعد أن انغلقت معانيها في الكتب المتداولة بين أيديهم. وهذا يعني أن الداعية والمؤرخ إدريس عماد الدين، لم يطلع على الرسائل، وإنما نقل عما سبقه دون معرفة بما يكتب عنه.

النص الرابع للمؤرخ نور الدين أحمد (ت ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م): من مصياف، وهذا المؤلف لم يكن أفضل حظاً مما سبقه، وإنما أضاف أربعة مؤلفين إلى الإمام. قال: إن محمد التقي بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر لما علم بما آلت إليه الشريعة

في عهد العباسيين، من الإنحطاط والضعف شرع بتأليف كتاب رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا مع دعاته الأربعة، وهم أمناء سره، وأعضاء مجلسه الأعلى، الذين يعيشون بالكتمان الشديد، والسرية التامة، وهم: عبد الله بن حمدان وعبد الله بن ميمون، وعبد الله بن مبارك، وعبد الله بن سعيد، اجتمع هؤلاء الأربعة مع غيرهم، ووضعوا رسائل طويلة في شتى العلوم، والفنون عددها (٥٢) رسالة»[١٥]. ماالذي أضافه هذا النص إلى معلوماتنا؟. إنه يؤكد النصوص السابقة التي تنقل عن بعضها وهي في الحقيقة نص واحد لايعكس أي واقع تاريخي، فقولهم: إن واضع الرسائل هو الإمام أحمد بن عبد الله أو ولده محمد لايغير في واقع الآمر شيئاً. طالما أن الزمن هو عصر الخليفة المأمون.

ولكن المستشرق الهولندي دي بور، رغم اعتباره أن إخوان الصفا جماعة سياسية دينية إسماعيلية متطرفة، وجدت بعد عام ٢٧٣ هـ ٨٨٧)، لورود اسم أبي معشر الفلكي فيها وهو متوفي بعد عصر المأمون[١٦]. وفي دراسته المتميزة قال لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢): إن إخوان الصفا يعتنقون تقليداً فلسفياً، يمزج مزجاً صحيحاً بين الأفلاطونية الحديثة، بالفيثاغورية الحديثة، كما حدد تاريخ هذه الرسائل قبل عام (٣١٧ هـ - ٩٢٩م)، وهي سنة وفاة محمد بن جابر بن سنان البتاني، مادام تعريف الجيب في المثلثات الذي يستخدمه إخوان الصفا، لم يصبح بعد تعريفاً للمدرسة الرياضية، التي أسسها هذا العالم في مدينة الرقة»[١٧].

وأضيف مؤكداً إلى ماقاله لويس ماسينيون إن قياس حركة الأوج، والمقدرة بدرجة واحدة، لكل مائة سنة، وهو نفس المقدار الذي حدده بطليموس في كتاب المجسطي، بينما حددها البتاني في زيجه الصابيء سنة (٢٩٩ هـ - ٩١٢م) بدرجة واحدة لكل ٦٦ سنة شمسية[١٨].

وبينما اعتبرهم المستشرق الإنكليزي برنارد لويس «جماعة سريةنهضت في القرن الخامس الهجري بنشاط كبير لنشر التعليم الفلسفي بين الجماهير، دون أن يحدد هويتهم الإسلامية. قال الدكتور مصطفى غالب إنها من وضع الإمام أحمد بن عبد الله في سلمية عام (٢٠٩ هـ ٨٢٥) يؤازره أربعة من دعامة، عاد ليقول إنها وضع عشرة أشخاص ليس فيهم الإمام قال هنري كوربان إن الرسالة الجامعة فقط من وضع الأئمة المستورين[١٩]. وقال سيد حسين نصر: إن الإخوان يرتبطون بالإسماعيلية بصورة هشة[٢٠].

صدر كتاب الأستاذ خير الدين سعيد باسم النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا. قال فيه: «وعندي أن الرسائل بعد تطور الحركة السياسية الإسماعيلية، بحيث أن وجودها، أصبح له تأثيراً، مما دعا (إخوان الصفا)، أن يذيعوا رسائلهم بين الناس، في مستهل القرن الرابع الهجري، ودليله على ذلك، ماذكره ظهير الدين البيهقي عن ابن سينا، أنه كان يتأمل مع أبيه رسائل إخوان الصفا، وهو ابن عشر سنين (أي حوالي ٣٨٠ هـ - ٩٩١م)[٢١]. ثم أورد دليلاً آخر ربط به بين الإسماعيلية وإخوان الصفامن خلال الرسائل:

١ - كلاهما أشار إلى أن الأئمة هم خلفاء الأنبياء.

٢ - وهاجموا فرق الشيعة الغلاة الخمسة.

٣ - وهاجموا الإثني عشرية، من خلال مهاجمتهم للإمام المختفي.

٤ - وهاجموا الزيديّة، لإقرارهم بوجود إمامين في وقت واحد.

٥ - واعتمد على ملاحظة الدكتور محمد فريد حجاب «أنه لم يبق من فرق الشيعة الرئيسية سوى فرقة الإسماعيلية، التي ترى أن عقائدها ونظرياتها الفلسفية، خصوصاً فيما يتعلق بالإمامة لاتمثل سوى الامتداد الطبيعي لفلسفة إخوان الصفا[٢٢]».

إن الأدلة السابقة يمكن اختزالها بدليلين هما:

- إن إخوان الصفا هاجموا المذاهب الشيعية، ماعدا المذهب الإسماعيلي.

- تطابق رأي إخوان الصفا والإسماعيلية حول الإمام.

وهذان الدليلان قد بنيت خلال ردّي على الدكتور عارف تامر فسادهما:

- هاجم إخوان الصفا مذهب المسبعّة الذين قال عنهم الأستاذ خير الدين سعيد: «قالت الإسماعيلية، إن الأئمة، تدور أحكامهم على سبعة سبعة كأيام الأسبوع، والسموات السبع، والكواكب السبع، وعلى هذا وقعت عليهم الشبهة بالسبعية»[٢٣].

وعنهم تبرأ إخوان الصفا الذين اعتبروا المسبعّة «نظرهم جزئي وكلامهم غير كلي بينما كلام إخوان الصفا ونظرهم كلي وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع، ومعرفته شاملة[٢٤]. وليس هذا هو مذهب إخواننا الكرام، أيدهم الله وإيانا بروح منه.

- وأما بالنسبة للإمام، فهو غير ضروري عند إخوان الصفا لأن الإمامة هي السبب في تقاتل الناس، وقيام الفتن والحروب، والعقلاء والأخيار لايحتاجون إلى رئيس

برأسهم، لأن العقل والقدوة لواضع الناموس (أي الشريعة)، يقومان مقام الرئيس الإمام، فهلم بنا أيها الأخ نقتدي بسنة الشريعة، ونجعلها إماماً لنا فيما عزمنا عليه»[٢٥]. فالإمامة ليست امتداداً طبيعياً لفلسفة إخوان الصفا، كما قال الدكتور محمد فريد حجاب، ووافقه الأستاذ خير الدين سعيد. بل الإمامة هي من أسباب شقاء الناس. كما قال أبو بكر زكريا الرازي: «كان الأنبياء والأئمة ممخرقين مموهين على الناس، والعقل يكفي الإنسان في سيرته العادلة».

ومما أورده الأستاذ خير الدين سعيد وفيه ملاحظة جديرة بالاعتبار قوله: «إن إخوان الصفا قد اطلعوا على بواكير الفلسفة اليونانية، أي أنهم قرؤوها مترجمة، وهذا الإشكال يعيدنا إلى تاريخ تطور الترجمة والعقل ونقل العلوم[٢٦]. إن كتابات إخوان الصفا هي الكتب التي ترجمها ثابت بن قرة الحراني لفيثاغورس، وكتاب العدد لنيقوماخوس الجهراسيني (الأعداد المتحابة)، وكتب أرسطو المنطقية وكتاب أفلاطون في النفس، وحكم هرمس الحكيم، وكتاب المجسطي، وغيرها من الكتب والرسائل، التي شملت كل حقول المعرفة في زمنه. ولم يكن غرضهم سياسياً، بل علمياً محضاً، وهم القائلون برسائلهم: واعلم ياأخي أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن غرض الفلاسفة، والحكماء من النظر في العلوم، وتخريجهم تلامذتهم بها، إنما هو السلوك، والنظر منها إلى علوم الطبيعة، وأما غرضهم من النظر في الطبيعيات فهو الصعود منها والترقي إلى العلوم الإلهية، التي هي أقصى غرض الحكماء، والنهاية التي إليها يرتقي بالمعارف الحقيقية»[٢٧].

توصلنا إلى أنه لاصحة للرأي القائل أن رسائل إخوان الصفا، من صنع الإمام أحمد بن عبد الله التقي، التي جعلها سبيلاً لترويج دعوته. وأن أول الدعاة الذين نشروا الدعوة عن طريق الكتابة، هو الداعية محمد بن أحمد النسفي، الذي عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني، ثم أعدم في بخارى سنة (٣٣١ هـ - ٩٤٣م). قال عنه صموئيل شتيرن (١٩٢٠ - ١٩٦٨): إنه مؤسس الفلسفة الإسماعيلية بإدخاله الفكر الأفلاطوني المحدث في كتابه (المحصول). عرض فيه الأدوار النبوية السبعة، في التاريخ الإنساني. بدءاً بآدم، بالنبي (محمد «ص») ووصف الله سبحانه بالوصف الأفلاطوني المحدث «منزه بشكل مطلق، وخارج حدود الفهم والصفات، وغير قابل للمعرفة بأي وجه، والله هو الواحد وهو المبدع الأول للعقل والعقل أزلي ساكن وتام في حالتي القوة والفعل كليهما، والله مصدر كل نور. وعن العقل صدرت بطريق الفيض النفس الكلية، وهي بالتالي غير تامة، ونقص النفس يعبر عنه بالحركة بينما السكون يعبر عن

الكمال»[٢٨] والزمان هو مقياس الحركة الناجمة عن نشاط النفسن وإن نقص النفس هو الذي أدى إلى هبوطها، وعنها صدرت الأفلاك السبعة والطبيعة، وعنها ظهر الإنسان ذو النفس الناطقة والخلاص الإنساني يتم عن طريق المعرفة الصحيحة المتأتية عن القائم الناطق»[٢٩]. هذه النظرية الهرمسية من أين حصل عليها النسفي؟. إنه حصل على هذه المعارف من دروس ثابت بن قرة الحراني أو عن أبي بكر الرازي، الذي كان يعلم في بادىء أمره الفلسفة الأولى. قال هنري كوربان «إن الصابئة من أهل الحران، كانوا ينسبون حكمتهم إلى هرمس المثلث الحكمة، وعاذيمون» وقد ترجم ثابت بن قرة الحراني كتاباً بعنوان «أنظمة هرمس» وليس من العجب أن يكون الشيعة أول من تهرمس في الإسلام[٣٠].

إن الداعية النسفي أول داعية إسماعيلي أظهر الفكر الأفلاطوني المحدث، فقتل متهماً بالإلحاد، وشاعت أفكاره باسم الدعوة العلويّة، فيما وراء النهر، وكادوا يختلطون بالفكر الفيثاغوري المحدث، ولكن إخوان الصفا سارعوا للتبرأمنهم، فقالوا: ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم، وهم براء من نفوسهم، ويسمون أنفسهم العلوية، وماهم من العلويين، ولكنهم من أسفل السافلين، لايعرفون من أمرنا إلا بنسبة الأجسام، ولايعرفون من القرآن إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رسمه، لا علماً يتعلمون ولا فقهاً يدرون، ولا صلاة يقيمون، ولا زكاة يؤدون، ولا البيت يحجون، ولاجهاداً يعرفون، ولا حراماً يجتنبون، ولا عن منكر ينهون، وكل قبيح يركبون، ولايتوبون، ولاهم يذكرون ومن شيعتنا ينفرون، فهم أبعد الناس من أهل ملتنا»[٣١].

هاجم الداعية الإسماعيلي أبو حاتم الرازي كتاب النسفي المحصول بكتاب سماه (كتاب الإصلاح). فرد عليه أبو يعقوب السجستاني، نصرة لمعلمه بكتاب سماه (النصرة)، للدفاع عن آرائه الإلحادية. ومنذ مطلع القرن الرابع الهجري، بدأ الإسماعيليون يظهرون تعاليمهم الأفلاطونية الحديثة. مما دفع الأستاذ حسين مروّة للقول: «فإذا رجعنا إلى الرسائل نفسها لنبحث في مضمونها وجدنا علاقة واضحة بين المبادىء الفلسفية التي تأسست عليها جماعة إخوان الصفا وأصول التنظيم لدى الجماعة، وبين مبادىء الإسماعيلية، وأصولهم التنظيمية، ولنا مجالاً للقول بأن هذه العلاقة، لاتبلغ درجة التماثل الكامل، بحيث لايصبح النظر إلى الجماعة كأنها تنظيم إسماعيلي صرف، فقد كان للإسماعيلية سبق وجود على إخوان الصفا بزمن طويل»[٣٢].

أما الدكتور عمر فروخ فلم ينسب إخوان الصفا إلى أي مذهب ديني، واعتبرهم قد أخذوا من كافة الأديان والمذاهب[٣٣].

رأي الدكتور جبور عبد النور في إخوان الصفا:

كتبت دراسات كثيرة حول إخوان الصفا ومن بين تلك الدراسات، دراسة لطيفة ومتأنية للدكتور جبور عبد النور. أعطي في دراسته عدة آراء حول هذه الجماعة المحيِّرة:

ـ جمعية سرية متطرفة: قال «كان الناقمون يتسترون بالتشيع، فيمزجون آراءهم الدينية بنظريات فلسفية وعقائد الأديان القديمة، ويخرجون من هذا المزيج بتعاليم جديدة، يبثونها في البيئات الإسلامية، وينظمون أتباعهم تنظيماً دقيقاً، ويوزعونهم حلقات، بحيث يتيسر تدريبهم، والإتصال بهم عند الحاجة».

ومن أشهر الجماعات السرية آنذاك جمعية إخوان الصفا[٣٤]. ثم أضاف «التي هي تصويب للدعوة العلوية، ومسعى جدّي لإقامة نظام سياسي جديد»[٣] قائم على عقيدة تضم تعاليم شتى، لأن «إخوان الصفا علويون باطنيون، وإسماعيليون، ومعتزلة وفيثاغوريون، وأفلوطينيون، ومجوس، لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً في هذه الرسائل وهم في الواقع ليسوا شيئاً معيناً، بل هم كل شيء»[٣٦]. من تلك النصوص لانستطيع تحديد هويّة إخوان الصفا.

ـ جمعية ينطقون بحرفية مايعتقده الصابئة الحرانية: ثم قال عن إخوان الصفا أيضاً:

«ونحن واجدون في نصوصهم فقرات كثيرة، ولكنها مموهة، تشير إلى أن في قرارة نفوسهم، ميلاً إلى الوثنية، غير أن هذه الوثنية، غامضة الملامح، ليست بالاغريقية الخالصة، ولا بالبالية، والآشورية، وليست مزدكية، ولا مانوية، وإنما هي خليط من جميع هذه العناصر، معدّلة هنا مخففة هناك، مكثفة هنالك، بحيث يضيع الدارس في تعداد الأصداء واختلاف الأهواء»[٣٧]. ومما لاشك فيه أن هذه الآراء قد وردت في نصوصهم غامضة مضطربة، طلباً للتمويه والتقية، أو نتيجة لما دخلها من عناصر غريبة، بعضها مجوس وبعضها الآخر، من صنع الغلاة في الإسلام»[٣٨]. ومن تلك النصوص: نجد الدكتور جبور عبد النور لازال محتاراً.

وفجأة يغير الدكتور جبور عبد النور رأيه قائلاً: «وبعد أن كان قولهم في تأثير النجوم والسيارات على شيء من الغموض في الرسائل العامة، اتضح بعض الشيء في الرسالة الجامعة فإذا بهم يكادون ينطقون، بحرفية مايعتقده الصابئة الحرانية»[٣٩]. ولكن إن إخوان الصفا منذ الرسالة الأولى قالوا: إن اعتقادهم هو اعتقاد الفيثاغورية. قالوا:

وهذا الغرض الأقصى من النظر في العلوم الرياضية، التي كان يخرّجون بها أولاد الحكماء، وتلامذة القدماء هكذا مذهب إخواننا الكرام وفقك الله وإيانا إلى سبيل الرشاد، وإنه رؤوف في العباد»[٤١].

منذ الصفحات الأولى أعلن إخوان الصفا، أن غايتهم تقديم الفلسفة اليونانية بأوجز مايمكن من الاختصار في (٥٢) رسالة، أولاها رسالة العدد، المتضمنة تعاليم فيثاغورس[٤١].

هل إخوان الصفا هم صابئة حران؟:

قال الفيلسوف أميل برهيه (١٨٧٨ - ١٩٥٣) لايكفي البتة في تبيان حقيقة أي فلسفة ذكر المذاهب التي تقول بها وحسب، بل الأمر الأكثر أهمية هو فحص الروح الحقيقية التي تدعم بها هذه الفلسفة «مذاهبها الخاصة». وذلك بدراسة النظام الفكري الذي تنتمي إليه تلك الفلسفة»[٤٢]. بناء على هذه الرؤية، درس الدكتور عادل العوا تلك المذاهب الخاصة فتوصل إلى النتيجة التالية: «كان النظام الذي تنتمي إليه هذه الرسائل هو الدين الإسلامي». لأنه استدرك على الباحثين، الذين سبقوه، بأن استخلص نقص المعلومات التاريخية عن الإخوان من التعمق بدراسة نصوص رسائلهم، التي وضعوها لتحمل نداءهم العاجل الملح إلى الشباب من جميع الأوساط، ومختلف الفرق من كل الديانات، للانطواء تحت رايتهم لبلوغ هدفهم الأسمى»[٤٣]. والهدف الأسمى هو ما أشار إليه الدكتور طه حسين في مقدمته للرسائل المطبوعة في القاهرة ١٩٢٨. قال: «إن قوام جماعتهم فيما يظهر سياسي وعقلي فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر، على العالم الإسلامي، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام الفعلي المسيطر على حياة المسلمين، بإقامة فلسفة جديدة، تستطيع أن تشيد فوق دعائم جديدة الحياة العقلية، والحياة العملية للأفراد والمجتمع على قدر سواء»[٤٤].

وأفترض من جانبي أن إخوان الصفا حاولوا برسائلهم صياغة الإنسان، والعالم صياغة جديدة، من خلال خلق إنسان نموذجي متميز بالمعرفة الفلسفية، متمثلة بما ورد في السيرة العادلة لسقراط الحكيم، وليس بصورة الإنسان الكامل التي تخيلها الصوفية للنبي محمد (ص). قالوا في رسائلهم: «فهل لك يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، أن تقتدي (بالفلاسفة الحكماء المتألهين) وبسنتهم وتسلك مسلكهم وتقصد مقصدهم، وتبادر قبل الفوات في فكاك نفسك من أسر الطبيعة المحرقة، والغرور باللذات الجرمانية، في جوار الشيطان. وتعمل كما يعمل الناس النجباء، بأن تصحب، إخوان لك

نصحاء، وأصدقاء كرماء، تسمع أقاويلهم، وتفهم كلامهم بحضورك مجالسهم، وتنظر في كتبهم، لتعرف إعتقادهم، وتتخلق بأخلاقهم، وتتعلم علومهم، وتسير بسيرتهم العادلة، وتتفقه في شريعتهم العقلية، لتحيا كحياتهم الملكية، وتعيش عيشة السعداء مخلداً أبداً»[٤٥]. ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألهين كانوا يرون هذا الرأي ويعتقدونه، تسليم سقراط جسده للتلف بتناوله شربة السم اختياراً منه. وذلك أن هذا الرجل كان حكيماً من حكماء اليونان وفلاسفتها، وكان قد أظهر الزهد في الدنيا ورغب في سرور عالم الأرواح[٤٦]. كما كان أفلاطون حكيم اليونان، يرى هذا الرأي ويعتقده، وهو القائل لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير، لكانت الدنيا فرصة الأشرار[٤٧]. ومثلهما كان فيثاغورس صاحب العدد، وهو من الفضلاء الحكماء، كان يرى هذا الرأي ويعتقده. قال في رسالته الذهبية في وصيته لديوجانس: «إذا فارقت هذا البدن، فإنك عند ذلك تصير نحلاً في الجو سائحاً سالماً ساكناً غير عائد إلى الأنسبة ولا قابل للموت»[٤٨] في هذا الاعتقاد، تلمح دعوة صابئة حران بالتناسخ واتباع أنبيائهم المذكورين في الرسائل. وهكذا لم تستطع الرسائل بكل وسائل التمويه الكلامي أن تتخلص من تصوراتها الوثنية القديمة.

حددت الرسائل طريق الخلاص للإنسان بالتشبه بالباري تعالى، وبحكمتهم المنقوشة على مدقة باب مجمعهم السري في حران «من عرف ذاته تأله». لم يكن غرضهم سياسياً كما تصور بعض الباحثين الكرام، وتصورهم البعض جماعة ثورية، لها أهداف انقلابية، وقد نظموا من أجل ذلك جماعتهم بشكل خلايا سرية، إن هذه التصورات الوهمية ينقضها إخوان الصفا بقولهم: غرض الحكماء في وضع السياسات ليس هو إصلاح أمور الدنيا فحسب بل غرضهم جميعاً في ذلك إصلاح الدين والدنيا جميعاً، فغرضهم الأقصى هو نجاة النفوس من محق الدنيا، وشقاوة أهلها، وإيصالها إلى سعادة الآخرة، ونعيم أهلها»[٤٩].

وهذا الأمر، هو الذي دعا إخوان الصفا إلى تدوين رسائلهم لخلق حكماء أخيار، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ويعقدون بينهم عقداً، وميثاقاً، ولايتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصرة الدين، وطلب الآخرة، لايبتغون سوى وجه الله ورضوانه»[٥٠].

ما هي أدواتهم المعرفية؟ إنها كتب الحكمة القديمة، التي ترجمت، وشاعت بين الناس، ولكن أساء الناس تفسيرها، لأنها استخدمت في كتب الفقه، وبين علماء

الكلام، لذلك لابد من إعادة قراءة هذه الكتب قراءة جديدة، لتواكب تطور مجتمع تغيرت فيه الحياة الاجتماعية، وكذلك الأفكار، فلا بد من تفسير جديد. قال الإخوان: «وقد تكلم في هذه الأشياء من قبلنا من الحكماء الأولين، ودوّنوها في الكتب، وهي موجودة في أيدي الناس، ولكن من أجل أنهم طولوا فيها الخطب، ونقلوها من لغة إلى لغة، أغلق على الناظرين في تلك الكتب فهم معانيها، وضاعت في الباحثين معرفة حقائقها، من أجل هذا عملنا هذه الرسائل، لكيما يقرب علىالمتعلمين فهمها، ويسهل على المتبدئين النظر فيها»[٥١].

كانت هذه الرسائل بمثابة الكتب المقدسة عند أصحاب الديانات، يقرؤونها في مجالسهم السرية بحضور معلميهم الذين يفسرونها لهم مبينين أغراضها، ومراميها، وأكثر قصدهم وعنايتهم البحث عن العلوم الإلهية، التي هي غرضهم الأقصى»[٥٢]. هذه الكتب يطلقون عليها الكتب الإلهية لايمسها إلا المطهرون، والتي هي بأيدي كرام بررة، لأنها خلاصة الفكر الفيثاغوري الحديث.

قالوا عنها: هي جواهر النفوس، وأجناسها، وأنواعها، وتصاريفها للأجسام، وتحريكها لها، وتدبيرها إياها حالاً بعد حال في مرور الزمان، وأوقات القرانات، والأدوار، وانحطاط بعضها تارة إلى قعر الأجسام وارتفاع بعضها تارة من ظلمات الجثمان، وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان، وحشرها إلى الحشر والميزان، وجوازها على الصراط، ووصولها إلى الجنان أو حبسها في دركات الهاوية، والنيران، أو مكوثها في البرزخ، أو وقوفها على الأعراف. وهذا حال إخواننا الفضلاء الكرام، فاقتدوا بهم أيها الإخوان، تكونوا مثلهم»[٥٣].

إن كل أصحاب الديانات، هم ذوو اعتقادات فاسدة، ماعدا النحلة الفيثاغورية، التي تميز أهلها بالحكمة، لإعتقادهم أن طبيعة الموجودات بحسب طبيعة العدد، وهؤلاء هم إخواننا وماذاك إلا لأن فيثاغورس، كان رجلاً حكيماً موحداً من أهل حران»[٥٤].

طبعاً لم يكن فيثاغورس من أهل حران، وإنما هو من جزيرة ساموس على الساحل الغربي لآسيا الصغرى. ولكنه كان نبي أهل حران، فجعلوه منهم، وقد أطلق عليهم المسعودي حكماً صائباً بقوله «وكانوا يذهبون مذهب فيثاغورس، وهؤلاء هم حشوية الفلاسفة وأعوام اليونان والفلاسفة حكماؤهم»[٥٥]. وقال عنهم الغزالي: «وحاصل علمهم شيء ركيك من فلسفة فيثاغورس المحكي في كتاب إخوان الصفا، وهو على التحقيق حشو الفلسفة»[٥٦].

عندما رأى صابئة حران تداعي مجتمعهم وتلاشيه، وإسلام معظمهم بعد وفاة ثابت بن قرة الحراني. سنة (٢٨٨ هـ - ٩٠١م) أدخلوا موروثهم الوثني بصورة إسلامية مكثفة، مستفيدين من التجربة المانوية المريرة التي قام بها عبد الله بن المقفع، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، اللذين قتلا لأنهم أبقوا تعاليم ماني على حالها، وحكم على تجربتهم بالفشل، أما صابئة حران كما لاحظ لويس ماسينيون «أرادوا ضمان بقائهم داخل المجتمع الإسلامي، فلجأوا إلى حيلة، أصبحت اليوم معروفة»[٥٧]. ولكن الغزالي منذ مطلع القرن السادس الهجري، حذر من تعاليمهم، لأنهم مزجوا بكلامهم الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ليسارع من يستمعها إلى قبول باطلهم، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر والخطر، كما يجب صون من لايحسن السباحة عن مزالق الشطوط»[٥٨]. ولكنهم مع ذلك، استطاعوا التمويه على كثير من الناس لاستشهادهم بالآيات الكريمة، والأحاديث المنسوبة إلى الرسول الكريم لاستدراج قلوب الحمقى»[٥٩].

كان إخوان الصفا يتبرأون إلى الله من كل الملل والشرائع المعروفة، ماعدا الديانة الحرانية (الفيثاغورية) قالوا: إن الديانات من سامري، وعناني، وجالوتي (كل مذاهب اليهود). ونسطوري، ويعقوبي، وملكاني (كل مذاهب المسيحية) وثنوي، مانوي، وديصاني (كل المذاهب الثنوية) وخرمي ومزدكي وبهرمي وشمسي (كل المذاهب المجوسية) وخارجي ورافضي وناجي وقدري وجهمي (كل مذاهب الإسلام) كل ماشاكل هذه المذاهب. يكفر أهلها بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم الآخر، ويقتل بعضهم بعضاً. ونحن من كلها براء»[٦٠]. ماعدا القائلين بأن الوجود حسب طبيعة العدد وهؤلاء هم إخواننا أيدهم الله.

كانت رسائل إخوان الصفا دعوة لديانة نجومية، واضحة، لاتخفى عن كل ذي نظرة وبصيرة، وكانت موسوعة لتعاليم وطقوس، وأعياد صابئة حران، ومن خلال الرسائل يمكن تاريخ هذه النحلة التي تلاشت واختفت منذ القرن الخامس الهجري، ولكن أثرهم الفكري لازال سارياً بيننا حتى اليوم.

قال الأخوان: ونقول عمن نقلت إلينا أخبارهم، وبلغنا آثارهم اليونانيين وهؤلاء عندنا أسماء مختلفة فمنها (الصابئون والحرانيون والحنوفون)، وكانوا قد أخذوا أصول علومهم عن السريانيين، وعن المصريين على حسب نقل الضائع والعلوم في البلدان، بما يحدث لها من السياسات والأديان وقد كان من رؤسائهم وأوائلهم أربعة (عاذيمون

وهرمس وواليس واراطس) ثم تفرقت جيوشهم إلى الفيثاغورية، والأفلاطونية، والأبيقورية»[٦١].

وفي مأدبة (صاحب العزيمة) للحيوان والإنسان. قالوا: نظر الملك، فرأى رجلاً أشقراً على رأسه مشدة قائماً في الملعب بين يديه آلات رصد. فقال الملك: من هو ذاك؟ فقيل له: رجل من أهل الروم من بلاد اليونان.. إقال: ليتكلم. فقال اليوناني:

ـ الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الدائم السرمد، كان قبل الهيولى ذات الصور والأبعاد، كالواحد قبل الأعداد والأزواجوالأفراد، الذي تفضل وتفكر وأفاض من وجوده العقل الفعّال الذي هو معدن العلوم والأسرار، والذي نتج من نوره العقل، وانبجس من جوهر النفس الكلية الفلكية، ذات القوة والحركات، وعين الحياة، والبركات، وأظهر من قوة النفس (عنصر الأكوان). ذات الهيولى والمكان.

ـ والحمد لله خالق الأجسام ذوات المقادير والأبعاد، والأماكن والأزمان، وركب الأفلاك والكواكب السيارات، وأوكل بدورانها النفوس والأرواح، والملائكة ذوات الصور، والأشباح، ذوات النطق والأفكار والحركات الدرية والأشكال الكريمة، وجعلها مصابيح الدجى ومشرق الأنوار في الآفاق.

ـ والحمد لله مرتب الأركان، ذوات الكيان، وجعلها مسكن النبات والحيوان، وخص بلادنا بكثرة الريف، وجعلنا ملوكاً بالخصال الفاضلة والسيرة العادلة، ورجحان العقول، ودقة التمييز وكثرة العلوم والصنائع العجيبة، وعلم النجوم وتركيب الأفلاك، ومعرفة منافع الحيوان والنبات، وعلم الرياضيات والمنطقيات، والطبيعيات والإلهيات.

فقال صاحب العزيمة للرجل اليوناني: من أين لكم هذه العلوم والحكم، التي ذكرتها، وافتخرت بها لولا أنكم أخذتم بعضها من علماء بني إسرائيل أيام بطليموس الملك، وبعضها من حكماء مصر أيام ثامسطيوس (شارح كتب أرسطو)، فنقلتموها إلى بلادكم، ونسبتموها إلى نفوسكم..

فقال اليوناني: إنا أخذنا من سائر الأمم، كما أخذوا أكثر علومهم منا. إذ علوم الناس بعضهم من بعض، من أين كان لبني إسرائيل علم الحيل (الميكانيك) والسحر والعزائم، واستخراج المقادير، لولا أن سليمان بن داود، أخذها من خزائن ملوك سائر الأمم، لما غلب عليهم، ونقلها إلى لغة العبرانيين، وبلاد الشام (اللغة الآرامية) وإلى بلاد مملكة فلسطين»[٦٢].

من النص السابق تلاحظ عرضهم لمذهب أفلوطين في التوحيد، أو مايعرف بنظرية الفيض الإلهي. التي تعتبر العقيدة المحورية لرسائل إخوان الصفا. قال كارل هنريش بكر: «إن رسائل إخوان الصفا، لايزال أفلوطين يحيا فيها، وبدونه لانستطيع فهم التاريخ الروحي للإسلام، وعلى وجه العموم، أصبحت رسائل إخوان الصفا فلسفة شعبية شائعة، في طبقة محدودة من المثقفين يدعمهم تيار شعبي عبارة عن طائفة من السحر والتنجيم، وضرب الرمل والرؤيا والأعداد المتحابة، وفوائد الحب هذه التصورات النظرية، والتي قالت عنها العامة هذه شرعها الله للناس»(٦٣).

هذه الديانة الشعبية كانت ديانة أهل حران السرية، أظهروها تحت مبدأ التقية، الذي خلق أشكال من المذاهب عند الإسلام كالمذهب الإشراقي الصوفي عند شهاب الدين السهروردي ومذهب التوحيد الباطني عند العلويين وعند الدروز، وظلت صورة الكون كما رسمها فيثاغورس وبطليموس، والمنطق كما وصفه أرسطو، وطوّره فورفوريوس الصوري، ومواضيع الفلسفة هي نفس المواضيع التي طرحها أفلاطون وأفلوطين وبرقلس، وظلت السيادة في الطب لأبقراط وجالينوس، وكل هذه الكتب، ترجمها، وشرحها، واختصرها ثابت بن قرة الحراني، ثم نقلتها رسائل إخوان الصفا.

كان ثابت بن قرة رجلاً صدِّيقاً عند أهل حران وهو أول من نقل علومهم السرية إلى الملأ، فكان سبب شهرتهم في الدولة العربية وإلا فاذكروا لنا قبله عالماً أو فيلسوفاً واحداً اللهم إلا (بابا الحراني) الذي عده ابن الصلبي نبي حران.

إن علوم أهل حران، هي التي وصفها إخوان الصفا بأنها من انتاج «الحكماء الفلاسفة البالغون في المعارف الربانية، الناظرون في العلوم الإلهية، المؤيدون من السماء بتأييد الله، والهامه لهم»(٦٤).

لاحظ المستشرق الهولندي دي بور «أن مدينة حران لم تزدهر إلا بعد الفتح العربي، واتصلت وثنية الساميين القديمة بالأبحاث الرياضية الفلكية، وبنظريات المذهبين الفيثاغوري والأفلاطونية المحدثة»(٦٥). وهم الذين أدخلوا التفسير المجازي (التأويل) للقرآن الكريم طبقاً لقواعد مدرسة الاسكندرية، وبذلك يردون حكمتهم السرية إلى أنبياء وردت أسماؤهم في التوراة والقرآن ولكن وراءها في الحقيقة أشخاص الفلاسفة الوثنيين»(٦٦). فالصيام عندهم حفظ أسرار الجماعة، والحج سياحة في الأرض طلباً للعلم»(٦٧).

كانت لدى صابئة حران، أسرار ورموز، يخاطبون بها أتباعهم، هي ذات المصطلحات التي وردت في رسائل إخوان الصفا، وهي لاتفهم إلا طبقاً، لتعاليم الفلسفة الفيثاغورية. قال إخوان الصفا: فافهم ياأخي هذه الإشارات والتنبيهات، وقس على ذلك ونظائرها ولا تفشي الأسرار، لعلك تتنبه من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، قبل أن ينفخ في الصور، وقبل أن ينادي منادٍ للصلاة من يوم الجمعة، وقبل أن يحشر المجرمون إلى جهنم ورداً»[٦٨].

ومن تلك الأسرار قولهم: نرى أيها الأخ البار، أيدك الله، وإيانا بروح منه، إنه قد تناهت دولة الشر، وظهرت قوتهم، وكثرت أفعالهم في هذا الزمان، وليس بعد هذا التناهي، إلا الإنحطاط والنقصان، واعلم أن الدولة والملك، ينتقلان في دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ومن بلدإلى أهل بلد»[٦٩].

وقد رمزوا لذلك بانتظار القران الأوسط، الذي يتم عندما ينتقل الكوكبان من زحل والمشتري من مثلث إلى آخر، ويتم هذا الأمر في ٢٤٠ سنة[٧٠]، أما إذا بلغ العقرب ومدة ذلك ٣٣٠ سنة وأربعة أشهر، يحل بالعالم مصائب لاتحصى، وتسقط هيبة السلطان الذي في يده زمام الشريعة، ويطمح سائر الملوك به، ويكون الحكم عندئذ، لدولة إخوان الصفا وتكون مدة تسلطهم (١٥٩) سنة[٧١].

من تلك الرموز التنجيمية، يمكننا تقدير الزمن الذي ظهرت فيه الرسائل، في العهد البويهي، وندرك الطابع الجماعي لتأليفها، وأفترض أن واضعيها هم (سنان بن ثابت بن قرة الحراني (المتوفي ٣٣٢ هـ) بعد إسلامه على يد عضد الدولة، وقريبه، وأبو إسحق الصابيء (إبراهيم بن هلال) (المتوفي ٣٨٥ هـ) وثابت بن سنان بن ثابت الحراني وأبو الخطاب الصابيء، ووهب بن يعيش الرقي، دبجوا تلك الرسائل، ودسوها في دكاكين الوراقين. لأن عملاً فكرياً كبيراً مثل كتابة رسائل إخوان الصفا تقتضي كما قال جان بياجيه «إن كبار الناس، الذين خطوا اتجاهات جديدة، لم تكن إلا نتاج تفاعل وتركيب، لإفكار أعدت، في إطار تعاوني مستمر»[٧٢].

وكان الدكتور عمر فروخ، قد نبه إلى أن إخوان الصفا، قد نشأوا وانقرضوا في عهد الدولة البويهية، التي كانت تعطف عليهم وكانت غايتهم الإصلاح، على المدى الطويل، وقد دعوا إلى فهم جديد للدين، أي تفسيره بالفلسفة والعلوم الطبيعية، لأن من صلح دينيه صلحت دنياه[٧٣]. باعتقادي أن آل بويه لايعرفون مَنْ كتب الرسائل؟

وإن كانوا يعملون بين أيديهم، فما ذلك إلا لأن آل بويه علويون من أتباع المذهب الإثني عشري، الذي لايقر التنجيم والكهانة. فما بالك بمن يؤله الكواكب، التي بها القضاء المبرم في حياة الناس، يقول إخوان الصفا «لاتظن يا أخي، أنه قد يقع من أحد فعل، ولاييسر له من عمل، ولا ترك شيء، ما هو مندوب إليه، إلا وقد سبق له في علم الله، يسمى القضاء المبرم، والقدر المحتوم، اللذين هما موجبات أحكام النجوم، وتأثيرات الأشكال الفلكية»(٧٤). وأقرب المذاهب الإسلامية إليهم مذهب الموحدّين الدروز، وأما المذهب العلوي فقد تأثر بهم إلى حد كبير ولكنه ظل ملتصقاً بعلم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وبتعاليم القرآن الكريم.

المراجع:

١ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢١٣ جولد تسيهر ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون دار الرائد العربي القاهرة ١٩٤٦.

٢ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ١٤٩ ـ ١٥٠ بندلي جوزي بيروت ١٩٨١.

٣ ـ مقدمة رسالة جامعة الجامعة ص ١٠ من تراث الإسماعيلية تحقيق عارف تامر مكتبة دار الحياة بيروت.

٤ ـ المصدر السابق ص ٢٠ ـ ٢١.

٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٦ دار صادر بيروت ١٩٥٧.

٦ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧.

٧ ـ الإمامة في الإسلام ص ٦٩ ـ ٧٠ عارف تامر دار الكاتب العربي بيروت.

٨ ـ تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ٤٠ مصطفى غالب بيروت.

٩ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٣٧.

١٠ ـ الإسماعيلية تاريخ وعقائد (هامش ص ٣٩٩) احسان الهي ظهير الرياض ١٩٨٦.

١١ ـ مقدمة شجرة اليقين ص ٥ للداعي القرمطي عبدان تحقيق عارف تامر دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢.

١٢ ـ جامعة الجامعة ص ١٣.

١٣ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٢.

١٤ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٧٧.

١٥ ـ جامعة الجامعة ص ١٦.

١٦ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٥٧ دي بور.

١٧ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٥٩ د. عادل العوا دار الأهالي ١٩٩٣.

١٨ ـ الزيج الصابيء ص ٤٧ البتاني كارلو نالينو روما ١٩١١.

١٩ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٦٧.

٢٠ ـ المصدر السابق ص ٤١.
٢١ ـ النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا ص ١٠ خير الدين سعيد ـ دار كنعان دمشق ١٩٩٢.
٢٢ ـ المصدر السابق ص ٣١.
٢٣ ـ المصدر السابق ص ١٤٦.
٢٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٣٧.
٢٥ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٧.
٢٦ ـ النظام الداخلي ص ١١.
٢٧ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٧٥ ـ ٧٦.
٢٨ ـ الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ج ٢ ص ١٢٥ د. فرهاد دفتري ترجمة سيف الدين القصير دار الينابيع ١٩٩٥.
٢٩ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٨.
٣٠ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٩٧ ـ ١٩٨ هنري كوريان.
٣١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٤٨.
٣٢ ـ النزعات المادية في الإسلام ج ٢ ص ٣٦٤ حسين مروة دار الفارابي بيروت ١٩٧٩.
٣٣ ـ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٢٩٣ عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦.
٣٤ ـ إخوان الصفا ص ٧ جبور عبد النور دار المعارف القاهرة ١٩٧١.
٣٥ ـ المصدر السابق ص ١٨.
٣٦ ـ المصدر السابق ص ٢٦.
٣٧ ـ المصدر السابق ص ٢٦.
٣٨ ـ المصدر السابق ص ٢٩.
٣٩ ـ المصدر السابق ص ٣١.
٤٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٤.
٤١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٧٧.

٤٢ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٦ د. عادل العوا.
٤٣ ـ المصدر السابق ص ٤١.
٤٤ ـ مقدمة رسائل إخوان الصفا ص ١٥ طبعة القاهرة ١٩٢٨.
٤٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣.
٤٦ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤.
٤٧ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥.
٤٨ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥ ـ ٣٦.
٤٩ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.
٥٠ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨٢.
٥١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٠.
٥٢ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢.
٥٣ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٤٣ ـ ٤٤.
٥٤ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠.
٥٥ ـ مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٨ المسعودي كتاب التحرير القاهرة ١٩٥٦.
٥٦ ـ المنقذ من الضلال ص ٤٢ الغزالي.
٥٧ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٣٧٩.
٥٨ ـ المنقذ من الضلال ص ٣٢.
٥٩ ـ المصدر السابق ص ٣١.
٦٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣٠٧.
٦١ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٥.
٦٢ ـ رسالة الحيوان والإنسان ص ٨٦ ـ ٨٨ نشر أحمد حسنين مطبعة المعارف القاهرة ١٩١٣.
٦٣ ـ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ١٣ عبد الرحمن بدوي دار النهضة العربية ١٩٦٥.
٦٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٤٥.

٦٥ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢ دي بور.

٦٦ ـ المصدر السابق ص ١٥٦.

٦٧ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩.

٦٨ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٢.

٦٩ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨١.

٧٠ ـ إخوان الصفا ص ٢٣ د. جبور عبد النور.

٧١ ـ الرسالة الجامعة ج ٢ ص ١٢٦٥,

٧٢ ـ الحرفة والتراث والابداع ص ٦٣ اصدار الاتحاد العام للجمعيات الحرفية دمشق ١٩٩٥.

٧٣ ـ تاريخ الفكر العربي حتى ابن خلدون ص ٣٧٩ عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦.

٧٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٠٠.

الفصل الثالث

الفارابي وصابئة حران وإخوان الصفا

الفارابي وصابئة حران:

لا أعرف في التراث العربي شخصية فلسفية مرموقة، كشخصية الفارابي (أبي نصر محمد بن محمد طرخان) (المتوفي ٣٣٩ هـ ـ ٩٥١م). تضاربت حولها الآراء، وتعددت الروايات والأقوال مثل شخصيته.

ـ اختلفوا حول أصله. أتركي هو أم فارسي؟. ثم رجحوا أنه تركي الأصل.

ـ واختلفوا حول المدينة التي ولد فيها، ورجحوا أنها مدينة فاراب في بلاد ما وراء النهر (نهر سارداريا).

ـ واختلفوا في سنة دخولة بغداد. ورجحوا أنه دخلها سنة (٣١٠ هـ ـ ٩٢١) وكان عمره يناهز الخمسين عاماً.

ـ واختلفوا في رحيله إلى حران طلباً للعلم. قال صاعد بن أحمد الأندلسي (المتوفي ٤٦٢هـ): إنه «دخل العراق، واستوطن بغداد، وقرأ بها العلم الحكمي، على يوحنا بن حيلان المتوفي في أيام الخليفة المقتدر (المتوفي ٣٢٠هـ)»[1]. وقال ابن خلكان (المتوفي ١٢٨٢): كان دخولة بغداد وبها أبو بشر متى بن يونان (المتوفي ٣٢٨ هـ ـ ٩٤٠). وظل تلميذاً لأبي بشر ثم ارتحل إلى مدينة حران، وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني، فأخذ عنه طرفاً من المنطق، ثم أنه قفل راجعاً إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة[2] والنحو. وفي رواية لابن أبي أصيبعة (المتوفي ١٢٩٦): كان يقرأ النحو على أبي بكر السراج (المتوفي ٣١٦هـ ـ ٩٢٨)، وكان ابن السرّاج، يقرأعليه المنطق[3]. إن المتمعن في الأخبار السابقة يجد فيها خلطاً ووهماً كثيراً.

كيف يترك الفارابي بغداد ويذهب إلى حران لدراسة المنطق على رجل مجهول؟. وفيها إمام العصر والزمان أبي بشر متى بن يونس. وحران في تلك الأيام، خالية من أي رجل له ذكر وشهرة في أي علم من العلوم، ماعدا الحارث بن سنباط الأسقف المسيحي، الذي ذكر للمسعودي عام (٣٢٢ هـ ـ ٩٤٤م)، أن لاوجود لأي عالم

حراني يعتد به من الصابئة الحرانية، أو غيرهم. وإن مجمعهم عبارة عن بيت فيه أنواع من الصور التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية، يقف خلفها الكهنة من وراء الجدران، ويتكلمون كلاماً يصطادون به عقول العامة(٤).

وقد علق الشيخ مصطفى عبد الرزاق حول سفرة الفارابي لحران: «كلام المؤرخين مضطرب في أمر هذه التنقلات»(٥).

ومن الأقوال والآراء المتناقضة حول الفارابي:

ـ الحاشية التي وردت في كتاب المطالع لمولانا لطفي: قال: إن المأمون جمع مترجمي مملكته كحنين بن اسحق وثابت بن قرة الحراني، وترجموا له كتباً بتراجم متخالفة، مخلوطة غير محررة، لاتوافق ترجمة أحدهم للآخر. فبعث تلك التراجم غير المحررة، المنصور ابن نوح الساماني (حكم ٣٥٠ ـ ٣٦٥هـ) إلى الحكيم الفارابي، ثم التمس منه أن يجمع تلك التراجم، ويجعل من بينها ترجمة ملخصة، محررة، مطابقة لما عليه الحكمة، فأجاب الفارابي وسمى كتابه (التعليم الثاني)، فلذلك لقب بالمعلم الثاني(٦).

تعليقنا على هذا الخبر: إن حنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني هما أعظم مترجمين عرفهما العرب.

حنين بن إسحق (٨٠٩ ـ ٨٧٣):

كان طبيباً ومترجماً من عرب الحيرة، من قبيلة عبّاد المسيحية، وهي من مضر. تضلّع باليونانية في أديرة الجزيرة وفي الأسكندرية، وعينه المأمون مترجماً في بيت الحكمة (٨٢٩)، فنقل إلى السريانية والعربية، بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسيقوريوس وجالينوس. ومما نقله لأرسطو كتاب المقولات العشر، الذي فسره الفارابي، وكتاب العبارة نقله إلى السرياني، ثم نقله ابنه إسحق إلى العربية وعليه اعتمد الفارابي، وكذلك كتاب أنولوطبقا الأولى (القياس)، نقله حنين إلى السرياني، ثم نقله ابنه إسحق إلى العربي، ومثله فعل (بكتاب البرهان)، وعلى هذه الكتب اعتمد الفارابي في كتابه المنطق(٧).

ثابت بن قرة الحراني (٨٢٤ ـ ٩٠١):

كان عالماً رياضياً وفيلسوفاً، صابئي المذهب، تخصص في ترجمة كتب الرياضيات والفلك والموسيقى عاش في بلاط المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩). وعندما أنشأ المأمون بيت

الحكمة كان عمره خمس سنوات، ثم فسّر وشرح كتب أرسطو، التي ترجمها حنين بن إسحق، وعلى شروحه اعتمد الفارابي.

وأما حاكم بخارى والري المنصور بن نوح الساماني الأول، فقد حكم بعد وفاة الفارابي بعقد من الزمن.

يتضح مما سبق، أنه لاصحة لذلك النص الذي ورد في كتاب المطالع.

قصة الدرويش أو الموسيقى العجيب:

أورد إخوان الصفا تلك القصة، قائلين: يحكى أن جماعة من أهل هذه الصناعة (صناعة الموسيقى)، كانوا مجتمعين في دعوة، رجل كبيررئيس، إذ دخل عليهم إنسان، رث الحال عليه ثياب النساك، فرفعه صاحب المجلس عليهم كلهم، فتبين الإنكار وجوههم، فأراد أن يبين فضله، فسأله أن يسمعهم شيئاً صنعه. فأخرج خشبات ركبها تركيباً، ومدّ عليها أوتاراً، كانت معه، وحركها تحريكاً، أضحك كل من في المجلس من اللذة والفرح. ثم قلبها، وحرك تحريكاً آخر، فأبكى كل من في المجلس[8]. ثم قبلها، وحرك تحريكاً آخر، فنوّم كل من في المجلس، وقام، وخرج، فلم يعرف له خبر».

ولكن هذه القصة تحوّرت إلى روايتين مختلفتين فيما بعد:

١ - رواية ظهير الدين البيهقي (المتوفي ٥٦٥ هـ - ١١٧٠م): قال: «إن الفارابي استقدمه كافي الكفاة، الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٤هـ)، ووصل إلى الري، وعليه قباء وسخ، وقلنسوة بلقاء، ودخل مجلس الصاحب، متنكراً، وكان المجلس غاصاً بالندامى، وأرباب اللهو.. واستهزؤوا بأبي نصر، ولكنه ظل بينهم صابراً، حتى اطمأنت نفوسهم إليه، وحمل أبو نصر مزهراً، واستخرج لحناً مع وزن، نوّم المستمعين، وصار كل واحد، كالذي يغشى عليه، وكتب على البربط «زاركم أبو نصر الفارابي، واستهزأتم به فنوّمكم». ثم خرج من الري متنكراً نحو بغداد. فلما أفاق الصاحب، وندماؤه، تعجبوا من حذقه في صناعته وتأسفوا على فوات منادمته»[9].

هذه الرواية لاصحة لها، لأن الصاحب بن عباد كان له من العمر (١٣) عاماً حينما توفي الفارابي، وعند دخول الفارابي بغداد، لم يكن الصاحب مولوداً.

٢ - رواية ابن خلكان (المتوفي ١٢٨٢): روايته محوّرة عن قصة إخوان الصفا، ولكنها تجعل المكان قصر سيف الدولة بحلب، عام (٣٣٣هـ - ٩٤٥م). قال: إن أبا

نصر لما ورد على سيف الدولة، وكان مجلسه يجمع الفضلاء، في جميع المعارف، فأدخل عليه، وهو بزي الأتراك.. وكان ذلك زيّهُ دائماً، قال له سيف الدولة: اقعد.! فقال أبو نصر: حيث أنا أم حيث أنت؟ قال له: حيث أنت... فتخطى أبو نصر رقاب الناس، حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة، وزاحمه حتى أخرجه عنه، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، وحضر كل ماهو في هذه الصناعة، بأنواع الملاهي. فلم يحرك. أحد منهم آلة إلا وعابه أبو نصر. وقال له أخطأت. فقال له سيف الدولة: وهل تحسن من هذه الصناعة شيئاً؟. فقال: نعم. ثم أخرج من وسطه خريطة. وأخرج منها عيداناً، وركبها تركيباً، ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المدلس. ثم فكها وغيّر تركيبها، وضرب بها فنام كل من في المجلس. حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج.. ولكن هذه القصة أو الخرافة غير المقنعة، علق عليها الشيخ مصطفى عبد الرزاق: «ولئن كانت هذه الحكاية أدنى إلى الأساطير منها إلى التاريخ، فهي تشبه أن تكون، غلواً مجاوزاً لا اختراعاً صرفاً»[١٠]. بل هي في إعتقادي أسطورة لاصحة لها.

إن التاريخ الصحيح لهذه الآلة ماذكره الفارابي في (كتابه الموسيقى الكبير). عندما روى عن إختراعه لآلة (الشاهرود) وهي آلة وترية كالقانون. قال: إن التي أوجدناها ـ نحن ـ بهذه الصفة، من الآلات المشهورة، في مملكة العرب، هي الآلة التي تسمى (الشاهرود) وهذه إنما استنبطت في زماننا نحن، ولم تكن تعرف من قبل، وأول من استخرجها، رجل من أهل الصغد، في سمرقنديقال له (خليص بن حكيم)، استخرجها عندما كان في بلاد الجبل سنة (٣٠٦ هـ ـ ٩١٧م)، ثم حملها إلى بلاد الصغد، فاستعملت هناك، ثم حملت إلى بغداد، وإلى مصر وماوراءها»[١١]. وطاف بها على بلدان الجزيرة والشام، وسمع منها جميع الألحان القديمة والمحدثة، فلم يكن مما وجد فيها من النغم منافراً لأحد من الناس»[١٢]. لم يكن الفضل في اختراعها للفارابي الذي زاد في تحسينها وتطويرها ونقلها إلى بلاد الشام بعد عام (٣٠٦هـ). ومعنى هذا أن رسائل إخوان الصفا كتبت بعد هذا التاريخ.

الحرانية وعلم الموسيقى:

الموسيقى صنعة من أقدم صنائع البشر، عرفتها الشعوب القديمة، واستعملوها في معابدهم، وقصورهم، وبيوتهم، وفي أحزانهم، وأفراحهم. لما لها من تأثير في النفوس قال إخوان الصفا: «والدليل على أن لها تأثيراً في النفوس، استعمال الناس لها، تارة

عند الفرح والسرور، وفي الأعراس والولائم والدعوات، وتارة عند الحزن والغم، في المصائب والمآتم، وتارة في بيوت العبادات والأعياد»[١٣].

وفي مرحلة التدوين والكتابة، أصبحت الموسيقى جزءاً من العلم الرياضي، القائم على نسب عددية. لأنها علم تأليف، ومعرفة ماهية النسب، وكيفية تأليف الأصوات المختلفة الجواهر، المتباينة الصور، المتضادة القوى، المتنافرة الطبائع، كيف تجمع، ويؤلف بينها، كي لاتتنافر، وتأتلف، وتتحد، وتصير شيئاً واحداً (هارموني)، وتفعل فعلاً واحداً، أو عدة أفعال، هذا قول نيقوماخوس الجهراسيني في كتابه الموسيقى الكبيرةالذي ترجمه ثابت بن قرة»[١٤].

ومن أشهر علماء الموسيقى، الذين اعتمد عليهم العرب، أرستوكسينوس Aristoxenus الفيثاغوري (عاش حوالي ٣٥٠ ق. م). له كتاب الإيقاع[١٥] ترجمه ثابت بن قرة، ومنه أخذ العرب أساس النغمات والتناغم، ثم عممّوا السلم السباعي الذي اكتشفه (أرسطقسانس) بعد أن أضافوا إلى درجاته الرئيسية عشر درجات فرعية، لتسهيل للدلالة علىأنواع العبارة الموسيقية، وللتقليل من عدد علامات التحويل (البيمول) التي يستلزمها التعبير عن سائر نسب الأنغام، فيما اقتصرنا على درجات السلم[١٦]. واستطاع ثابت، كتابة السلم السباعي بعلامات رمزية رياضية من اليسار إلى اليمين، كما هي في اليونانية (دو. ري. مي. فا. صول. لا. سي) شاهدها القفطي في السريانية، في كتاب لثابت من خمسائة ورقة[١٧].

كانت الموسيقى تلعب دوراً هاماً في معابد الحرانية، لأنها ترافق أدعيتهم، وتضرعاتهم في الصلاة. والتوسل، والدعاء عند تقديم القرابين.

قال ج. هـ. فارمر (في كتابه تاريخ الموسيقى العربية). إن صابئة حران والإغريق، يرون أن كل شيء أرضي، يتأثر بما هو سماوي، فنغمات السلم السبع، تعادل الكواكب السبع، وصور البروج الإثني عشر، تقرن إلى ملاوي العود الأربعة، ودساتينه الأربعة، وأوتاره الأربعة، ويتأثر العدد، بالطبائع الكونية الأربعة، والفصول الأربعة، والأمزجة والقوى العظيمة، والألوان والعطور، وأرباع دائرة البروج، والقمر والعالم[١٨].

وقال إخوان الصفا «كان أصحاب النواميس الإلهية، يستعملون في هياكلهم، وبيوت عباداتهم، عند القراءة في الصلوات، وعند القرابين والدعاء، والتضرع والبكاء، كما كان يفعل داود النبي، عند قراءة مزاميره، وكما يفعل النصارى في كنائسهم،

والمسلمون في مساجدهم، وكان الحرانية، يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة ألحاناً من الموسيقى تسمى (المحزن)، وهي التي ترقق القلوب، إذا سمعت، وتبكي العيون[١٩].

الموسيقى عند العرب:

كان أهل الجزيرة العربية، مختلفة في معرفة هذه الصناعة، فأهل الحجاز واليمن، كان لهم إلمام بالموسيقى، ولديهم أدوات موسيقية، مما كان يستخدمه أهل الحبشة ومصر وبلاد الشام، وأما أهل البادية، فعلمهم بها قليل، إلا من أصوات يرتجلونها أثناء السفر (الحداء)، ولم تكن آلات الطرب، تتجاوز عندهم الطبل أو المزمار.

ولكن بعد أن فتحوا بلاد الشام ومصر والعراق وبلاد فارس، صارت لديهم حاجة ملحة إلى سماع الموسيقى، فكثرت الآلات، وتنوعت، وصار تلحين الشعر العربي، وسماع أصواته العذبة في قصور الخلفاء والأمراء وفي الأعراس شيئاً ضرورياً.

وعندما ترجم العرب علوم القدماء، ترجموا معها كتب الموسيقى، ولم تعد تقتصر على العلم الرياضي بل أصبحت ترافق كتب الأدب، وصار تدوين الأغاني فرعاً هاماً من فروع الأدب.

ذكر الأصفهاني (علي بن حسين بن محمد القرشي) (المتوفي ٣٥٦ هـ - ٩٦٧م) في موسوعته العظيمة (كتاب الأغاني)، أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، كان يراسل المعتضد بالله، إذا استراب جواريه، على ألسنتهن، مع ذوي الألسن عنده من رسله مع أحمد بن الطيب السرخسي وثابت بن قرة الحراني، يذكر النغم، وتفصيل مجاريها، ومعانيها، حتى فهم ذلك فصنع لحناً، فجمع النغم العشر على التوالي فجعلها على الصوت الأخير، على التعديم والتأخير في قول دريد بن الصمة:

يـاليـتني فـيـهـا جـذع أخـب فـيـهـا وأقـع

وصنع صنعة جيدة منها، ماسمعناه من المحسنين والمحسنات، وفيها مالم نسمعه، يكون مبلغاً نحو خمسين صوتاً، وقد ذكرنا ذلك، ماصلح في أغاني الخلفاء[٢٠].

كان ثابت صديقاً ليحيى بن علي المنجم (المتوفي ٣٠٠هـ - ٩١٢م). كتب له رسالتين في علم الموسيقى وبإرشاد ثابت جمع يحيى غناء (عريب البرمكية)، بناء على أمر الخليفة المعتمد من دفاترها وصحفها، التي كانت قد جمعت فيه غناءها، فكان ألف صوت[٢١].

كان يحيى عالماً بفلسفة الأوائل، كتب رسالة في الموسيقى طبقاً للعلوم الرياضية، قال فيها: «مايجب أن يكون عليه المغني، من معرفة في أمر النغم، وعددها ومايأتلف منها، ومايختلف، ومواقع إصبع من وتر وتر، وموضع كل نغمة من كل دستان وتبين ماسماه إسحق بن إبراهيم الموصلي المجري في الأصواتع، التي بعضها بمجري البِنصر، واختلاف مابين أصحاب الغناء العربي، مثل إسحق ونظرائه، ممن جمع العلم بالصناعة والعمل، وبين أصحاب الموسيقى من الفلاسفة القدماء في عدد النغم[٢٢].

كانت الموسيقى علماً رياضياً، أصل أصوله ثابت بن قرة الحراني، وصار كل من جاء بعده يعتمد عليه، ولم تكن عادة المؤلفين العرب ذكر المصادر إلا في القليل والنادر.

مصادر الفارابي الموسيقية:

كان الفارابي عالماً في الموسيقى من الناحيتين النظرية والعلمية. وضع كتاباً لم يعرف مثله في العربية سماه (كتاب الموسيقى الكبير). نال إعجاب العرب والأعاجم، وقال عنه القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي «كان الفارابي في علم صناعة الموسيقى، وعملها قد وصل إلى غايتها، وأتقنها اتقاناً لامزيد عليه» قدّم الكتاب للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي، الذي كان به ميل إلى علم الأوائل، إلى الموسيقى المنسوبة إليهم، خاطبه الفارابي في المقدمة: «على أن تكميل الصناعة لمن تقدم، وللثاني فضيلة تكملة الرواية والترجمة، وتسهيل ماغمضه الأول فقط. على أني، وجدت في جميعها نقصاً عن عدم تمام أجزاء الصناعة، وإخلالاً في كثير مما أثبت فيها. وجُل مانحي به منها، نحو العلم النظري، فقد استعمل في تبينه أقاويل غامضة»[٢٣]. ثم يكمل مخاطبته للوزير: «إن مانقل منها إلى اللسان العربي، كتباً ناقصة. وعند ذلك رأيت، إجابتك إلى ماسألت عنه من صناعة الألحان التي قال عنها إسحق بن إبراهيم الموصلي «الألحان نسيج، ينشيها الرجال، وتجودها النساء».

إذن هدف الفارابي وغايته، تسهيل ماغمض من الأقاويل، وإكمال بعض الكتب الناقصة. معتمداً على ماجاء به الأوائل، أو المتقدمون عليه. ولكن الفارابي كالكندي، يغير على كتب غيره دون أن يذكرها في مراجعه، ويبدو أن تلك كانت سمة العصر.

اعتمد الفارابي على كتاب ثابت من قرة في الموسيقى، وكتاب الباهر في أخبار الشعراء المولدين، وكتاب النغم، وهما ليحيى بن علي المنجم، لأن أخبار إسحق بن إبراهيم الموصلي وأقواله أخذها الفارابي عن ابن المنجم دون أن يذكره.

حاول الفارابي أن يغمز من ثابت بن قرة، وشيعته الفيثاغورية بقوله: «إن مايعتقد فيثاغورس في الأفلاك، أنها تحدث بحركاتها نغماً تأليفية، إن ذلك باطل لأن الذي قالوه، غير ممكن وإن السموات والأفلاك والكواكب، لايمكن أن تحدث لها بحركاتها أصواتاً(٢٤). وإن مايقوله كثير من آل فيثاغورس، وقوم من الطبيعيين في أسباب هذه الأشياء (الأنغام التأليفية) فأكثره باطل، والحق فيه نزر، وقد بينا ذلك، عندما فحصنا آراءهم(٢٥). عندما يقولون أن الحكيم فيثاغورس، أول من استنبط صناعة الموسيقى العملية، وعنه أثبتت في الجمهور، بجودة فهمه، وقوته على إدراك الأشياء كلها، وليس هذا الظن حقاً على الإطلاق»(٢٦).

وكأنه يرد بذلك على ماورد عند ثابت وإخوان الصفا، الذين قالوا: إن فيثاغورس الحكيم، سمع بصفاء جوهر نفسه، وذكاء قلبه، نغمات حركات الأفلاك، فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقى، ونغمات اللألحان، وهو أول من تكلم بهذا العلم، وأخبر عن هذا السر»(٢٧).

وقالوا أيضاً: «فأما الحكماء الفيثاغوريين، فأعطوا كل ذي حق حقه، إذ قالوا: إن الموجودات بحسب طبيعة العدد، وهذا هو مذهب إخواننا، وبحسب رأيهم، في وضع الأشياء مواضعها، وترتيبهم، حق مراتبها على المجرى الطبيعي، والنظام الإلهي. واعلم ياأخي أيدك الله وإيانا بروح منه إن فيثاغورس، كان رجلاً حكيماً موحداً، من أهل حران»(٢٨).

ثم قالوا: «إن فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه، وذكاء قلبه نغمات حركات الألحان، وأخبر عن هذا السر من الحكماء، نيقوماخوس، وإقليدس، وبطليموس وغيرهم من الحكماء»(٢٩).

قال الفارابي:

إن الذين أثبتوا عدد القوى والنغم في الكتب صنفان:

- قدماء أهل التعاليم من اليونانيين:

وهؤلاء كانوا، يرون، أنه ليس سبيل الطبيعة من الألحان، سبيل الشرائع والسنن التي ربما حمل الناس عليها، في أكثر الأزمان، ويتبعون بعضهم بعضاً، على مايستحسن المألوف من الأمور، أي أن علم الموسيقى له صفة التراكم، وبالتالي التطور. ثم يذكر ماجرى بينهم من إختلاف وهم:

ـ فيثاغورس وأتباعه: الذين يعدون كل بعد يستعمل، هو من أصل اللحن، وهؤلاء يتخذون المبدأ الطبيعي أساساً في تعريف مقادير الأبعاد الصوتية، بدلالة الحدود الدالة على النغم في الأوتار المهتزة.

ـ (أرسطقسانس) وأتباعه: كانوا، يعدون كل بعد يستعمل في تزايدات اللحن، وتشعيباته، وهذا البعد لايوجد في أصول الألحان، ولايكاد، يوجد في تزايداته فلذلك أطرح عندهم، وصاروا لايعدونه، في المتلائمات، ولايعدونه في الإتفاقات.

وعلماء العرب (الذين زمانهم قريب من زماننا، ممن جرى في مملكة العرب).

ـ فبعض هؤلاء داموا الاقتفاء بقدماء اليونان عن علم ودراية.

ـ وبعضهم لم يقصدوا، أن ينحو نحو أهل التعاليم، ولكن كانوا مرتاضي السمع بالألحان، وأكثرهم كانوا من مهرة المزاولين أعمال هذه الصناعة، وأثبتوا ما وجدوه، أو كما أصح عندهم.

ـ وأما مايقوله المحدثون ممن ينحو نحو القدماء، فأولئك لاارتياض لهم في المحسوس منها، ولا علم القدماء، فهم إذا أعدو شيئاً من هذا، وأثبتوه في كتاب اعتمدوا على حسن ظنهم بمن سلف من القدماء[٣٠].

رأي الفارابي:

قال: «أما نحن، فقد تقدمنا، ووفينا بيان صناعة الموسيقى، ولخصناها كلها في كتابنا، الذي ألفناه في المدخل، وفي الأشياء الخارجة، المطبقة بهذا العلم، والمنسوبة إليه بالجهة الأخرى[٣١].

أراد أبو نصر أن يخبرنا أنه استنبط طريقة خاصة به، ولم يقلد أحداً، في العزف والممارسة العملية، وكان مثاله ثامسطيوس البيزنطي (٣٢٠ ـ ٣٩٠) كان شارحاً لأرسطو، ووزيراً مقرباً من الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ ـ ٣٦٣)، الذي كان فيلسوفاً بارعاً، وعازفاً غير ماهر. قال عن نفسه: «إني اعلم مما تعاطيت من التعاليم، أن النغمة، التي تسمى (المفروضة)، والتي تسمى (الوسطى)، لأحس باتفاقهما لقلة ارتياضي بهذا الباب. قال الفارابي: «وقد خبّر ثامسطيوس، إنه لايحس باتفاقهما، وإنه قد علم من العلم النظري اتفاقهما»[٣٢].

إذن كان الفارابي معتزاً بنفسه، لمعرفته النظرية، وخبرته العملية، التي أظن أنه قد تلقاها على أيدي كهنة حران المهرة في العزف. فهو يذكر أنه بعد عام (٣٠٦ هـ ـ

٩١٧م)، حمل آلة الشاهرود معه، وجربها عندهم. قال الفارابي: «وسمع منها جميع الألحان القديمة منها والمحدثة، فلم يكن مما وجد فيها من النغم، منافراً لأحد من الناس»[٣٣].

- هل كان الفارابي من إخوان الصفا؟

ذكر المستشرق الإنكليزي رينولد نيكلسون: (١٨٦٨ - ١٩٤٥) في كتابه تاريخ أدب العرب: أن حكماء العرب في أواخر القرن الثالث الهجري، إنشقوا إلى فرقتين:

الأولى فرقة المتكلمين: التي كان للكندي الفضل في تمهيد سبيلها، وكانوا يتبعون فيثاغورس، ثم مالوا إلى مبادىء الأفلوطنية المحدثة. التي بحثت في مبادىء الأشياء، وتتحرى المعنى والفكرة والروح، ولاتصف الله بالحكمة في الخلق، أو بالعلة الأولى، ولكن بأنه واجب الوجود وكانتقدر الأشياء بوجودها، فتسعى في إثبات ذلك أولاً، وكان الفارابي رئيس هذه الفرقة وزعيمها والمقدم فيها، وإليه المرجع، وعليه الاعتماد.

أما الفرقة الثانية فهي فلاسفة الطبيعة: وكان ظهورها بحران والبصرة. والمقدم فيها أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. وقصرت بحثها على ظواهر الطبيعة المادية المحسوسة، مثل تخطيط البلدان وأحوال الشعوب، ثم ترقت في البحث، إلى النفس والروح، فالقوة الإلهية عرفوها بالعلة الأولى «الخالق الحكيم»، الطاهر حكمته في مخلوقاته»[٣٤]. هذا الرأي مستمد عن المسعودي حينما تكلم عن صابئة حران قال: كانت بينهم رسائل معروفة عندهم من علوم الأوائل، على مذاهب الفيثاغوريين، والإنتصار لهم، وآخر من صنف في ذلك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[٣٥].

والفارابي كذلك يؤمن بالفيثاغورية، التي تؤمن أن الله خالق الكون، وبالتناسخ، وبتأثير الكواكب في تدبير شؤون البشر.

سأعتمد في تقييم فلسفة الفارابي، على فيلسوفين عظيمين من فلاسفة العرب: هما:

رأي ابن طفيل وابن رشد بفلسفة الفارابي:

أبو بكر بن الطفيل (توفي ١١٨٥):

قال عنه: إن مااتصل بنا من كتبه في الحكمة الصحيحة، مملوء بالريب والتناقض، لشكوك أبي نصر في خلود النفس، قال في: «كتابه الملة الفاضلة». «إن النفوس الخبيثة تبقى بعد الموت، في عذاب أبدي، ثم ذكر في كتابه السياسة، إن تلك النفوس الخبيثة،

تتحول إلى العدم، ولاتخلد إلا النفوس الكاملة[٣٦]. ثم قال: إن أبا نصر ذكر في شرحه لكتاب الأخلاق لأرسطو: إن أرقى مايصل إليه الإنسان، هو في هذه الدنيا، وإن الخير الأسمى هو أيضاً في هذه الدنيا، وإن كل مايقال بوجوده بعد هذه الدنيا ليس إلا تراهات أشبه بخرافات العجائز. وهذا هو راي الحرانية.

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (توفي ١١٩٩):

قال عن الفارابي: «وهذه الاعتراضات، التي دعت أبا نصر في شرحه لأخلاق أرسطو إلى القول: بأن الإنسان، لايستطيع الوصول إلى درجة أرقى، من التي يصل إليها بالنظر في العلوم العقلية، ثم أضاف إلى ذكر تلك الاستحالة قوله: بأن وصول الإنسان إلى حالة الجوهر الفرد المجرد عن المادة، ليس إلا من تراهات العجائز، لأن مايولد ثم يموت، ليس من صفاته الخلود. وقد أدت هذه الفقرة إلى تكفير الفارابي، واتهامه بالتناسخ[٣٧].

إن اتهام ابن الطفيل وابن رشد للفارابي بالتناسخ له أساس في كتابه المدينة الفاضلة.

قال: «وإذا مضت طائفة، فبطلت أبدانها، وخلصت أنفسها وسعدت، فخلفهم ناس آخرون في مرتبتهم بعدهم، قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم». ونقل عن كتابه (الملة الفاضلة): إن نفوس الدهريين، والمنافقين والأشرار، التي تفقه معنى الخير الأعلى، ولاتحاول بلوغ شأوه، تبقى بعد موته محيطة بما ينقصها، لترتقي لدرجة الكمال، ثم لاتستطيع أن تكمل، ولا أن تهلك، بل تبقى معلقة بين بين، وهي تقاسي في ذلك الأمرين. أما النفوس الجاهلة، التي لم يصل علمها في الحياة الدنيا إلى معرفة الخير الأسمى، فإنها تعود إلى العدم المطلق»[٣٨].

ـ أليس هذا هو اعتقاد صابئة حران؟ وإخوان الصفا في الحياة ومابعدها؟.

وهذا كتابه «السياسة المدنية» أو كتاب «الموجودات». يبحث فيه مبادىء الموجودات الستة الروحانية:

١ ـ المبدأ الإلهي، أو السبب الأول، وهو فردي ـ أي واحد لايتعدد. ٢ ـ الأسباب الثانوية أو عقول الأجرام السماوية. ٣ ـ العقل الفعّال. هذه الموجودات ليست أجراماً، وليس لأحدها علاقة مباشرة بالأجرام.

٤ ـ النفس ٥ ـ الصورة ٦ ـ المادة المعنوية. وهذه الثلاثة الأخيرة ليست بذاتها أجراماً ولكنها متعلقة بها.

والأجرام على ستة أنواع هي: ١ ـ أجرام الدوائر الفلكية٢ ـ الحيوان العاقل ٣ ـ الحيوان غير العاقل ٤ ـ النبات ٥ ـ المعادن ٦ ـ العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب).

ومجموع هذه الأنواع يكوّن الوجود.

دعاء الفارابي الأفلاطوني:

وفي شرحه لهذه المبادىء، لايخرج عن التصورات الأفلوطينية المحدثة، وما جاء في رسائل إخوان الصفا، وهذا دعاؤه الأفلاطوني: الذي ورد في كتاب ثابت بن قرة الحراني، القراءات في الصلوات قال الفارابي:

ـ اللهم إني أسألك ياواجب الوجود. وياعلة العلل، ياقديماً لم يزل. أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لي من الأمل، ماترضاه لي من عمل.

ـ اللهم امنحني مااجتمع من المناقب، وارزقني في أموري حسن العواقب، ونجح مقاصدي والمطالب، ياإله المشارق والمغارب. رب الجوار الكنس، السبع التي انبجست عن النفس الكلية، انبجاس الأبهر. هن الفواعل عن مشيئتها، التي عمت فضائلها جميع الجواهر، أصبحت أرجو الخير منك، وأمتري زحلاً ونفس عطارد والمشتري.

ـ اللهم ألبسني حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء.

ـ اللهم أنقذني من عالم الشقاء والفناء، واجعلني من (إخوان الصفا، وأصحاب الوفاء) وسكان السماء، مع الصديقين والشهداء.

ـ أنت الله الذي لا إله إلا أنت، علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، امنحني من العقل الفعّال، ياذا الجلال والأفضال. هذّب نفسي بأنوار الحكمة، وأوزعني شكر ماأوليتني من نعمة، أرني الحق حقاً، وألهمني اتباعه، والباطل باطلاً واحرمني اعتقاده واستماعه. هذّب نفسي من طينة الهيولى، إنك أنت العلة الأولى.

ـ اللهم رب الأشخاص العلويّة، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات والدنيا الدنيّة، فاجعل عصمتك مجني، من التخليط، وتقواك حصني من التفريط، إنك بكل شيء محيط.

ـ اللهم أرِ نفسي صور الغيوب الصالحة، في منامها، وبدلها من الأضغاث برؤيا الخيرات، والبُشرى الصادقة في أحلامها، وطهرها من الأوساخ، التي تأثرت بها عن

محسوساتها، وأوهامها، وأمط عنها كدر الطبيعة. وأنزلها في عالم النفوس المنزلة الرفيعة.

ـ اللهم الذي هداني، وكفاني، وآواني[٣٩].

هذا الدعاء الأفلاطوني هو نفس التوسل الإدريسي (أو الهرمسي)، الوارد في كتب ثابت بن قرة الحراني. وفيه تجد خلاصة اعتقاد صابئة حران، وغاية قول إخوان الصفا.

وهل من الصدفة، وحتى بعد أن أصبحت حران مدينة تدين بالفكر الباطني الإسلامي، ما يورده القفطي: «إن عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي الأندلسي (٣٦٧ ـ ٤٥٨هـ)، رحل إلى ديار الشرق، إلى حران ثم رجع إلى الأندلس، واستوطن مدينة سرقسطة، وجلب معه الرسائل المعروفة «برسائل إخوان الصفا»، ولم يعلم أن أحداً قبله، أدخلها إلى بلاد الأندلس[٤٠].

لاشك أنه، كانت ثمة علاقة واضحة بين إخوان الصفا وأهل حران حتى بعد إسلامهم.

المراجع:

١ ـ طبقات الأمم ص ٨٣ ـ ٨٤ القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي دار السعادة بمصر.
٢ ـ الفارابي ص ٢٣ عباس محمود العقاد القاهرة ١٩٤٤.
٣ ـ المصدر السابق ص ٢٠.
٤ ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٥ المسعودي قاسم وهب دمشق ١٩٨٨.
٥ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثاني ص ٦٠ مصطفى عبد الرزاق دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٥.
٦ ـ المصدر السابق ص ٦٩.
٧ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٥ نشر دار المثنى ـ بغداد.
٨ ـ تاريخ حكماء الإسلام ص ٣١ ـ ٣٣ ظهير الدين البيهقي ـ تحقيق محمد كرد علي دمشق ١٩٤٩.
٩ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثاني ص ٦٦.
١٠ ـ كتاب الموسيقى الكبير ص ١١٦ لأبي نصر الفارابي تحقيق غطاس عبد الملك خشبة ـ دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٧٣.
١١ ـ المصدر السابق ص ١١٧.
١٢ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٩.
١٣ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.
١٤ ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٣٠ تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٧٦.
١٥ ـ تراث الإسلام ص ٥١٧ ترجمة جرجس فتح الله دار الطليعة ١٩٧٤.
١٦ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.
١٧ ـ تاريخ الموسيقى العربية ص ١٧٨ جورج فارمز ترجمة جرجس فتح الله دار الطليعة ١٩٧٤.
١٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
١٩ ـ كتاب الأغاني ج ٩ ص ٥٩ ـ ٦٠ لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق الحاج محمد الساسي التونسي الوراق تونس ١٩٣٦.

٢٠ ـ المصدر السابق ج ١٨ ص ١٧٦ طبعة تونس.
٢١ ـ رسالة ابن المنجم في الموسيقى ص ١٨٩ ـ ١٩٠ تحقيق د. يوسف شوقي مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٦.
٢٢ ـ تاريخ فلاسفة الإسلام ص ٣٠ محمد لطفي جمعة القاهرة ١٣٤٥ هـ.
٢٣ ـ كتاب الموسيقى الكبير للفارابي ص ٣٦.
٢٤ ـ المصدر السابق ص ٨٩.
٢٥ ـ المصدر السابق ص ٩٩.
٢٦ ـ إخوان الصفا ج ٣ ص ٢١١.
٢٧ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٩.
٢٨ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢١٠.
٢٩ ـ كتاب الموسيقى الكبير ص ١٣٨.
٣٠ ـ المصدر السابق ص ١١٨٩.
٣١ ـ المصدر السابق ص ١٠٣.
٣٢ ـ المصدر السابق ص ١٣٨.
٣٣ ـ تاريخ فلاسفة الإسلام ص ١٥ ـ ١٦,
٣٤ ـ المصدر السابق ص ١٣٨.
٣٥ ـ المصدر السابق ص ٢٤.
٣٦ ـ المصدر السابق ص ٢٥.
٣٧ ـ المصدر السابق ص ٢٥.
٣٨ ـ المصدر السابق ص ٣٠.
٣٩ ـ الفارابي ص ٦٩ ـ ٧٠ سعيد زايد أعلام الفكر العربي دار المعارف القاهرة ١٩٦٢.
٤٠ ـ تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٤٣.

الفصل الرابع
أهم المرتكزات النظرية في رسائل إخوان الصفا

أولاً ـ طريق المعرفة:

سادت في رسائل الأخوان حُرية الفكر وعدم التعصب المذهبي، حيث قالوا لأتباعهم: «ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى أن لايعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولايتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن راينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم كلها»[1]. وكان شعارهم: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطتها».

كيف يُحصّل الإنسان علمه؟. هناك ثلاثة طرق:

ـ طريق الحواس ـ وفيه تعرف النفوس ما هو أخس من جوهرها، ونحصل بها على العلوم الطبيعية.

ـ طريق البرهان ـ وفيه تعرف النفوس ماهو أعلى منها وأشرف، ونحصل بها على العلوم الفلكية والرياضية.

ـ طريق التأمل العقلي ـ وفيه تعرف النفوس ذاتها وجوهرها، أو إدراكها إدراكاً مباشراً[2] للعلوم الربانية.

وكان مكتوباً على باب مجمع الصابئة في حران «من عرف ذاته تأله».

وكانوا يؤكدون على دور المعلم الخبير في تعليم جماعتهم. مما دفع أبو حامد الغزالي في نقده لهم على هذه الناحية. قال: «فإذا قيل لأحدهم هات علم معلمكم وأفدنا من تعليمه، وقف وقال: الآن إذا سلمت له هذا فاطلبه. وعلم لو أنه زاد على ذلك لا افتضح وعجز عن حل أدنى الإشكالات»[3].

كان الإسماعيلية مثلهم يسمون بالتعليمية؛ لتأكيدهم أن العلم يجب أن يؤخذ عن إمام موثوق بعلمه. وطبقاً لذلك جزم هنري كوربان أن هذه الرسائل هي من التراث الإسماعيلي. قال «يمكننا أن نقر بما قال به إيفانوف من أنه منذ عهد الإمام أحمد كان

هناك نواة لهذه الرسائل مالبث أن توسعت مع الزمن حتى أصبحت مجموعة رسائل الإخوان»[٤] . ثم يذهب إلى أبعد من هذا مقرراً: إن الجماعة لم يؤلف بين قلوبهم المذهب الشيعي، وحسب بل كانوا جماعة فكرية ذات نزعة إسماعيلية خالصة، بالرغم من أن كتاباتهم الحذرة لاتكشف الأمر إلا لأولي العلم والإدراك)[٥] وإلى هذا الرأي ذهب الدكتور عارف تامر ومصطفى غالب.

هل الديانة الإسماعيلية ديانة نجومية، تعزو تدبير هذا العالم، ومافيه إلى أحكام النجوم؟. أم أن هذه هي دعوة الحرانية؟. وإخوان الصفا هم طليعتهم الفكرية، وهم القائلون: «ومن شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الرضا بالقضاء والقدر، وهو طيب النفس بما يجري عليها من المقادير، وهو موجبات أحكام النجوم والقضاء، وهو العلم السابق بما توجبه أحكام النجوم، مثلما رضي به الرسول (ص) يوم أحد لما قتل خيار أنصاره وفضلاء المهاجرين وكسرت رباعيته وجرى عليه من المقادير الفلكية ماجرى»[٦] هذه التعاليم لايقرها الإسلام، ولا المذهب الإسماعيلي.

يدافع إخوان الصفا عن تعاليم ديانتهم النجومية قائلين: «اعلم أن أحكام النجوم هي إحدى أمهات الخلاف بين الناس مذ كانوا. والعلماء في حكمها على ثلاثة أقاويل:

القول الأول (للحرانية):

الذين يعتقدون أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السفلية، ولها فيها أفعال وتأثيرات، وإنهم أحياناً ناطقون، وهم ملائكة الله وملوك أفلاكه، وسكان سماواته، عرفوا ذلك بعد النظر في العلوم الإلهية وأحكامها، العلوم الإلهية عرفوها بعد النظر في العلوم الطبيعية، وأحكامها، فسموا المؤثررات روحانية الكواكب في الكائنات. ثم أضافوا قولهم: «لايعرف كيفية تأثيرات هذه الكواكب وأفعالها إلا الراسخون في العلم من الحكماء والفلاسفة البالغون في المعارف الربانية المؤيدون من السماء بتأييد الله وإلهامه»[٧]. وهذا اعتقاد الحرانية في الكهانة التي افتخر بها ثابت بن قرة.

القول الثاني (لأصحاب كتب التنجيم):

وهؤلاء يعتقدون أن للنجوم دلالات، وليس لها فعل ولا تاثيرات؛ وإنما عرفوا ذلك لطول التجارب وكثرة الاعتبار قرناً بعد قرن، كما يتبين ذلك في كتب الأحكام [٨] . وإذ كان المنجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم أو في أكثرها، لا تبطل صناعة علم

النجوم، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لإدريس النبي[٩]. وهو هرمس الحكيم بني الحرانية.

القول الثالث (لأهل الديانات السماوية):

الذين أنكروا دلالات الأشخاص الفلكيةوأفعالها، لتركهم النظر في علم أحكام النجوم، وإغفالهم تعاليمها، وإعراضهم عن البحث عنها[١٠]. أما الرسالة الجامعة التي تنسب أحياناً إلى أئمة المذهب الإسماعيلي. جاء فيها مايناقض مما جاء في رسائل إخوان الصفا قالوا: واعلموا أن للمنجمين تمويهات لاتنفق إلا على الجهال والعوام والنساء والصبيان والحمقى، واعلم أنه لايعتبر بقول المنجم إلا الطغاة البغاة ممن ملوكهم الجبابرة والفراعنة المنكرون أمر الآخرة ودار المعاد، الجاهلون بالعلم السابق والعذر المحتوم[١١]. ثم أضافوا: «يُقتل المنجمون الذين لايعرفون خالق النجوم ومدبرها. وعلى هذا القياس تجري أحكام النجوم لاينفعهم ذلك من قضاء الله وقدره شيئاً»[١٢]. وكيف يجوز أن يستعان بالفلك على مدبر الفلك؟[١٣].

ماسبب هذا التناقض بين رسالة الحيوان والإنسان وبقية الرسائل؟. أرى أن السبب أن هذه الرسالة الأخيرة أعيد تحريرها تحت إشراف أئمة الإسماعيلية، بما يجعلها تتفق والإسلام. على عكس المذهب السني الذي وقف منها موقف الرفض جملة وتفصيلاً، وقد أمر الخليفة العباسي عام ٥٥٤ هـ /١١٥١ م بأن تحرق رسائل الإخوان جميعها سواء الموجود منها في المكتبات الخاصة والعامة مع مؤلفات ابن سينا[١٤]. يقول هاملتون جب: «إن النظام السني السياسي ظل شديد الخوف من التفكك، واحتاجت الحكومة إلى رعاية الأمور الدينية، وحيثما توحدت مناطق غرب آسيا إزدادت ضروب الصلات بين مدنها؛مما بعث الموروث الثقافي الهيلينستي فدخلت حومة الثقافة العربية العلوم الفيزيائية والطبيعية والتنجيم والموضوعات الهلنستية التي تحتويها القصص والحكايات[١٥]. وبعد تولي الفاطميون لحكم مصر أقاموا مذهباً دينياً على أساس المزاوجة بين الإسلام والثقافة الهلينيستية، وكتب إخوان الصفا رسائلهم في العلوم الطبيعية»[١٦]. ثم اعتمد المذهب الفاطمي عليها في دعوتهم السرية؛خصوصاً في تنظيم مراتب الدعوة التي اعتمدت على فلسفة الإشراق الأفلاطونية الحديثة، وكانوا يسمون بالتعليمية لوجود إمام يزوّد الناس بالتعليم المعتمد الموثوق به، المعتمد على التأويل الرمزي الذي يكشف المعنى الباطني للقرآن، والوسيلة التي يبررون بها النظام الإسماعيلي[١٧]. بجعلهم الأمور السياسية

مراتباً، وجعلوا لكل مرتبة سلطة عليا بمثابة الراس للبدن، تسوسه وتدير شؤونه وهذه المراتب هي:

١ ـ السياسة النبوية: وهي التي تخضع وتدعوا الناس إلى ترك الديانات الفاسدة وهجر العادات السيئة.

٢ ـ السياسة الملوكية: وهي التي تقوم على حفظ الشريعة وتطبيق الحدود وترك المظالم.

٣ ـ السياسة العامية: وهي التي تتحقق برئاسة الأمراء على البلدان والمدن، ورئاسة الدهاقين وعلى أهل القرى، ورئاسة الجيوش على العساكر، ومهمتها رعاية هذه الطبقات وتفقد أحوالها.

٤ ـ السياسة الخاصة (التدبير المنزلي)، وهي رعاية الإنسان لشؤون منزله، وأمر معيشته وأحوال عائلته وأولاده.

٥ ـ السياسة الذاتية (رعاية المرء لنفسه)، وهي أن ينظر الإنسان إلى نفسه، يراعي أخلاقه ويتفقد أفعاله وأقواله في حالتي الرضا والغضب[١٨].

لقد جمعت رسائل الإخوان بين حرية فكر المعتزلة، واتجاه المذهب الإسماعيلي، نحو الجمع بين شتى الآراء والمذاهب، وقد صيغت رسائلهم بأسلوب قريب من إفهام العامة في ضربهم الأمثال والقصص الجذابة والحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان[١٩] وكانت تُدرَّس هذه الرسائل في مدارس الدعاة؛ ليتعلموا منها «كيفية مخاطبة الناس».

وكان منهجهم النفسي والتربوي في التعليم يعتمد على:

علم الطباع:

وهو علم يعتمد على عوامل طبيعية ثلاثة:

أ ـ أحكام النجوم: التي تؤثر في الجنين قبل الولادة ومابعدها، حتى عمر أربع سنوات فهو في تدبير فلك القمر تشاركه سائر الكواكب. ثم يصير التدبير لعطارد ثلاثة عشر سنة وهو صاحب النطق والحركة والتعاليم، ثم يصبح التدبير للزهرة ثماني سنوات، وهي صاحبة الحسن والزينة والإنهماك في الشهوات والنكاح والحرص على جمع المال[٢٠]. ثم يصبح التدبير للشمس عشر سنوات تظهر من المولود (الكدخدائية) أي (بلوغ الحلم أو العقل) في المنزل وتربية الأولاد فيها خصال الملوك والدهاقنة في

القرى[٢١]. ثم يصبح التدبير للمريخ (سبع سنوات) ؛ صاحب الحزم والعزم ومن مدبري الملك والناموس، ثم يصبح التدبير للمشتري (أثنى عشر سنة)، وهو صاحب الدين والورع والرجوع إلى الله[٢٢].

ب ـ اختلاف نسب العناصر في الجسم والأخلاط.

ج ـ فعل البيئة الطبيعية وتأثيرها.

علم التربية المكتسبة بالتقليد والتلقين والتفكير:

كان الإخوان يفضلون التوجه بدعوتهم نحو الشباب، لأن نفوسهم مهيأة لتتقبل الدعوة الجديدة، وكانوا يستبعدون الكهول والنساء، وكانوا يندبون لهذه المهمة دعاة ذوي بصيرة بطبقات المجتمع، فهناك من يحسن مخاطبة أولاد الملوك والأمراء والعمال والكتّاب والتجار والعلماء والفقهاء والصناع والعرافين[٢٣]. وقد قسموا الناس إلى أعمار مختلفة.

ـ الشباب الذين هم دون العشرين يدعونهم لحفلة عامة، هو وأتراب له من سنه، أما من هم فوق سن العشرين فإنهم يرسلون لكل واحد منهم رجلاً من صناعته يعاشره مدة من الزمن دون علم منه بغرضه، ثم يعرض عليه أهداف الجماعة عندما تحين الفرصة المناسبة.

ـ وإن كان المدعو صاحب مركز إجتماعي أرسلوا له رجلاً يتناسب ومركزه، يعقد معه أواصر الصداقة، فإن أنس عنده استعداداً للإنضمام فاتحه بالأمرفي الوقت المناسب[٢٤]. فإذا انضم إليهم، وصار داخل الجماعة قسموهم حسب أعمارهم وقدمهم وتحمسهم للدعوة، إلى أربعة مراتب.

١ ـ مرتبة الإخوان الأبرار الرحماء:

وهم ممن أتموا الخامسة عشرة سنة من العمر ممن تنبهت فيهم القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة، وتقابل مرتبتهم ذوي الصنائع في المدينة.

٢ ـ مرتبة الإخوان الأخيار الفضلاء:

وهم ممن بلغوا ثلاثين سنة وتنبهت فيهم القوة الحكيمة الواردة على القوة العاقلة، ويتميزون بمراعاة الإخوان وسخاء النفس والعطاء والجود والشفقة والرحمة على الإخوان، ومرتبتهم مرتبة الرؤساء ذوي السياسات.

٣ ـ مرتبة الإخوان الفضلاء الكرام:

وهم ممن بلغوا سن الأربعين وهؤلاء يعرفون النواميس، ويدونون العقائد، ويوضحون المناهج ويدافعون عن الحقائق، ويعملون على نشرها وعلى بث الدعوة، وهذه هي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي وحل الخلاف عند ظهوره بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه(٢٥).

٤ ـ مرتبة الكمال:

وهي مرتبة ممن بلغوا خمسين سنة، وهي المرتبة الحائزة لجميع رياضيات النفس والممهدة للمعاد والمفارقة للهيولى، وعليها تنزل قوة المعراج، وبها تصعد إلى ملوك السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث، والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن ذوي الجلال والإكرام(٢٦).

كان دعاة الإخوان في المرحلة الأولى بدأوا بالاتصال الشخصي، فلما زاد عددهم وتنبه الجميع لخطرهم استعملوا الرسائل في دعواهم الحرانية(٢٧).

المراجع:

١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٠٥.
٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٤.
٣ ـ المنقذ من الضلال ص ٤٣ الغزالي.
٤ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٣ هنري كوربان.
٥ ـ المصدر السابق ص ٢١٠.
٦ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٧٣ ـ ٧٤.
٧ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥.
٨ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٠.
٩ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٢.
١٠ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٠.
١١ ـ رسالة الحيوان والإنسان ص ١٤٥.
١٢ ـ المصدر السابق ص ١٤٦.
١٣ ـ المصدر السابق ص ١٤٩.
١٤ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٥٧.
١٥ ـ دراسات في حضارة الإسلامية ص ٢٤ هاملتون جب ترجمة إحسان عباس دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤,
١٦ ـ المصدر السابق ص ٢٥.
١٧ ـ حضارة الإسلامية ص ٢٥٢ جوستاف جروينباوم ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٥٦.
١٨ ـ مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٩ سعيد زايد دار القلم القاهرة ١٩٦٩.
١٩ ـ تاريخ الفكر الأندلسي ص ٥٥٨ انخل جنثالث بالنثيا ترجمة حسين مؤنس مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٥.
٢٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٤٤٦.

٢١ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٧.
٢٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٨.
٢٣ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢١٤.
٢٤ ـ مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٣.
٢٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١١٩.
٢٦ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٠.
٢٧ ـ مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٤.

ثانياً ـ المباحث التي تضمنتها رسائل إخوان الصفا:

إن أصحاب فلسفة أرسطو من اليونان، والمفسرين لأفكاره من علماء مدرسة الإسكندرية أمثال أمونيوس وسميلقيوس وثامسطيوس ويحيى النحوي قسموا العلوم العقلية إلى ثلاثة أنواع هي:

١ ـ مباحث في الحكمة الطبيعية.

٢ ـ مباحث في الحكمة الرياضية التعليمية

٣ ـ مباحث في الحكمة الإلهية أو مابعد الطبيعية.

وزاد إخوان الصفا عليها مبحثاً رابعاً هو:

٤ ـ مباحث في الحكمة النفسانية والعقلية. وهذا مفصل لمواضيع الرسائل:

النوع الأول ـ مباحث الحكمة الطبيعية:

يتعلق وجودها بالمادة الجسمانية (الهيولى) والحركة، كالأجرام السماوية والعناصر الأربعة والآثار العلوية، والنبات والمعادن، والنفس الحيوانية، والقوى الدراكة، ومايوجد بالأحوال خاص بها. مثل الحركة والسكون والكمون والفساد، وأقسامها الفرعية، وهي سبعة (الطب وأحكام النجوم والفراسة، والتعبير والرؤيا والنيرنجات والكيمياء[1] وكل ماينظر في الوجود المتغير وتضم تلك المباحث سبع عشرة رسالة هي:

رسالة الهيول والصورة، ورسالة السماء والعالم، ورسالة الكون والفساد، ورسالة الآثار العلوية، ورسالة في كيفية تكوين المعادن، وعلة اختلاف جواهرها، وكيفية تكوينها في باطن الأرض، ورسالة في ماهية الطبيعة، ورسالة في أخبار النبات، ورسالة في أصناف الحيوان، ورسالة في تركيب الجسد، ورسالة في الحاس والمحسوس، ورسالة في مسقط النطفة، ورسالة في معنى قول الحكماء (إن الإنسان عالم صغير)، ورسالة في كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية، ورسالة في

طاقة الإنسان في المعارف، ورسالة في ماهية الموت والحياة، ورسالة في ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية، ورسالة في علل اختلاف اللغات.

النوع الثاني ـ مباحث الحكمة الرياضية والتعليمية:

وهي أمور وجودها متعلق بالمادة والحركة، وحدودها غير متعلقة بهما ضرورياً كالعدد وخواصه، ومثل الكروية والتدوير والتربيع وغير ذلك، وأصولها أربعة (علم العدد وعلم الهندسة وعلم الهيئة وعلم الموسيقى[٢] والعلم الرياضي هو العلم الذي ينظر في الكمية مجردة عن الهيولى[٣].

وتحتوي الرسائل على أربع عشرة رسالة، تبحث في العدد والنجوم والموسيقى والجغرافيا، والنسب العددية والصلات الروحية بين الأعداد والصنائع العلمية، والمدخل إلى المنطق (الإيساغوجي)، والمقولات العشر والعبارة والقياس والبرهان.

علم الحساب:

العلم عند إخوان الصفا، هو صورة المعلوم في نفس العالم، والجهل هو تصور الشيء غير صورته[٤]، ولنفوس العلماء علاقة بالفعل، ولنفوس المتعلمين علاقة بالقوة، والتعلم والتعليم إخراج مافي القوة (الإمكان) إلى الفعل، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي (تعليماً)، وإذا نسب إلى المتعلم سمي (تعلماً). والعقل الإنساني يتميز به الإنسان دون سائر الحيوان[٥]. وللعلم البشري مصدران هما:

أ ـ مايستخرجه الإنسان بقوة نفسه وفكره ورويته وإجتهاده. كما يزعم الفلاسفة.

ب ـ مايتعلمه الإنسان بالوحي كما يقول الأنبياء عليهم السلام. قالوا: واعلم ياأخي علماً يقينياً أنه ليس من البشر من يحيط بعلم من العلوم، لا الأنبياء ولا الفلاسفة، ولاغيرهم (لأن المعرفة نسبية ضمن حدود الزمان والمكان)، وإن زعم بعضهم أنهم استخرجوا العلوم والصنائع بقوة عقولهم، فذلك أنهم شاهدوا مصنوعات الطبيعة، ولولاها لما اهتدوا إلى شيء منها، لأن الطبيعة مؤيدة للنفس الكلية، والنفس الكلية مؤيدة بالعقل الكلي الذي، هو أول الموجودات من البارىء سبحانه المؤيد للكل»[٦].

والمعلم الذي اعتمد عليه، إخوان الصفا، هو فيثاغورس الساموسي (٥٨٢ ق.م ٥٠٢ ق.م)، وهو خزانة حكمتهم وفلسفته قائمة على تفسير الوجود، على أساس أن الأشياء كلها أعداد، والعدد الذي يرد في ذهنه على شكل أشكال، كما تبدو في زهر

اللعب، وهذه الأعداد مقدسة لاتحتمل الشك؛ والفكر عنده أسمى منزلة من الحواس، وإن كل ماندركه بالتفكر هو أقرب إلى الحق مما ندركه بالحواس، وإن كل مايبدو أفلاطونياً هو مستمد عند التحليل من فيثاغورس في جوهره، وإن الفكرة القائلة بوجود أزلي ينكشف للعقل ولاينكشف للحواس، مستمد من فكر فيثاغورس أيضاً، إذ لولاه لما فكر المسيحيون في المسيح على أنه اللوغوس (الكلمة)[7].

أما فيثاغورس فهو عند إخوان الصفا كان رجلاً حكيماً من أهل حران، وكان تحديد الغاية بالنظر في علم العدد، وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الإثنين ومعرفته معرفة وحدانية الله - عز وجل - وفي معرفة خواص العداد وكيفية ترتيبها ونظامها، معرفة لموجودات الباري تعالى، وإن العدد مركوز في النفس، يحتاج إلى أدنى تأمل، ويسير من التذكار حتى يستعين ويعرف بلا دليل[8]. ولايبحث الإخوان في العدد من حيث هو، وإنما يبحثون في دلالته وخصائصه، ويعللون الأشياء بما يتفق والمذهب الفيثاغوري الذي هو عندهم علم إلهي، وهو أشرف من المحسوسات التي كونته على مثال الأعداد، والمبدأ المطلق لكل وجود مادي، أو ذهني هو الواحد الذي تتجلى لهم منه، إتقان الحكمة الإلهية، فمن أجل ذلك قالوا: إن الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه، فكون الكواكب السيارة سبعة مطابق الأول عدد كامل (٣ + ٤)، وكون الأفلاك تسعة مطابق الأول عدد فرد مجذور (٣ × ٣) أو (√٩ = ٣). وكون البروج إثني عشر مطابق الأولعدد زائد (٣ × ٤)، وكون النازل ثمانية وعشرين مطابق العدد تام (٧ × ٤) أو (٧ + ١٢ + ٩). هذا ماذكره تنبيهاً لنفوس المتعلمين المرتاضين في خواص العدد، ومطابقة الموجودات لخواص العدد وطبيعته على رأي الحكماء الفيثاغرويين[9]. وقد ترجم ثابت بن قرة كتاب برقلس المسمى خواص العدد.

علم الهندسة:

هي من عالم معقول فوق مستوى الحس، تبحث في دوائر مضبوطة، ثم جاء أفلاطون بعد فيثاغورس وجعل الله محيط بعالم الهندسة، لذا قال عنهما برتراندرسل «كانا من أهم من شهدت الدنيا من رجال من الوجهة العقلية»[10]. وما الأشكال الهندسية المنظورة بالعين المجردة، فهي مجرد وسيلة تسهل فهم الفلسفة على المبتدئين، والحساب هو وحده العلم العقلي الصحيح، لأن الهندسة منها ماهو حسي كالخطوط والسطوح، ومنها ماهو عقلي كالأبعاد من طول وعرض وعمق، وهي تهدي النفوس من المحسوسات إلى المعقولات، ومن ذوات الهيولى إلى المجردات[11].

علم التنجيم:

غايته ـ عند إخوان الصفا ـ إرشاد النفوس وهدايتها إلى النظر في الكواكب وعلم التنجيم الذي يتنبىء بالمستقبل(١٢). قالوا: اعلم أن الفقهاء، وأصحاب الحديث، وأهل الورع والمتنسكين قد نهوا عن النظر في علم النجوم، وإنما نهوا عنه لأنه جزء من علم الفلسفة، وهم يكرهون النظر في علم الفلسفة للأحداث والصبيان وكل من يتعلم علم الدين، ولايعرف من أحكام الشريعة، مايحتاج إليه. أما من تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين فإن نظره في علم الفلسفة لايغيره بل يزيده علم الدين تحققاً(١٣).

بعد قرنين من الزمن نهى الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ هـ ـ ٥٠٥هـ) عن تعلم الفلسفة، لأن الفلاسفة أصناف، ولكن حاصل علومهم لها سمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم، والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه»(١٤).

كما نهى عن تعلم الرياضيات؛لأنها علوم برهانية تولد آفتان:

الأولى: من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسببها اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم، ويكفر بالتقليد المحض(١٥) ـ أي الدين ـ.

الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينظر بإنكار إلى كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم، وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ماقالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، فيزداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً(١٦).

علم المنطق:

يحتل هذا العلم مكاناً وسطاً بين الطبيعيات والإلهيات عند إخوان الصفا، وله أقسام عندهم هي: المدخل أو الإيساغوجي والمقولات، والعبارة والقياس والبرهان، يقتصرون على ذلك ولا يسيرون حتى نهاية الفرع، كالجدل والسفسطة والخطابة والشعر، كما هو الحال عند أرسطو، وأضافوا إلى الكليات الخمسة في الإيساغوجي (لفظة الشخص)، فأصبحت الكليات عندهم مادل على الأعيان والموصوفات (كالشخص والنوع والجنس). والمعاني والصفات يدل على (الفصل والخاصة

والعرض). قالوا: واعلم أن الألفاظ التي يستعملها الفلاسفة في أقوالهم وإشاراتهم إلى المعاني التي في أفكار الناس ستة أنواع: ثلاثة منها دالات على الأعيان التي هي موصوفات (الشخص والنوع والجنس). وثلاثة منها دالات على المعاني هي صفات (الفصل والخاصة والعرض)[١٧].

فالشخص ـ كل جملة يشار إليها دون غيرها، متميزة من غيرها بالأفعال والصور، ولايطلق إلا على الجسم، وهو الجوهر الممتد في الجهات، ومنه البسيط (كجسم الفلك)، والمركب والمؤلف من أجسام مختلفة الطبائع كالجماد والنبات والحيوان[١٨].

النوع ـ ماهية الشيء، وله الاسم والفعل والقيامة.

الجنس ـ صفة جماعية متفقة بالصور يعمها معنى واحد.

الفصل ـ هو القول الواضح البين الذي ينفصل به المراد عن غيره، أو الفرد الذي تتم به ماهية النوع، والفصل يدل على الجوهر المحدود المعرّف، لأنه خاصة.

الخاصة ـ صفة مخصوصة لما دون غيره، بطيئة الزوال.

العرض ـ صفة حالة في الجوهر لا كالجزأ منه[١٩].

وقد لعب المنطق عند إخوان الصفا دوراً هاماً في ترجمة العلوم إلى العربية.

علم الموسيقى:

للموسيقى تأثير في النفوس، والدليل على ذلك استعمال الناس لها في الأعراس والولائم، وفي الحزن والمصائب، وفي المآتم وفي بيوت العبادة، وفي الأعياد وفي الأسواق والمنازل وفي الأسفار، وفي الحضر، وعند الراحة والتعب، وفي مجالس الملوك، ومنازل السوقة، وجميع طبقات الناس[٢٠] وللموسيقى ـ عند الإخوان ـ صفة كونية؛ لأن الموجودات أعداد تعيش في نسق موسيقي، وأن للأفلاك السامية والكواكب الشريفة والجواهر اللطيفة وفي دورانها واحتكاكها نغمات مطرية عجيبة وألحاناً بديعة، كنغمات العيدان، ومجاوبة المزامير، ونقر الطنابير[٢١]. وهذه هي نظرة فيثاغورس إلى الموسيقى. وقد أنكرها عليهم الفارابي.

الصنائع وفن الرسم:

الصنعة هي إخراج الصانع للصورة من فكره، ووضعها في الهيولى، فيصبح المصنوع مركباً من هيولى وصورة[٢٢]. لقد درس إخوان الصفا المجتمع دراسة دقيقة، وقد حددوا شرائحه الاجتماعية. وأهم الصناعات فيه وحاجات الناس اليومية. وقالوا:

(الناس كلهم إما صنّاع أو تجار)، وإن الخوف من الفقر يدفعهم للعمل. وبالتالي الحصول على الرزق، وقد رتبوا هذه الصناعات، ووجهوا دعاتهم إلى التغلغل فيها، وأهم هذه الصناعات:

١ - صناعات شرفها من جهة الهيولى فيها، مثل (صنعة الصاغة والعطارين).

٢ - وصناعات شرفها من حاجتها الضرورية للحياة، (كالحراثة والطبابة والبناء والحياكة).

٣ - وصناعات شرفها من جهة النفع العام، مثل (صناعة الحمامين والسمادين) لهم أهمية لخير المدنية.

٤ - صناعات شرفها من جهة مصنوعاتها، كصناعة آلات الرصد (كالاسطرلاب والرخامة).

٥ - صناعة تقتضي مهارات خاصة بغض النظر عن منفعتها (كالمصورين والموسيقيين).

٦ - صناعات ليست سوى سرعة الحركة وإخفاء الأسباب التي تضحك السفهاء وتعجب العقلاء، كالمشعوذين والحواة[٢٣].

وكان الإخوان يذهبون إلى أن صناعة الآباء والأجداد، أنجع في الأولاد من صناعة الغرباء، وكان قدماء الحرانية في قديم الزمان، إذا أرادوا تسليم الصبي، إلى معلم صنعة، أختاروا له يوماً من الأيام، وأدخلوه إلى هيكل الصنائع، وصور سائر الكواكب، وقربوا قرباناً لصنم ذلك الكوكب الذي دلّهم على صناعة الصبي، ثم يطلعونه على أحوال تلك الصنعة، ثم يسلمونه إلى شيخ الصنعة[٢٤]. وكان الصناع في الإسلام يعيشون ويرتزقون من بيع سلعهم، وهم أربع فئات: (أهل الفنون الجميلة، ورجال الآداب، والتجار، والصناع)[٢٥] وهؤلاء هم نخبة العامة، وكان أكثرهم من أهل الذمة ممن أسلم ونزل المدن[٢٦]. وكان الفنان قبل الإسلام يعيش في أرض الجزيرة صانعاً حرفياً ينال تقديره من حرفته، ومدى إتقانه لها[٢٧].

وكان الفنان يرتبط بورشة منظمة تحمي حقوقه، وصار في العهد الإسلامي يبيع منتجاته في أسواق المدن الكبيرة، وهو يخضع لإشراف شيخ السوق والمحتسب معاً.

كان الفنان التشكيلي يرسم صوره على جامات من الزجاج، أو على جدران المنازل، أو على الأواني الخزفية. أو يعملون في المعابد والكنائس فيرسمون الإيقونات، والصور التي تمثل حياة السيد المسيح وتلاميذه، أو صور تزين الأناجيل والتوراة، وبعض

الكتب القصصية أو الطبية، وينحتون التماثيل النذرية للقبور، وهي مهنة قديمة متوارثة في أسر معينة منذ العهود الوثنية السابقة. وكانت لهذه الصنعة أسرار وتقاليد في الرسم وتحضير الألوان والأحبار، وقد طوّرت هذه الصنعة بفضل تعاليم ماني وأتباعه، وإلى الصابئة الحرانية وأتباع وبرديصان. وفي الإسلام انتقل أثرهم إلى قصور الأمراء، ودور الكتب العامة والخاصة، رغم أن الإسلام لايشجع كثيراً على رواج هذه الصنعة. إلا أنها كانت رائجة نتيجة تراكم الثروة وشيوع الرفاهية بين أفراد الطبقات الثرية، وسأذكر نصين من رسائل إخوان الصفا تبين مهارة الصانع في تخصصه من جهة، واستخدامه في تزيين البيوت والمقصورات الخاصة.

النص الأول: يروي حكاية: أن رجلاً عمل صوراً وتماثيل مصورة بأصباغ صافية، وألوان حسنة براقة، وكان الناظرون إليها يتعجبون من حسنها، ورونقها، ولكن كان في الصنعة نقص، حتى مرّ بها صانع فاره حاذق، فتأملها فاستزرى بها وأخذ فحمة من الطريق، ومثل بجانب تلك التصاوير صورة رجل زنجي كأنه يشير بيديه إلى الناظرين، فانصرفت أبصار الناظرين، بعد ذلك عن النظر إلى تلك التصاوير والأصباغ، وبالنظر إليه، والتعجب من عجيب صنعته، وحسن إشارته وهيئته وحركته[٢٨].

النص الثاني: عندما زاد الترف في المجتمع العباسي، وتفنن الشعراء والفنانون والأطباء في تقوية سبل اللذة، فوضعت الكتب الكثيرة من أجل تقوية الباه، فوصفت الأطباء الأدوية المقوية، وقص الأدباء والمؤلفون حكاية المرأة الألفيّة، وكانت من أهل الهند، قال الجاحظ: قد وطأها ألف رجل، وكانت أعلم أهل زمانها بأحوال الباه وآثاره الشهوة، وإن جماعة من النساء اجتمعن إلبها وقلن لها:

ـ أيتها الأخت: أخبرينا عما نحتاج إليه ونعمله، وما الذي يثبت محبتنا في قلوب الرجال.

ـ قالت: سألتن عن شيء لاأقدر أن أكتمه، ولايحل لي أن أخفيه، وأنا واصفة لكن الأبواه التي يستعملها الرجال[٢٩]. وإن الأوضاع الجنسية المجسدة على المرمر في معبد (كاجوراو) في الهند تشهد على ذلك، فهي مثيرة لمن يتأملها، وقد وصفه الشاعر السوري عمر أبو ريشة بقصيدة طويلة. أذكر منها قوله:

من منكما وهب الأمان	لاخيه أنت أم الزمان
كاجُرو عفوك ليس لي	مني على حلمي إئتمان
ياهيكلا نثر الفنون	ورنّح الدنيا إفتتان

وتكلمت أحجارك	الصماء مشرقة البيان
كم دمية ذَل الرخام	على إنتفاضتها وهان
مرقت أقنعة الحياء	وما عليها من دهان
شفة على شفة تفتح	برعماً وتلف بان
وبنات لذات مطرحة	عناقاً واحتضان
ومراهق مستسلم	لقياد غانية عوان
لولا خلاخيل الكعوب	لقيل عانية وعان
وأنامل عشر على	كتفيه دامية البنان
خلخال كاحلها وتاج	جبينها متقاربان

لقد وصف إخوان الصفا هذه الصور بقولهم: إن رجلاً من المنهمكين في الشهوات وطلب اللذات، كان أكولاً شريباً شبقاً من كثرة ماكان يأكل، ويشرب ويجامع، حرقت معدته، وضعفت قوته الهاضمة، واسترخت آلته (عضوه التناسلي) من كثرة الجماع، وصارت الشهوات عادة، وكان ممن يداوي ويحتال في إنعاض آلته، أن أمر حتى صوّر له في بيت الخلوة، على الحيطان والسقوف صور الجامع اللباه، وكتب بين تلك الصور أخبار المرأة الألفيّة، وينظر إلى تلك الصور ليستنهض بها آلته، وصار ذلك دأبه وعادته، حتى أنه يهيج ويصيح كالسنانير وينهق كالحمير[٣٠].

وما أراده إخوان الصفا هو تحذير إخوانهم من هذا السلوك المشين، وهو الإفراط في اللذة، والتهالك عليها. وغاية كل رجل حكيم، زجر النفس عن الشهوات المحرقة.

النوع الثالث ـ مباحث الحكمة الإلهية أو مابعد الطبيعة:

هذه المباحث أمور لاوجودها ولا حدودها مفتقرةإلى المادة والحركة، كالذات الإلهية والجواهر الروحانية والمعاني لجميع الموجودات (المقولات العشر)، كالجوهر والعرض والهوية والوحدة والكثرة والعلة والمعلول والجزئية والكلية وما أشبهها، وتضم رسائل إخوان الصفا منها على إحدى عشرة رسالة، تبحث في الطريق إلى الله وماهية الإيمان، وشرائط النبوة وكيفية الدعوة إلى الله وصورة العالم، والسحر والعزائم.

الله وخلق العالم:

لايحتاج الله في نظر إخوان الصفا إلى برهان، لأنه معروف بالبداهة، ولأن كل

مافي الوجود يخبر به، وهو منزه عن الجسمية، وليس له شبيه في الخلق، وماينسب إليه من صفات هو لإرضاء ذوق العامة والجهال. قالوا: اعلم أيها الأخ أن صفات الله تعالى لايشركه فيها أحد من خلقه، ومعرفته التي لايعرف بها إلا هو، إنه مبدع مخترع خالق مكوّن قادر عليم حي موجود قديم فاعل، وإنه المعطي من وجوده الوجود، وإنه مبدىء حي قادر مخترع عالم، فاعل، موجود، فالفعل مبدى لما بدا منه، وفاعل بمعنى مفعول، ومحدث بمعنى أنه محدث معلول، ومعطي الحياة لمن دونه لما أعطى، وموجود بوجود أفعاله الصادرة عنه(٣١). ترى الديانات السماوية كلها إن الله قديم وهو خالق العالم، والخلق عند إخوان الصفا هو إيجاد الشيء من شيء آخر. قال تعالى: «خلقكم الله من تراب» كخلق آدم، والإبداع هو إيجاد شيء من لاشيء، والمكونات تتكون بقوله «كن فيكون»(٣٢).

وخلق العالم عند إخوان الصفا، ليس كالخلق الموجود في التوراة والقرآن. يقول الإخوان: إن كان المراد بالقدم، أنه قد أتى عليه زمان طويل، فالقول صحيح! وإن كان المراد بالقدم أنه لم يزل ثابت العين على ماهو عليه، بينما العالم متغير فيه الكون والفساد والأجرام الفلكية دائمة والحركة والنقلة(٣٣). فالقول صحيح أيضاً.

ويرى الإخوان أنه عن الله تفيض كل الموجودات، فهو المبدع لجميع الكيفيات، والمظهر لصور الكائنات، والموجود في كل شيء من غير مخالطة، ومع كل شيء من غير ممازجة، مثله مثل الواحد في كل عدد. وهو القائل: كن فيكون!. ثم قالوا: إنه ليس بشخص ولا صورة، بل هويَّة وحدانية ذو قوة واحدة، وأفعال كثيرة، وصنائع عجيبة، لايعلم أحد من خلقه ماهو؟. وأين هو؟ وكيف هو؟. وهو الفائض منه وجود الموجودات، وهو المظهر صور الكائنات في الهيولى، المبدع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان. بل قال: كن فكان(٣٤). وقالوا: كما قال الصابئة الفيثاغوريين: الباري جل ثناؤه نسبته من الموجودات كنسبة الواحد من العدد. والعقل كالاثنين، والنفس كالثلاثة، والهيولى كالأربعة، وسائر الخلائق، مركبة من الهيولىوالصورة المخترعين من النفس الكلية، المنبثقة من العقل الكلي بأمر الباري جل ثناؤه أبدعه لامن شيء أو صورة، وجعل فيه جميع الأشياء بالقوة والفعل(٣٥).

هذه النظرة إلى الخلق هي مزيج من الفلسفة الأرسطوية والأفلوطنية الحديثة. فالله سبحانه تعالى هو بارىء للعالم؛ أي معطي صورة فاضت عن العالم من النفس الكلية للهيولى الأولى التي هي جوهر روحاني بسيط، يقبل من النفس الصور والأشكال بالزمان شيئاً فشيئاً، وأول صورة قبلتها للهيولى الأولى هي

(الطول والعرض والعمق)، فابدع بذلك الجسم المطلق والهيولى الثانية التي فاض عنها وصور عالم الفلك (الذي لايقبل الكون والفساد)، ثم العناصر الأربعة ثم الأجسام الجزئية العامة)(٣٦).

فالله في نظر إخوان الصفا قديم، والمادة معه قديمة، وهذه نظرة الطائفة الحرانية.

النبي أو صاحب الشريعة وكيفية دعوته:

النبي في الأصل صفةٌ لرجل اصطفاه الله من بين عباده وخصه بأن أوحى إليه الشرع ليدعو الناس إلى توحيد الله، وتنزيهه عما لايليق بالألوهية، وكرامة النبي. إما تفضل من الله تعالى على من يشاء، وإما أفاضة حق على المستعدين لها بالمواضبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص(٣٧). هذا هو الرأي الشائع عند جمهور الصوفية من المسلمين. ويضيفون بأن الوحي يحصل للنبي بواسطة الملك (جبريل)، وهو من خواص النبوة، وهو مشروط بالتبليغ(٣٨). ومن أنكر ذلك أنكر الإسلام ذاته. قال الدكتور إبراهيم مدكور: «لاشيء أكثر إلحاحاً على الفيلسوف المسلم، من أن يخص في مذهبه مكاناً للنبوة والوحي، إذا شاء أن تقبل فلسفته»(٣٩).

فكيف كان تصور الإخوان للنبوة؟.

احتلت فكرة النبوة والوحي مكاناً مرموقاً. في رسائل إخوان الصفا، إلا أنهم عكسوا فيها مذهبهم الخاص البعيد كلياً عن الإسلام، لأن صاحب الناموس عندهم يحتاج إلى ست وأربعين خصلة من الفضائل البشرية، ، الملكية جميعاً، وأي إنسان عاقل يمكنه الحصول عليها بالرياضة الروحية، وإذا توفي النبي بقيت الخصال وراثية في أصحابه وأنصاره الفضلاء في أمته، ولايخلو أحد من شيء منها، فإذا تنازعوا وتخاصموا وتفرد كل واحد برأيه معجباً بنفسه، تفرقت جماعتهم، وضعفت قوتهم»(٤٠). وإذا اتحدوا كلهم كرجل واحد ونفس واحدة، صار واضع الشريعة لهم بمنزلة الراس من الجسد وهم له كسائر الأعضاء، غلبوا من رام غلبهم وقهروا كل من يخالفهم ويعاديهم(٤١).

هذه الرؤية للنبوة هي رؤية المذهب الصابئي الحراني، وهم يقسمون أتباعهم إلى خمس فئات:

١ - فئة الصديقين لتصديقهم الشريعة بالطلب والإجتهاد، ونصرتهم واضع الشريعة ومعاونته بالطلب والإجتهاد.

٢ ـ فئة الشهداء ـ لمشاهدتهم الأمور الروحانية المفارقة للهيولى؛ يعني به جنة الحياة ونعيمها.

٣ ـ فئة المسلمين ـ وهم من أقروا بما أخبر واضع الشريعة، وصدقوه على ما قاله. قال تعالى عنهم: ﴿قالت الأعراب آمنا قل بل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾. وهؤلاء لم يتصوروا تلك الأمور الروحانية بحقائقها.

٤ ـ فئة المنافقين ـ وهم من أقر بلسانه وشك فيما يقول بقلبه، وهؤلاء هم المنافقون الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

٥ ـ فئة الكفار ـ وهؤلاء ينكرون دعوة صاحب الشريعة في الظاهر، ويكذبونه في السر والعلن ويعادونه جهراً، وقد ناصبهم النبي الحرب والقتال وأكثر لهم الوعد والوعيد والزجر والتهديد(٤٢).

وقد يحصل الوحي أو الإلهام الرباني للصديقين منهم. «يقدح في نفوسهم من غير قصد منهم ولا تكلف». أو يحدث في نفوسهم إلهام ملائكي فيقول أحدهم: «أجد قلبي كالمرآة تتراءى فيها حقائق الأشياء، وأجد لسان يجري على الصواب من غير تكلف»(٤٣). وللوحي عندهم درجتان:

١ ـ مايحدث في الرؤيا الصادقة: قال الرسول الكريم: «الرؤية الصادقة جزء من النبوة، وهي لاتقع إلا للصديقين والأتقياء الذين هم ملائكة بالقوة، وهؤلاء زاهدون في الدنيا، والفضيلة عندهم أحسن من المال.

٢ ـ الوحي الذي يحصل في اليقظة عند سكون الجوارح. ويحصل:

- إما استماع لصوت من غير رؤية شخص باشارات دائمة.
- وإما استماع كلام، من غير رؤية من وراء حجاب.

وأسمى أنواع الوحي والإلهام، هو الشريعة الإلهية (التي هي عند إخوان الصفا)، جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية، في جسد بشري بقوة عقلية، تفيض عليها من النفس الكلية، بإذن الله تعالى في دور من الأدوار، لتجذب بها النفوس الجزئية، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة (حصلت عليها) بالتناسخ. ليفصل بينها يوم القيامة(٤٣).

يفرق إخوان الصفا بين العلم والإيمان، وهم يرمون علماء الكلام، في عصرهم بالجهل؛ لأنهم يسمون الإيمان علماً، ويقولون هو علم من طريق السمع، ومايعلم بالقياس، هو علم من طريق العقل. أما الحكماء (الفلاسفة) فيرون أن العلم هو تصور

النفس رسومات المعلومات ذاتها، فإذا ماكان العلم هو هذا فليس كل مايرد به الخبر عن طريق السمع تتصوره النفس بحقيقته، فإذن لايكون ذلك علماً بل إيماناً وإقراراً وتصديقاً، ثم يقرر إخوان الصفا: «إن العلم صورة المعلوم في نفس العالم، وإن الإيمان هو التصديق لمن هو أعلى منك، بما يخبرك عما لاتعلمه، لأنه رب صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الهيولى، ورب مخبر بخلاف ما في نفسه، فيكون كذاباً وإن كان قاصداً، لذلك ورب مصدق أيضاً لكذاب»[٤٥].

نلمس في رسائل إخوان الصفا نقد لما يجري في حلقات القصاصين وعند بعض الفقهاء الجهلة، الذين يحدثون عن طيور الجنة وأدوية جهنم، من خوف العذاب الذي لاتتفق وتصورات الحس السليم، وكانوا يستندون إلى الفكر الفلسفي السائد في بيئة حران الوثنية وماحولها.

قال دي بور: «إن تعاليم إخوان الصفا في صورتها الأخيرة هي فلسفة الدين، غايتها التوفيق بين الفلسفة والدين»[٤٦] نعم إن غايتهم التوفيق بين ديانتهم النجومية وتعاليم الدين الإسلامي.

وللمعرفة الروحية عند إخوان الصفا طريقان لاثالث لهما:

الطريق الأول: طريق المشاهدة بالقلب الصافي من الشوائب، بعد تأمل المحسوسات ودقة النظر في المعقولات، ودراية بالرياضيات وبحث عن القياسات، كما فعلت القدماء الحكماء الموحدون الربانيون. وهذا مانجده في الفلسفة الاشراقية عند السهروردي، وابن عربي، وابن سبعين وبعض المتصوفة المتأخرين.

الطريق الثاني: طريق الطاعة والإقرار للأنبياء الموحى إليهم، كإقرار المؤمنين للأنبياء إيماناً وتسليماً، أو كإقرار العامة والأتباع للخواص والعماء تقليداً وقولاً، أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليماً وتلقيناً[٤٧].

والطريقة الثانية: هي طريق العوام وطريق علماء الكلام المسلمين. وكان جمهور المسلمين ينظر إلى تعاليم إخوان الصفا بدعاً مخالفة لروح الإسلام، حيث كان الجمهور يكفر كل من المعتزلة والشيعة: لإنكار الأولين رؤية الله يوم القيامة، وإنكار الشيعة المسح على الخفين[٤٨] فما بالك بمن يحكم عقله في هذا الكون، ويؤمن بأن الكواكب مدبرة لأحداثه؟.

النوع الرابع ـ الرسائل النفسانية والعقلية:

عددها عشر رسائل، تبحث في مدار الموجودات، والعالم والعقل والمعقول والأدوار والأكوار، وماهية العشق والبعث والقيامة، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم. وهي في رأي الأستاذ سعيد زايد «صورة للحياة العقلية في القرن الرابع الهجري، وهي أول مجلد ضخم ضم في دفتيه جميع أقسام الفلسفة، وهي أخيراً محاولة لتثقيف العامة علمياً وفلسفياً»(٤٩). أعتقد أن تعاليم إخوان الصفا هي بعث لفلسفة وثنية شاعت في القرن الرابع الميلادي. بين أوساط مثقفي مدرسة الإسكندرية، فتصدى لها علماء الكنيسة وحاربوها، فانكفأت إلى معابد حران الوثنية، حتى منتصف القرن الثالث الهجري، فبدأت تشرأب أعناقها على أثر علو مكانة الصابئة في المجتمع العربي الإسلامي....

واشتملت على وصف للعالم بأنه انبثق من الله، وكذلك الروح الإنسانية، وأنها تسعى للرجوع إلى الله والفناء فيه، وهذا التلاشي طريقة الحكمة (الغنوص)، وقد مزجوا بين تعاليم فيثاغورس والأفلاطونية المحدثة، وفسروا آيات القرآن الكريم بطريقة مجازية معتمدين على ماقامت به مدرسة الإسكندرية من تفسيرها للكتب المقدسة بهذه الطريقة»(٥٠).

نظرية الفيض الإلهي:

تنسب هذه النظرية ذات التأثير الفكري الخطير على الفلسفية الشرقية إلى أفلوطين المصري (٢٠٤ ـ ٢٧٠م) الذي درس مبادئها على يدأمونياس سكاس، ثم رافق الإمبراطور جورديان الثالث في حملته على فارس، وعندما اغتيل الإمبراطور على يد جنوده (٢٤٤م) توجه أفلوطين إلى روما وفيها نشر مذهبه، ثم نقله عنه إلى الشرق تلميذه فرفوريوس الصوري، الذي صبغها بالفكر الفيثاغوري الميتافيزيقي(٥١). وصار ولاء الحكيم ليس لهذا العالم المحسوس بل للعالم الآخر، عالم المثل الأزلي الأبدي، العالم الحقيقي بالقياس إلى عالم الظواهر الوهمي.

يبدأ الفكر الأفلوطيني بثالوث مقدس، هو (الواحد، والعقل الإلهي، والنفس). والواحد غامض بعض الشيء، فتارة يسميه الله، وأحياناً بالخير المطلق، وهو يعلو الكون، وهو حاضر في كل شيء ولايمكن عليه حمل أي صفة من الصفات. وعنه صدر (العقل الإلهي) في بحثه عن نفسه، فهو كالضوء الذي مكّن الواحد من رؤية

نفسه[٥٢]. وعن العقل الإلهي فاضت النفس الكلية التي خلقت الكائنات الحية جميعاً، فهي خلقت الشمس والقمر والنجوم وسائر العالم المرئي.

وللنفس الكلية جانبان:

أ ـ جانب باطني يمس العقل الإلهي (الناوس).

ب ـ وجانب آخر يواجه العالم الخارجي، وهذا الجانب مرتبط بنزولها من عالمها الأول، خلالها صورة لذاتها هي الطبيعة، أوعالم الحس، وهو عالم جميل وموطن الأرواح المباركة، لأن النفس عندما خلقت العالم، خلقته من خلال تذكرها عالمها الإلهي، بينما يقول الغنوصيون: إن العالم المرئي هو شر[٥٣]. أما النفس وإن كانت في أحط كائن بشري لايعتريها الفناء، وهي إلهية خالدة على عكس الجسد الفاني المركب من العناصر الأربعة. والنفس ليست بالصورة للجسد كما يقول أرسطو، وإنما هي جوهر أبدي[٥٤]. لاتزول بزوال الجسد.

اقتبس إخوان الصفا نظرية الفيض الإلهي من الفلسفة الأفلوطونية المحدثة وإلى هذا يشيرون إلى أن الحكمة انتقلت إليهم من مصر. قالوا: واعلم ياأخي أن الباري ـ جل ثناؤه ـ أول شيء اخترعه وأبدعه من نوره وحدانية جوهر بسيط، يقال له العقل الفعّال، كما أنشأ الإثنين من الواحد بالتكرار، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل، كما أنشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الإثنين، ثم أنشأ الهيولى الأولى من حركة النفس، كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة، كما أنشأ سائر الخلائق من الهيولى، ورتبها بتوسط العقل والنفس، كما أنشأ العدد من الأربعة بإضافة ماقبلها إليها»[٥٥]. ثم قالوا: وكل موجود تام يفيض منه على مادونه فيض ما، وإن ذلك الفيض من جوهره، أعنى صورته المقوّمة التي هي ذاته، وهكذا تفيض من النفس الحياة على الأجسام؛ لأن الحياة جوهرية لها وهي المقومة لذاتها[٥٦].

النفس والفيض الإلهي:

النفس عند أفلاطون وإخوان الصفا جوهر بسيط لاتركيب فيه، وهي قديمة، بينما هي عند أرسطو محدثة، وهي صورة الجسد، وهي تتسم عند علماء الكلام والأطباء المسلمين إلى قسمين:

١ ـ النفس الحيوانية أو الروح: وهي بخار لطيف مكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، وهي سبب الحس والحركة وقوام الحياة (عند الطيب أبي بكر الرازي)، وهي باقية من

أول العمر إلى آخره من غير أن يتغير فيها شيء، من إنحلال أو زيادة أو نقصان. وهي عند علماء الكلام شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

٢ ـ النفس العاقلة (الآنا): وهي الشيء الذي يشير إليه كل أحد بقوله (أنا). قال ابن لقمان والذي يرجح هو أن الإنسان له نفسان، نفس حيوانية، ونفس روحانية، فالنفس الحيوانية لاتفارقه إلا بالموت، والنفس الروحانية هي التي من أمر الله، وهي التي تعقل وهي التي تفارق الإنسان عند النوم. لقوله تعالى: «يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها». وقد مثّل لها النظام بقوله: «إنها جسم لطيف مشتبك بالبدن، كاشتباك الماء بالعود الأخضر». ومثل لها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجه) بقوله: «الروح في الجسم كالمعنى في اللفظ». وقالت الصوفية وأبو حامد الغزالي: «ليست الروح جسماً ولا عرضاً، وإنما هي مجردة عن المادة قائمة بنفسها غير متحيزة، متعلقة بالبدن للتدبير والتحريك»[٥٧].

بينما النفس ـ عند إخوان الصفا والحرانية ـ جوهر بسيط روحانية حيّة علاّمة فعّالة، وهي صورة من صور العقل الفعّال[٥٨]. وهي باقية بعد مفارقة البدن في نعيم أو شقاء حسب عملها في الحياة الدنيا، والنفوس الجزئية، هي إحدى القوى المنبثقة من النفس الكلية، ولكنها ليست منفصلة عنها، ولا هي إياها بعينها، سبقت الجسد في الوجود، ونزلت من عالمها العلوي وحلت في الجسد نتيجة لنسيان أو لخطيئة، كخروج آدم عليه السلام من الجنة، رمز إلى معصية هذه الأنفس الكلية. قالوا: إعلم إن الأمور الإلهية هي الصور المجردة من الهيولى، وهي جواهر باقية خالدة لايعرض لها الفساد والآفات، كما يعرض للأمور الجسمانية، فاجتهد في معرفة نفسك لعلك تخلّصها من بحر الهيولى، وأسر الطبيعة، التي وقعنا فيها بجناية كانت من أبينا آدم عليه السلام[٥٩].

النفس والخطيئة والتناسخ:

كان فيثاغورس يؤمن بالتناسخ، ومؤداه أن النفس إذا فارقت الجسد، وكانت حياتها فيه صالحة كريمة صعدت إلى عالم الأفلاك، أما إذا كانت حياتها فيه فاسدة، سيئة فلا تفتح لها أبواب السماء بل تبقى تحت فلك القمر، تتقلب بين الكون والفساد، متخذة أجساداً بشرية أو حيوانية.

قال ديكاياركوس: «إن فيثاغورس علّم أولاً: أن الروح خالدة، وأنها تتحول ضروباً أخرى من الكائنات الحية، ثم علم أن كل ماظهر في الوجود يعود فيولد في دورة

معلومة، فلا شيء جديد كل الجدة وإن كل مايولد وفيه دبيب الحياة، ينبغي أن ننظر إليه جميعاً نظرتنا إلى أبناء الأسرة الواحدة»(٦٠).

وقد آمن إخوان الصفا طبقاً لفلسفتهم الفيثاغورية بالتناسخ الذي هو حلول روح إذا فارق البدن إلى جنين قابل للروح. وقد أعطى أفلوطين في كتابه التاسوعات مثالاً على ذلك.

قال: إذا قتلت أمك في الحياة الدنيا، أصبحت في الحياة التالية امرأة ليقتلك ابنك»(٦١). وتظل النفس البشرية (الجزئية) إذا لم تتهذب بالأخلاق الجميلة، تتخبط في هذا العالم، دون أن تنهض إلى الملأ الأعلى من نقل أوزارها، ولايعرج بها إلى ملكوت السماء، ولاتستحق الدخول في زمرة الملائكة، وتغلق دونها أبواب السماء، وتبقى مقر الأجسام المدلهمة، وتدفعها أمواج الشهوات، المحرقة المؤدية إلى أودية الهاوية. حيث لاأنيس لها، وتجرها الشياطين كما تجر العميان، والزمني متجنبين طرقات الناس(٦٢).

هذه الرواية للروح عند إخوان الصفا تناقضها النصوص القاطعة، من الكتاب والسنة، وإن كان العقل لايدل على امتناع التناسخ، ويحتج عليهم علماء الكلام، لو كان التناسخ واقعاً لتذكرت نفس ما أحوالاً مضت عليها في البدن السابق، كما أن الإيمان بالمعاد ينفي التناسخ، بل إنهم ليكفرون من يقول به(٦٣).

البعث والمعاد:

إذا كان المعاد هو رجوع النفس الجزئية، إلى النفس الكلية، والثواب هو ماتجده كل نفس من الراحة واللذة والسرور والفرح بعد مفارقتها الجسد(٦٤). فإن القيامة أو الحشر الأكبر لايتحقق بمفارقة النفس للجسد، ولكن عند مفارقة كل النفوس أجسادها، وعندما لاتدعو الضرورة لبقاء النفس الكلية، ولا لبقاء العالم نفسه، فتعود النفس الكلية إلى الله فيبطل الوجود ماعدا الله، وبذلك يتحقق الحشر الأكبر، أو القيامة الكبرى، ويتحقق خراب العالم(٦٥).

هذا التصور للبعث والقيامة يخالف التصور العام للمسلمين؛ إذ البعث هو إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن لبس يختص به الباري تعالى، أو هو الإحياء والنشر من القبور بأمر الله تعالى(٦٦).

كان تصور إخوان الصفا للبعث والمعاد يتفق وديانتهم النجومية، وهم القائلون: وكما يعمل أصحاب المجسطي عند طلبهم معرفة عظم جرم الشمس، إذ يميزون

ويدرسون جميع الحلول الممكنة عقلياً حلاً بعد حل كذلك تحل الصعاب المتصلة بمشكلة البعث، اعمل يا أخي مثل هذه المسائل، مثل ماعمل هؤلاء في مسألتهم، وهي أن تقول لايخو أمر البعث ومعنى القيامة من أن تبعث الأجساد دون النفوسأو النفوس دون الأجساد، أو الجميع إذ كان ليس في القسمة غير هذه الوجوه الثلاثة، ثم ابحث حقيقة هذه الوجوه الثلاثة»(٦٧). وأما قول رسول الله: «من مات قامت قيامته». إنما أراد قيام النفس لا الجسد، لأن الجسد لايقوم بعد الموت»(٦٨).

وإخوان الصفا طبقاً لتعاليمهم لاينتظرون الآخرة.

قالوا: واعلم يا أخي أن المنتظرين للآخرة طائفتان من الناس:

* أحداهما: ينتظر كونها وحدوثها في الزمان المستقبل، عند خراب السماوات والأرضين، وهم لايعلمون من الأمور إلا المحسوسات، ولا من الجواهر إلاالجسمانيات، ولا من الأحوال إلا ماظهر(٦٩). وإن دار الجزاء تكون بعد فناء الخلق، وإن الله يعيدهم مرة ثانية، خلقاً جديداً، وهذا جيد للعامة، ولمن لايعرف شيئاً، ويرضى بالدين تقليداً وإيماناً(٧٠) وهؤلاء هم المسلمون.

* الثانية: ينتظرونها كشفاً وبياناً واطلاعاً عليها، وهم الذين يعرفون الأمور المعقولة والجواهر الروحانية، والحالات النفسانية، وإن كثيراً من العقلاء الحكماء ينكرون خراب السماوات، ويأبون ذلك إباء شديداً، وإن الآخرة لها وجوداً عن الكون في الرحم، كأيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب(٧١). وهؤلاء هم صابئة حران.

الجنة والنار:

الجنة هي عالم الأرواح، وهي صورة روحانية لاهيولى جرمانية، بل حياة محضة وراحة ولذة وسرور وغبطة لايعرض لها الكون والفساد، لا التغير والبلى، ويسخرون من تصورات المسلمين لاعتقادهم أن الجنة شبه بساتين فيها أشجار عليها ثمار وقصور بينها أنهار، وفي تلك القصور حور وغلمان وولدان مردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها. يقول الإخوان: واعلم ياأخي أن الجنة إنما هي عالم الأرواح، كله صورة روحانية لاهيولى جرمانية، بل هي حياة محضة وراحة ولذة، وسرور وغبطة، لايعرض لها الكون والفساد، ولا التغير والبلى، لأنها هي دار الحيوان»(٧٢) ويستشهدون على ذلك بقول الرسول الكريم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

ويسخرون من تصور المسلمين بأن جهنم هي خندق محفور كبير واسع مملوء من نيران تشتعل في ذلك الخندق، وأنه كلما أحرقت أجسادهم صارت فحماً ورماداً،

أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانياً، كما اشتعل أول مرة محتجين بقوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾[٧٣].

ويقول إخوان الصفا: إن هؤلاء المسلمين لايفقهون معنى قوله تعالى: ولايحسنون تأويل كتابه، بأن أهل جهنم هم النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات. وأن لجهنم سبع طبقات؛ لأن الأجسام التي هي دون فلك القمر سبعة أنواع، أربع منها هي الأركان الأربع (الهواء والنار والماء والتراب)، وثلاث هي المولدات الكائنات الفاسدات وهي (المعادن والنبات والحيوان)[٧٤].

يطالب إخوان الصفا بالتفسير الرمزي الإشاري للكتب المقدسة، مستبعدين التفسير الحرفي، وسوف أقدم مثالاً من تفسيرهم قالوا: إذا كان السيد المسيح قد وصف الجنان ونعيم أهلها بأوصاف غير جسمانية، فلأن خطابه كان مع قوم هذبتهم التوراة، وكتب الأنبياء والحكماء، وأما سيد الأنبياء وخاتم المرسلين (محمد صلى الله عليه وسلم) فقد اتفق بعثه مع قوم أميين من أهل البوادي، غير مرتاضين بالعلوم فجعل أكثر صفات الجنة في كتابه جسمانية، ليقربها من فهم القوم، ويسهّل تصورها عليهم، وترغب نفوسهم بها»[٧٥] ولأن هؤلاء القوم ـ أي المسلمين ـ أميين جهلة، فهم يطالبون أتباعهم بتفسير جديد للقرآن الكريم يتفق وتعاليمهم. قالوا: واجتهد يا أخي في معرفة طلب ماأشار إليه أنبياء الله تعالى في الكتب المنزلة على ألسنتهم، المأخوذة عن الملائكة معانيها في وصف نعيم الجنان، سعادة أهلها، وصفة النيران وشقاوة أهلها، ومأأشار إليه الفلاسفة والحكماء في رموزهم من وصف عالم الأرواح ومدح أهلها، وذمهم عالم الأجسام، ولعلك تتصور بعقلك ماتصوروا، وتشاهد بصفاء جوهر نفوسهم (ماشاهدوا)، فتتنبه نفسك من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، وتعيش عيش السعداء، وترتقي في المعارف، وتعلو همتك نحو ملكوت السماء، وتكون في الآخرة من السعداء»[٧٦].

وبعد مكوث أهل الجنة مدة لايعلمها إلا الله يعود الفيض الإلهي من جديد، ويخلق دنيا جديدة وأقواماً أخرى في العالم الأرضي.

لا أعلم في الفكر الإسلامي السني أحداً أخذ بتفسير إخوان الصفا إلا الشاعر الباكستاني محمد إقبال (١٨٧٦ ـ ١٩٣٨) الذي اعتبر الجنة والنار حالتان لا مكانان. أما الأوصاف التي يتناولها القرآن فهي عبارة عن تخطيط مجسد ملموس، يقع تحت النظر لتقريب ماهو من الأشياء الباطنة، وإن جهنم ـ حسب الآيات القرآنية ـ هي النار التي تصهر ما في قلوبهم وجلودهم، هي تبكيت الضمير المؤلم للإنسان حين يحبط

عمله ويسوء فعله كإنسان. وجهنم لم يصورها القرآن بئراً عميقةً للعذاب والنكال يفرضهما إله ثائر يحب الانتقام، بل هي تجربة تطهر الذات وتجعلها منيعة، تحس ألم الضمير وتشعر بلذع الجرم، وتؤمن بشكر الله والرضوخ له أما الجنة عند إقبال ـ فهي السرور واللذة بعد الظفر والانتصار على قوى الإنحلال. والجنة ليست عيداً احتفالياً دائماً، بحيث تكون الحياة واحدة مستمرة على نسق واحد، بل كل فعل للذات الحرة يخلق وصفاً جديداً، ويتيح الفرص لامتداد خلاّق(٧٧).

مذهبهم الأخلاقي:

تحتل الأخلاق مكاناً مرموقاً في تعاليم إخوان الصفا، وهم يريدون أن يحيا الإنسان وفق السيرة الفلسفية العادلة التي عاشها سقراط الحكيم، والذي كانت نفسه تشتاق دائماً إلى العالم الأعلى فلا ترهب الموت. والمحبة عندهم أسمى الفضائل؛ لأن غايتها الفناء في الباري تعالى المحبوب الأول. قالوا: إن الإنسان على الحقيقة هو النفس، ويجب أن تكون أسمى غايتنا أن نعيش مع سقراط واقفين أنفسنا على العقل(٧٨).

وعلى الإنسان العاقل أن يتبصر دائماً في عيوب نفسه ليصلحها، وهم يعلمون أن ذلك مهمة صعبة لأن الإنسان أعمى عن معرفة عيوبه، وهو أقدر على معرفة عيوب غيره. قالوا: اعلم أن الإنسان العاقل قد تخفى عليه عيوب مذهبه، كما تخفى عليه مساوىء أخلاقه وقبائح أفعاله، وتسنح له عيوب غيره، كما قيل في المثل (يا ابن آدم لك محلان، أحدهما فيه عيوب نفسك، وفي الآخر عيوب غيرك). وهي قدام وجهك لاتزال تتطلع عليها، والتي فيها عيوب نفسك تجعلها خلف ظهرك فلا تلتفت إليها».

وعش كما قال حكيم اليونان في وصاياه الذهبية: «الإنسان يعمى ويصم عن عيوب نفسه؛ لأن نفسه أحب الأشياء، وحب الشيء يعمي ويصم»(٧٩).

إن المثل الأعلى والقدوة المثلى عند إخوان الصفا، هو سقراط الحكيم، وفيثاغورس وتعاليمهما وليس تعاليم السنّة الغراء، ولا سيرة سيّد المرسلين ولا سيرة الأئمة الطاهرين، بل سيرة الحكماء الإلهيين، والفلاسفة المعظمين عندهم.

المراجع:

١ ـ علم الفلك (تاريخه عند العرب في القرون الوسطى) ص ٢٧ كارلوا نالينو روما ١٨٩٩.
٢ ـ المصدر السابق ص ٢٧.
٣ ـ تلخيص مابعد الطبيعة ص ٢ ابن رشد تحقيق عثمان أمين القاهرة ١٩٥٨.
٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٩٢ تحقيق بطرس البستاني دار صادر بيروت ١٩٥٨.
٥ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٥.
٦ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٥.
٧ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٧٤ برتراندرسل ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٧.
٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٠.
٩ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠.
١٠ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٦٣.
١١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٥٠.
١٢ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٦٦ دي بور ترجمة أبو ريدة القاهرة ١٩٥٧.
١٣ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٥٧.
١٤ ـ المنقذ من الضلال ص ١٧ الغزالي تحقيق محمد محمد جابر مكتبة الجندي القاهرة.
١٥ ـ المصدر السابق ص ٢٣.
١٦ ـ المصدر السابق ص ٢٥.
١٧ ـ المصدر السابق ص ٨٢.
١٨ ـ كليات أبي البقاء ج ٢ ص ١٥٨.
١٩ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٨٥.
٢٠ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨٥.

٢١ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨٦.
٢٢ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٨٥.
٢٣ ـ حضارة الإسلام ص ٢٧٦ و٢٧٩.
٢٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٩١.
٢٥ ـ حقيقة إخوان اصفا ص ١٠ د. عادل العوا، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٣.
٢٦ ـ المصدر السابق ص ١١.
٢٧ ـ الفن والمجتمع عبر التاريخ ج ١ ص ٤٧ ايزلد هاورز ترجمة فؤاد زكريا القاهرة ١٩٦٧.
٢٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٩.
٢٩ ـ رجوع الشيخ إلى الحياة ص ٦١ ـ ٦٢ أحمد بن سليمان الشهير بن كمال باشا طبعة الرباط.
٣٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٩.
٣١ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٢.
٣٢ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥١٧.
٣٣ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٨.
٣٤ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٠ ـ ٥١.
٣٥ ـ المصدر السابق ج ١ ص ١٤٦.
٣٦ ـ مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٨.
٣٧ ـ كليات أبي البقاء ج ٢ ص ٣٥٤.
٣٨ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨٦.
٣٩ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٢٥٧.
٤٠ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٧.
٤١ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٤.
٤٢ ـ حقيقة إخوان الصفا ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
٤٣ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١٤٤.

٤٤ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٢.

٤٥ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٦.

٤٦ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠ هنري كوربان.

٤٧ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٢٣.

٤٨ ـ كليات أبي البقاء ج ١ ص ٤٢٢.

٤٩ ـ مجلة تراث الإنسانية ص ٣٤٦.

٥٠ ـ مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٧ أوليري ترجمة تمم حسان مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٧.

٥١ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٤٥٤ براتراندرسل ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٧.

٥٢ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٧.

٥٣ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٩.

٥٤ ـ المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٣.

٥٥ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٥٢.

٥٦ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢٩.

٥٧ ـ كليات أبي البقاء ج ٤ ص ٣٤٩.

٥٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٨٥.

٥٩ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ١٧.

٦٠ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٦٧.

٦١ ـ رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٤٦٢.

٦٢ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧.

٦٣ ـ كليات أبي البقاء ج ١ ص ٩٠.

٦٤ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٩٢.

٦٥ ـ كليات أبي البقاء ج ١ ص ٤٢٣.

٦٦ ـ مجلة التراث الإنسانية ص ٣٤٨.

٦٧ ـ حقيقة إخوان الصفا ج ١ ص ٢٧١.
٦٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ص ٤٢.
٦٩ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٣.
٧٠ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٣.
٧١ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٣.
٧٢ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٥٢.
٧٣ ـ المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦.
٧٤ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٧٩.
٧٥ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٩١.
٧٦ ـ المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠.
٧٧ ـ الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٣٩ ـ ١٤٠ هاملتون جب دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٤.
٧٨ ـ رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣١٦.
٧٩ ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠١.

المحتويات

صابئة حرّان وإخوان الصّفا

يعرض الكتاب فكر صابئة حران وعلاقتهم بإخوان الصفا، ويستنتج أن الصابئة الذين كانوا قبل قيام الدولة العربية الإسلامية، هم أنفسهم أخوان الصفا الذين اشتهروا بعد قيام الدولة بعدّة قرون.

لقد تكوّنت الثقافة الحرانية في مدينة «حران» ملتقى الطرق في الحضارة القديمة. وجمع «الحرانيون» حصاد ثقافات متعددة هي خلاصة الفكر السوري والآرامي واليوناني. وبقوا جماعة فيثاغورية سرية حتى مطلع القرن التاسع الميلادي، فعُرِفوا بالصابئة الحرانية، واتصلوا بالدولة العربية الإسلامية، وترجموا وألّفوا في العلوم الرياضية والفلسفية والطب.

من شخصياتهم البارزة في الحضارة العربية الإسلامية المترجم والفيلسوف ثابت بن قرة الحراني، والعالم الفلكي محمد بن جابر البتاني الذي أطلق عليه الغرب اسم بطليموس العرب، وممن تأثّر بهم الفيلسوف والطبيب أبو بكر الرازي، والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي.

يعتمد الكتاب في عرضه واستنتاجاته على الوثائق، ويطرح عدّة إشكاليات يحاول حلّها.

الناشـــر

الغلاف: سندباد

السـعر ٢٢٥ ل.س